

الأخلاق

في القرآن والسنة

(الجزء الثاني)

الدكتور

على الخطيب

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

وعضواتحاد كتاب مصر وعضو رابطة الأدب الاسلامى العالمية

والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية

فرع جرجا - سوهاج

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

الأخلاق في القرآن والسنة / علي الخطيب . - ط ١ . - دسوق : دار العلم

والإيمان للنشر والتوزيع

١٧٦ ص ؛ ١٧,٥ × ٢٤,٥ سم .

تدمك : 978 - 977 - 308 - 344 - 7

١ . الأخلاق الإسلامية

أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٩٤٢٦

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات - ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com

elelm_aleman@hotmail.com

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

تحذير:

يحظر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأي شكل

من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

الفهرس

رقم الصفحة	المحتويات	مسلسل
٥مقدمة.....	١
٧الوفاء بالعهد.....	٢
١٧الأمانة.....	٣
٣٥العزة.....	٤
٤٦الرحمة.....	٥
٦٤العلم.....	٦
٩٨الصدق.....	٧
١٢٩درء السيئة بالحسنة.....	٨
١٣٣كراهية المؤمن لارتكاب الذنوب.....	٩
١٣٧البشاشة وحسن اللقاء.....	١٠
١٤٣القصد فى المشى.....	١١
١٤٦النأى عن المن والأذى.....	١٢
١٥٢الحياء.....	١٣
١٥٧الثبات على الحق.....	١٤
١٦١المودة فى القربى.....	١٥
١٦٥عدم الحنث.....	١٦

الأخلاق في القرآن والسنة ◆ ————— ◆ الجزء الثاني

١٧ الوفاء ١٦٧

١٨ أهم المصادر والمراجع ١٧٥

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أكرم المرسلين ، سيدنا محمد - ﷺ - وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين .

أما بعد :

فها هو ذا الجزء الثاني من الموسوعة العلمية ، وهي " الأخلاق في القرآن والسنة " وينتظم الموضوعات الآتية ، وهي :

الوفاء بالعهد ، الأمانة ، العزة ، الرحمة ، العلم ، الصدق ، درء السيئة بالحسنة كراهية المؤمن لارتكاب الذنوب ، البشاشة وحسن اللقاء القصد فى المشى ، النأى عن المن والأذى ، الحياء ، الثبات على الحق المودة فى القربى عدم الحنت ، الوفاء .

ويليه بإذن الله تعالى الجزء الثالث ، راجين من الله العلى القدير أن ينفع به المسلمين فى أرجاء المعمورة ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف

الأستاذ الدكتور / على الخطيب

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

جامعة الأزهر



obeikandi.com

" الوفاء بالعهد "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة، الوفاء بالعهد، فلا بد من ضوابط للحياة. حياة المرء مع نفسه، وحياته مع غيره من الناس، الأقربين والأبعدين من الأهل والعشيرة، والجماعة، والأمة، والأصدقاء، والأعداء، وكل ما يحيط بالإنسان في هذا الكون، ثم حياته مع ربه - سبحانه وتعالى، والعلاقة بالله - عز وجل - هي أساس الحياة جميعا، لذلك يقول الله - عز وجل -: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ هَيْمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة المائدة: ١]

إن الإسلام يقيم هذه الضوابط في حياة الناس، ويحددها بوضوح ويربطها كلها بالله - سبحانه وتعالى - حتى لا يكون الأمر فيها للأهواء، والشهوات المتغيرة، ولا للمصالح العارضة التي يراها فرد، أوتراها مجموعة، أوتراها أمة فيحطمون في سبيلها هذه الضوابط التي أقامها الله . سبحانه . هي المصلحة ما دام الله هو الذي أقامها للناس، فهي في مصلحة الناس جميعا، ولورأها البعض غير ذلك فمن الواجب على المسلم التسليم والإذعان، والانقياد، والطاعة، فلا تقدير للمرء أمام تقدير الله - عز وجل - حيث أن الله - سبحانه - هو العالم بأحوال العباد، وما يكون في مصلتهم .

لا تدبر لك أمرا
فأولوا التدبير هلكا
سلم الأمر إلينا
نحن أولى بك منك
هذه الضوابط يسمها الله - عز وجل - " العقود " فقال سبحانه -: " يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ " وهولفظ ينتظم، ويشمل كل عقد وعهد بين الإنسان وربه، وبين الإنسان والإنسان .

يقول " ابن عباس " - رضي الله عنهما - " العقود هي العهود وهي ما أحل الله، وما حرم، وما فرض في القرآن كله من التكليف والأحكام . وهذا القول اختاره الطبري والزمخشري والأرجح هو العموم، فهو أمر بالوفاء بكل عقد . وهو أيضا اختيار صاحب " البحر المحيط " وجمع من المفسرين . قال " بن اسلم " : هي ستة : عهد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع وعقد النكاح، وعقد اليمين، وهوكذلك في " ابن كثير " .

" أن الله يحكم ما يريد " يعنى يقضى في خلقه بما يشاء لأنه الحكيم في أمره ونهيه

ويقول " ابن كثير " في معنى هذه الآية " هي عهد من محمد رسول الله - ﷺ - " العمر بن حزم " حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون " .

وعن " ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : يعنى العقود يعنى العهود وهى ما احل الله ، وما حرم ، وما فرض ، وما حد في القرآن كله ، ولا تغدروا ، ولا تنكثوا ، ثم شدد في ذلك فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧] .

وهذه آية تدل على لزوم العقد وثبوته ، فيقتضى نفى خيار المجلس ، وهذا مذهب " أبى حنيفة ومالك " وخالفهم في ذلك " الشافعي ، وأحمد ، والجمهور " والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن " ابن عمر - رضي الله عنهما - قال ، قال رسول الله - ﷺ - " البياعان بالخيار ما لم يتفرقا " وفى لفظ آخر " للبخاري " " إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا " وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع ، وليس هذا منافياً للزوم العقد ، بل هو من مقتضياته شرعاً ، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود ، فإذا أبرم المسلم عقداً فيجب عليه أن يحترمه ، وإذا أعطى عهداً فيجب أن يلتزمه ، ومن الإيمان أن يكون المرء عند كلمته التي قالها ينتهي إليها كما ينتهي الماء عند شطآنه فيعرف بين الناس بالوفاء بالعقود ، والالتزام بالعهود ، فالعهد لا بد من الوفاء به ، كما أن اليمين لا بد من البر بها ، ومناط الوفاء والبر ، أن يتعلق الأمر بالحق والخير ، وإلا فلا عهد في عصيان ، ولا يمين في مآثم ، يقول رسول الله - ﷺ - : " من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ، فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير " فلا عقد ولا تعهد إلا بمعروف (١) .

روى " أنس بن مالك " قال : غاب عم " أنس بن النضر " عن قتال " بدر " فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين !! لئن أشهدنى الله مع النبي قتال المشركين ليرين ما أصنع !! فلما كان يوم " أحد " انكشف المسلمون فقال : اللهم انى اعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين . ثم تقدم ، فاستقبله " سعد بن معاذ " فقال : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضرانى لأجد ريحها من دون أحد !! قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، ثم تقدم ، قال أنس : فوجدناه به بضعاً وثمانين ما بين ضربة بالسيف ، وطعنة بالرمح ، ورمية بسهم ،

ووجدناه وقد مثل به المشركون ، فما عرفه إلا أخته بشامة فيه أوبينانه . قال أنس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه . ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا بِبَدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣] .

ويقول الإمام " الغزالي " ولا أعنى به صاحب " الإحياء " ولكنى أعنى به إمام العصر الحديث المغفور له- بإذن الله تعالى - الشيخ " محمد الغزالي " والوفاء بالعهد يحتاج إلى عنصرين ، وإذا اكتملا في النفس سهل عليها أن تنجز ما التزمت به ، فإن الله أخذ على " آدم " أبي البشر ، عهداً مؤكداً ألا يقرب الشجرة المحرمة لكن " آدم " ما لبث أن نسي وضعف ، ثم نكث في عهده ، قال تعالى :- ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [سورة طه: ١١٥] فضعف الإرادة وضعف العزيمة عائقان كثيفان عن الوفاء بالواجب ، والإنسان . تتجدد الحوادث أمامه ، وترادف الهوموم المختلفة عليه- يفعل الزمان فعله العجيب في نفسه فتحبوا المعالم الواضحة ، ويمسى ما كان بارزاً في نفسه لا يكاد يبين ، والذكر المضطرد اليقظ ضرورة لازمة للوفاء ، فمن أين لناسي العهد أن يفى به ؟ لذلك ختمت أية العهد بعنصر التذكير ، وهو قول الله تعالى : ﴿... وَيَعَاهِدُ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٢] وأقدار الرجال تتفاوت تفاوتاً شاسعاً في هذا المضمار ، وإن ثمن الوفاء قد يكون فادحاً ، قد يكلف المال ، أو الحياة ، أو الأحبة ، بيد أن هذه هي تكاليف المجد المنشود في الدنيا والآخرة ، يقول الشاعر :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفتقر والإقدام قتال

والعهود التي يرتبط بها المسلم درجات ، فأعلاها مكانةً ، وأقدسها زمناً العهد الأعظم الذي يكون بين العبد وربّه ، فإن الله خلق الإنسان بقدرته ، ورباه بنعمته ، وطلب منه أن يعرف هذه الحقيقة ، وإن يعترف بها ، وإلا تشرد به الغواية فيجعلها ويجدها .

﴿أَلَمْ نَعَاهِدْ إِلَىٰكُمْ يَبْنَىٰ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [٦٠] ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [سورة الروم: ٦٠: ٦١] .

وإذا كان هناك من البشر من لم يستمع إلى المرسلين ، ويشهد بما جاءوا به ، فإن له من فطرته سائفاً يحدوه إلى ربه ، ويبصره بخالقه ، مهما حفلت البيئة بصنوف الفساد ، وضروب التخريف ، وهذا هو معنى الميثاق الذي أخذه الله على الناس كافةً ، يقول الحق- سبحانه وتعالى- في محكم كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا

غَفِيلِينَ ﴿١٧٣﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْهَلِكُمْ مَا فَعَلَ
 الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٥﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢: ١٧٤].
 والوفاء بالعهد أساس كرامة الإنسان في الدنيا، وسعادته في الآخرة، قال تعالى
 ﴿...أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأْرَهُبُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤٠].
 قص "عوف بن مالك" - رضي الله عنه - قال: كنا عند النبي - ﷺ - تسعة
 أو ثمانية أو سبعة فقال - عليه الصلاة والسلام - ألا تبايعون رسول الله؟ فبسطنا أيدينا
 وقلنا: نبايعك يا رسول الله، قال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتصلوا
 الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا، وأسر كلمة خفية، قال: ولا تسالوا الناس شيئاً، قال
 عوف بن مالك - رضي الله عنه - " فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط صوط أحدهم فما
 يسأل أحداً أن يناوله إياه" (١) فانظر إلى الوفاء بالبيعة، ودقة تنفيذها، وليس هذا إلا
 نصحاً لكل طائفة بما تعتبر أجوح إليه، فالحاكم يُنصَح ألا يظلم، والتاجر ينصح بالآ يغش،
 والموظف ينصح بالا يرتشي وهكذا، وإلا فكل مسلم مكلف بالدين كله، وقد ظهرت في بلاد
 الإسلام فرق تُعطى عهداً خاصة لا ينبغي الاكتراث بها فهو لاء كأدعياء الطب، الذين
 يصفون الأدوية المزورة فلا تزيد المرضى إلا مرضاً وتعاليم الإسلام كل لا يتجزأ، والعمل بها
 واجب محكم في كل زمان ومكان، والعهد الذي قطعه الأنصار - رضي الله عنهم - على
 أنفسهم يعد من ألع المواثيق والعهود في تاريخ العقائد، وأدلهما على التجرد لله، والفناء في
 سبيل الحق.

وقد تم في ليلة رائعة في موسم الحج وعاد الناس بعدها يعالجون شئونهم المتباينة
 بيد أن تبعات هذا العهد لزمّت أصحابه فقبلوها رغبة لا رهبة، وعن سماحة وطواعية،
 وقدموا دماءهم الذكية سهلة في غزوة " بدر الكبرى".

وكان النبي - ﷺ - في الأزمات العسود يعتمد على هذا الوثوق لنصرة الدين،
 وإعلاء كلمة الله، فلما انكشف المسلمون في الجولة الأولى من معركة " حنين"، أهمل
 رسول الله - ﷺ - الجموع الكثيرة التي دخلت - بعد - في الإسلام، وصاح بالأوفياء
 الذين بايعوه في العقبة لإنقاذ الموقف. قص " انس" - رضي الله عنه - قال: لما كان يوم
 حنين أقبلت، هوازن، وغطفان، وغيرهم بذرايرهم، ونعمهم ومع رسول الله - ﷺ - يومئذ
 عشرة آلاف، ومعهم الطلقاء فأدبروا عنه حتى بقى وحده، فنادى يومئذ نداءين، لم يخلط

بينهما شيئاً ، التفت عن يمينه فقال : يا معشر الأنصار ، فقالوا : لبيك يا رسول الله ، نحن معك أبشر ، ثم التفت عن يساره فقال : يا معشر الأنصار ، فقالوا : لبيك يا رسول الله ، ابشر نحن معك وهو على بغلة بيضاء فنزل فقال: أنا عبد الله ورسوله، فانهزم المشركون وأصاب غنائم كثيرة فقسمها بين المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار منها شيئاً فقالوا: إذا كانت الشدة فنحن ندعى ويعطى الغنائم غيرنا ؟ فبلغه ذلك فجمعهم وقال : يا معشر الأنصار ما شئ بلغني عنكم ؟

فسكتوا ، فقال : يا معشر الأنصار أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون بمحمد - ﷺ - تحوزونه إلى بيوتكم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله رضينا، فقال رسول الله - ﷺ - لوسلك الناس واديا، وسلك الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار" (١) .

ومن الوفاء المحمود أن يذكر الرجل ماضيه الذاهب لينتفع به في حاضره ومستقبله فإن كان معسراً فأغناه الله ، أو مريضاً فشفاه الله ، فليس يسوغ له أن يفصل بين أمسه ويومه بسور غليظ ، ثم يزعم أنه ما كان قط فقيراً ، ولا مريضاً ويبنى على غروره بحاضره مسلكا ، كله فظاظة وجحود ، وضد أى نوع من الغدر ينتهي بصاحبه إلى النفاق وربما انطرد به من رحمة الله فلم تتسع بعدئذ له .

روى أن رجلاً من أهل المدينة يُدعى " ثعلبة " أتى مجلساً من مجالس الأنصار فأشهدهم " لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حق حقه وتصدقت منه ووصلت القرابة ، فمات ابن عم له ، فورث منه مالا ، فلم يف بشئ مما عاهد عليه ، فنزل قول الله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنۡ ءَاتٰنَا مِنْ فَضْلِهِۦ لَنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ ۗ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتٰهُمْ مِنْ فَضْلِهِۦ جٰلَوْا۟ بِهٖ وَقَوْلُوْا وَهُمْ مُّعْرِضُوْنَ ﴿٧٦﴾ فَاَعْقَبَهُمْ نِقَافًاۙ فِىۡ قُلُوْبِهِمْۙ اِلَىۡ يَوْمٍ يَلْقَوْنَہٗۙ بِمَاۙ اٰخَفَوْا۟ اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُۙ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ﴿٧٧﴾ اَلَّذِيۡ يَعْلَمُوْۤاۙ اَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُۙ سِرَّهُمْۙ وَنَجْوَاهُمْۙ وَاَنَّ اللّٰهَ عَلٰمُۙ الْغُیُوْبِ ﴿٧٨﴾ [سورة التوبة: ٧٥: ٧٨].

ومن القصص الدالة على شؤم الغدر وعقوق النعمة ، ما رواه " أبوهريرة " - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال : " أن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص ، واقرع ، وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عنى الذي قدزنى الناس ، فمسحه فذهب عنه قدره وأعطى لوناً وجلداً حسناً فقال : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل فأعطاه ناقة عشراء

وقال: بارك الله لك فيها ، ثم أتى الأقرع فقال : اى شئ أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عنى هذا الذي قدرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه وأعطى شعرا حسنا قال: فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ، فأعطى بقرةً حاملا وقال : بارك الله لك فيها ، ثم أتى الأعمى فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال: أن يرد الله على بصري فمسحه فرد الله عليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال الغنم ، فأعطى شاةً ولآدةً ، فأنتج هذان ، وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، ثم انه أتى - أى الملك - الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحيال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن بعيراً أتبلغ به سفري ، فقال " الحقوق كثيرة فقال : كأني أعرفك ؟

ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ؟ قال : إنما ورثت هذا المال كائراً عن كابر قال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، وأتى الأقرع في صورته ، فقال له مثل ذلك، ورد عليه مثل ما رد الأول فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، ثم أتى الأعمى في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال فقال : قد كنت أعمى فرد الله على بصري فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم لشيء أخذته لله ، فقال : امسك مالك ، فإنما ابتليتكم فقد رضي عنك وسخط على صاحبك " (١).

والإسلام يوصى باحترام العقود ، والتي تسجل فيها الالتزامات وغيرها قال - ﷺ -
" المسلمون عند شروطهم " (٢).

ومما لا ريب فيه أن الثقة في ميدان التجارة وجميع المعاملات الاقتصادية أساسها الوفاء بالعهد ، بيد أنه من الواجب أن تكون الشروط متفقة مع الشريعة الإسلامية وإلا جاءت مخالفة للشريعة الإسلامية ، فلا يجب على المسلم أن يلتزم بها .

وقد منح الإسلام عقد الزواج مزيداً من الرعاية فقال رسول الله - ﷺ - : " أن أحق ما وفيتم به من الشروط ما استحلتتم به الفروج "

ومن ثم فليس يجوز لرجل دخل بامرأة أن يغال درهماً من حقها ، وفى الحديث "أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر ، أوكثر ليس في نفسه أن يؤدى إليها حقها ، خدعها ، فمات ولم يؤد إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهو زان وأيما رجل استدان ديناً

1- رواه البخاري .

2- رواه البخاري .

هذا البيان الحاسم ، والتبيان الصارح ، والتوجيه الراشد يهبط اللثام عن روح الإسلام في معاملة الذين لم يعتنقوه ، فبينما ترى اليهود ينكرون على غيرهم حق الوفاء ، ويبخلون عليهم بنبل المعاملة ، ويحسبون أنهم وحدهم " أبناء الله وأحباؤه " وأن الله جعل رحمته ، وأمانه لشعب اسرائيل فحسب ترى الاسلام يدفع بحمية بالغة عمن منحهم ذمته ، وأدخلهم في عقده ، ويتحدث عن الكافرين الى المسلمين حديثاً له مغزاه ، وهدفه ومرماه ، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْمِلُوا سَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَاتِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَنفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ [سورة المائدة: ٢].

فانظر كيف كان تصوير الآيه الكريمة لنظر الكفار ، وتماشت مع مزاعمهم وهم وثنيون فعدتهم طلاب فضل من الله ورضوان وطلبت من المسلمين مهما بلغت قوتهم أن يتعاونوا على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان . ومن الشئون والتعاليم التي اهتم بها الإسلام ، ونوه بقيمة الوفاء فيها " الدينون " فإن سداد الديون من الحقوق المؤكدة لدى الله . سبحانه . كما نهى عن المطل ، وتأخير السداد وكان أول ما شرعه الاسلام حرمة الاستدانة إلا لحاجة قاهرة ، فمن الحرام أن يفترض المرء في أمور يمكن الاستغناء عنها ، بل عُد ذلك من الآثام التي يلحقها القصاص .

عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - " إن الدين يقضى من صاحبه يوم القيامة اذا مات ، إلا من يدين في ثلاث خلال: الرجل تضعف قوته في سبيل الله فيستدين يتقوى به لعدوا الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد ما يكفنه ويواريه الا بدين ، ورجل خاف على نفسه العزوبة فينكح حسبه على دينه " (١) .
وفي رواية أخرى ان رسول الله - ﷺ - قال : " يدعوا الله بصاحب الدين يوم القيامة ، حتى يوقف بين يديه ، فيقال : يا بن آدم فيم أخذت هذا الدين ؟ وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يارب انك تعلم انى أخذته فلم أكل ، ولم أشرب ، ولم البس ولم أضيع ، ولكن أتى على ما حرق ، وإما سرق ، وإما ضيعة . فيقول الله : صدق عبدى انا احق من قضى عنك . فيدعوا الله بشئ فيضعه فى كفة ميزانه فيرجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل رحمته " (٢) .

1 - رواه ابن ماجه .

2 - رواه احمد وضيعة .

ويتضح لنا من هذا الحديث ان الله -عز وجل- يعذر من يضطر إلى الدين لازمة شديدة ، والذي يعجز عن القضاء لمصائب جائحة ، أما الذي يقترض دون اضطرار كما وأماناً الى ذلك آنفاً ، أوجائحة ومصيبة شديدة تلم به فهو سارق جرى .

ويقول رسول الله - ﷺ -: " من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله " (١) .

والإسلام بهذه التعاليم يريد أن يوفر للديون الضمانات اللأزمة حتى لا يتلاعب الناس أو يستغلوا أموال غيرهم .

وليتأكد المسلم من أن الوفاء بالديون أمر لا ريب فيه ، وان أداء الحقوق لأصحابها وسداد الدين أمر لا مفر منه فهو من الأمور المقررة في الإسلام ، وهذا عين الحق والعدل ، والسلوك الحضارى الذى يدل على رقى الأمة وتحضرها وتمدهنها وتمسكها باخلاق القرآن الكريم .

يقول شوقى:

إنما الأمم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وعن أبى قتادة -رضي الله عنه - قال رجل : يا رسول الله ، أرايت ان قتلت في سبيل الله أنكفر عنى خطاياى؟ قال رسول الله - ﷺ -: نعم ، إن قُتِلتَ وانت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر ثم قال : كيف قلت ؟ فأعاد . قال : نعم إلا الدين ، فان جبريل أخبرنى بذلك " (٢) .

وفي رواية أخرى : " يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين " (٣) .

وعن أبى الدرداء - رضي الله عنه - " إنه كان يقف حين ينتهى الى الدرب فى ممر الناس الى الجهاد ، فينادى نداءً يسمع الناس : يا أيها الناس من كان عليه دين بطنى انه أصيب فى وجهه هذا لم يدع له وفاء فليرجع ولا يتبعنى ، فإنه لا يعود كفافاً " هذا ولقد استهان المسلمون بالقروض ، والديون ، فاقترضوها لارضاء غرائزهم ، وتحقيق مطامعهم ، والجرى وراء شهواتهم وملذاتهم وغواياتهم ، واقترضوا الأموال الطائلة من اليهود والنصارى بالربا الذى أحله بعض العلماء ناسين الوقوف بين يدى الله - سبحانه - فارضوا الحكام بسخط الله ، وكان واجباً أن يرضوا ربهم بسخط حاكمهم ، وهو محرم تحريماً بائناً ،

1 - رواه البخارى .

2 - رواه مسلم .

3 - رواه مسلم .

وجازما قاطعا ، فماذا يقول هؤلاء العلماء الذين حللوا الربا ، وارخوا العنان للناس في أكله ، وألقوا الحبل على الغارب ناسين أو متناسين لقاء الله - عز وجل - ماذا يقولون لله حين يلقونه وهم وقوف في عرصات القيامة ، والحكم هو الله ، والخصم لهم رسول الله .

يا من تمتع بالدينيا وزينتها ولا تنام عن اللذات عيناه

أفانيت عمرك فيما ليس تدركه تقول لله ماذا حين تلقاه

وكان من آثار الاقتراض من اليهود والنصارى بالربا المحرم أن هزموا ونكبوا نكبات جائحة في ديارهم وأموالهم ، وهزموا هزائم منكرة في جميع الميادين السياسية ، والاقتصادية ، وغيرها وما ذلك إلا لأنهم تواكلوا ، واستندوا الى عدوهم ، وعدو دينهم الذى يريد أن يستاصل شاققتهم ، ويقضى على خضرائهم ، ولولا سياط القانون لضاعت حقوق الناس .

أن الله - عز وجل - يحب الأوفياء من عباده ، وما أهلك القرى الظالمة إلا بعد أن قيل في أهلها ﴿ وَمَا جَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن جَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٠٢] .

ديكم الإسلام بتعاليمه الراقية ، وأخلاقه العظيمة ، التى تحفظ حقوق الناس مسلمين وغير مسلمين ، وهذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم .^(١)

1 - تفسير ابن كثير الدمشقى ج ٢ ص ٢ ، ٣ وما بعدهما ،

□ فى ظلال القرآن الامام الشهيد سيد قطب ج ١ ص ٣١٦ .

□ تفسير الطبرى .

□ تفسير القرطبى .

□ روح المعانى .

□ تفسير المراعى .

□ التفسير الكبير - مفاتيح الغيب .

□ تفسير النسفى .

□ الكشاف للزمخشرى .

□ لطائف الاشارات للامام القشبرى .

□ خلق المسلم للمغفور له - باذن الله تعالى - الشيخ محمد الغزالى ص ٤٩ وما بعدها بتصرف .

□ صحيح مسلم .

□ صحيح البخارى .

□ سند ابن ماجة .

" الأمانة "

ومن الأخلاق التي وجهنا إليها القرآن الكريم ، وأرشدنا الى اتباعها كى نسود ونقود ، وذلك بفضل التوجيهات الربانية التي اودعها الله . سبحانه وتعالى . كتابه الكريم . أجل انه تنزيل من حكيم حميد ، فيقول الله- عزوجل- مبينا الأخلاق الكريمة ، والفضائل الحميدة ، والسجايا الحسنة ، والسلوك الراقى المتمدن والذي يساير كل عصر من العصور ، ويرسم للمسلم منهجا مستقيما يحتديه فى حياته ، هذا الخلق هو الذى ارشدنا إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْكُوبُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْتَعِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبِى يَدْعُوكَ لِتَجْزِيَنَا أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا بِنْتُ اسْتَجِرِيْنِي إِنَّكِ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ بِحَدِيثِ رَبِّكِ فَتُنْتِنَا هَتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرْنِي ثُمَّ نَحِيحُ فَإِنْ آمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ [سورة القصص: ٢٢: ٢٨].

ولقد وقع خلاف بين العلماء فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾... [سورة القصص: ٢٢] فقال بعضهم : انه خرج ما قصد مدين ولكنه سلم نفسه لله تعالى ، وأخذ يمشى من غير معرفة ، فأوصله الله تعالى الى مدين . وهذا قول " ابن عباس -" رضى الله عنهما . وقال آخرون : لما خرج قصد مدين لأنه وقع فى نفسه ان بينه وبينهم قرابة لأنهم من ولد مدين ابن ابراهيم- عليه السلام ، وهو كان من بنى اسرائيل لكن لم يكن له علم بالطريق ، بل اعتمد على فضل الله تعالى .

ومنهم من قال : ان جبريل . عليه السلام . جاءه وعلمه الطريق ، وقيل جاءه ملك على فرس فسجد له موسى من الفرح ، فقال له الملك : لا تفعل واتبعنى ، فاتبعه نحو مدين . واحتج القائل بأن موسى -عليه السلام- خرج وهو ما يقصد مدين ان الله تعالى قال ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾... ﴿... ولو كان قاصداً مدين لقال: (ولما توجه الى مدين) لكنه قال: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾... وقوله: ﴿... عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

[سورة القصص: ٢٢]

فهذا كلام شك لا عالم . والأقرب أن يقال أنه قصد الذهاب الى مدين وما كان عالماً بالطريق ثم انه كان يسأل الناس عن كيفية الطريق لأنه يبعد من موسى - عليه السلام - في عقله وذكائه أن لا يسأل .

وخرج من مصر بغير زاد ، ولا ظهر ، يعنى ولا راحلة يركبها لتعينه على وعناء السفر، ومشقة الطريق .

أما قوله ﴿...عَسَىٰ رَيْتَ أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (٢٢) فهو نظير قول جده ابراهيم - عليه السلام - ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩١) [سورة الصافات: ٩٩] . ويقول الإمام النسفي - رحمه الله تعالى - والتقدير : إني ذاهب الى مكان فيه طاعة ربي .

والمعنى ولما وصل سيدنا موسى الى مدين وهي قرية " شعيب " - عليه السلام . وجد على البئر الذى يسقى منه الرعاة جمعاً كثيراً يريدون سقى إبلهم وغنمهم ، ومواشيهم ، ووجد من غير الجماعة الرعاة ، امرأتين تمنعان غنمهما عن الماء ، فقال لهما سيدنا موسى - عليه السلام - : ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء ؟ ولما لا تسقيان مع السقاء ؟ قالتا من عادتنا التآنى ، والتصبر حتى ينصرف الرعاة مع أغنامهم عن الماء ، ولا طاقة لنا على مزاحمة الأقوياء ، ولا نريد مخالطة الرجال ، وأبونا رجل بلغ من الكبر عتياً لا يستطيع لضعفه ان يباشر سقاية الغنم ، ولذلك اضطررنا إلى أن نسقى بأنفسنا . ويقول " أبوحيان " وفى هذا القول اعتذار سيدنا موسى - عليه السلام .

عن مباشرتهما السقى بأنفسهما وتبينه على أن أباهما لا يقدر على السقى لشيوخته وكبره ، وأيضاً فيه استعطاف لسيدنا موسى - عليه السلام - فى إعانتهم فسقى لهما غنمهما رحمةً بهما ، ثم تنحى جانباً فجلس تحت ظل شجرة فقال : يارب إني محتاج إلى فضلك وإحسانك ، والى الطعام الذى أسدُّ به جوعى طلب من الله ما يأكله ، وكان قد اشتد عليه الجوع ، يقول " الضحاک " مكث سبعة أيام لم يذوق فيها طعاماً إلا بقل الأرض .

ويقول " ابن عباس " - رضي الله عنهما - سار موسى من مصر الى مدين ليس له طعام إلا البقل ، وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل الى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس فى الظل وهو صفوة الله من خلقه ، وان بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وان خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج الى شق ثمرة ، ثم يعد هنيهة .

والكلام فيه ايجاز غير مُخِلٍ بالمعنى ، ولا غرور فالقرآن الكريم قمة الإعجاز البلاغى واللغوى ، وهذا الايجاز هو انهما ذهبتا سريعتين ، وكان من عادتتهما الابطاء فحدثنا بما كان من امر الرجل ، وهو سيدنا موسى - عليه السلام - فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته تمشى مشية الحرائر بحياءٍ وخجل قد سترت وجهها بثوبها ، قال " عمر " - رضي الله عنه - " لم تكن بسلف من النساء ، خراجه ولا جبة والسلف هي المرأة الجريئة السليطة الجسور ، فقالت له : إن أبى يطلبك ليجزيك خيراً عن أجر السقايا لغنمنا - يقول " ابن كثير " وهذا تادب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة ، ويقول اهل العلم : وهو ما نراه ونفيل إليه أنه قال سبحانه " عَلَى اسْتِحْيَاءٍ " ليكون الحياء في القول والفعل ، حياء في القول فلا تخنت ولا تكسر ، ولا ميوعة في الكلام ، وحياء في الفعل حتى لا يطمع الذئ في قلبه مرض ، ولا يمكن لسيدنا موسى - عليه السلام - أن تتسرب الى قلبه ريبة ، بيد أن التوجيه عام الى جميع المسلمين كى يتخذوا من هذا الموقف عبرةً وعظةً وقدوةً ، خاصةً شبابنا في هذا العصر الذى يوج بالتيارات ، والفتن ، الواردة التى تستهدف اسلامنا ، وتلك الرياح الهوجاء والأعاصير والسهام الجاززة ، والرماح الطاعنة ، والتى تسدد حيال صدور المسلمين تريد الكيد للاسلام ، والنيل من سيدنا محمد - ﷺ - خاصة الرياح التى تهب بالسم من اليهودية الماكرة ، والنصرانية الحاقدة .

فلما جاءه موسى - عليه السلام - وقص عليه ما كان من أمره والسبب في هربه من مصر الى مدين قال له سيدنا شعيب - عليه السلام - لا تخف فأنت في بلد آمن لا سلطان لفرعون عليك ، وقد نجاك الله من كيد الكائدين ، وسفاهة المجرمين ، وحقد الحاقدين ، ومكر الماكرين .

﴿... وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٠]

فالمكر في جانب البشر معناه الخبت واللؤم ، والمكر في جانب الله - عز وجل - معناه التدبير ، فقالت إحدى بنات سيدنا شعيب : يا أبتى استاجر لرعى اغنامنا وسقايتها ، فإن أفضل من تستاجر لهذا العمل ، والقيام به خير قيام من كان قويا امينا مثل هذا الشاب .

يقول " أبى حيان " وقولها كلام حكيم جامع لأنه اذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر من الأمور فقد تم المقصود ، وروى أن شعيباً - عليه السلام - قال لابنته : وما أعلمك بقوته وأمانته ؟ فقالت : انه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، هذا فى القوة ، أما فى الأمانة فقالت بنت سيدنا شعيب - عليه السلام - انى لما جئت

معه تقدمت أمامه فقال لي : " كوني من ورأى ودليني على الطريق ، ولما أتيت خفض بصره فلم ينظر إليّ ، فرغب شعيب في مصاهرته ، وتزويجه بإحدى بناته فزوجه إياها وهي " صافوراء " ولذلك عرض عليه الزواج فقال له : إني أريد أن أزوجك إحدى بناتي هاتين الصغرى أو الكبرى بشرط أن تكون أجيراً لي ثمانى سنين ترعى فيها غنمى فإن اتممتها عشر سنين فذلك تفضل منك وليس بواجب عليك ، وما أريد أن أوقعك في المشقة باشتراك العشر ، فقال له سيدنا موسى - عليه السلام- رداً على كلام سيدنا شعيب - عليه السلام - ستجدنى إن شاء الله حسن المعاملة ، لئن الجانب ، وفيا بالعهد ، يقول الإمام القرطبي . رحمه الله تعالى . " فى الآيه عرض الولي ابنته على الرجل ، وهذه سنة قائمة ، حيث ان سيدنا شعيب عرض ابنته على سيدنا موسى ، وعرض عمر- رضى الله عنه - ابنته " حفصة " على أبى بكر وعثمان . رضى الله عنهم .

وعرضت الموهوبة نفسها على النبى - ﷺ - فمن الحسن عرض الرجل وليته على الرجل الصالح ، وذلك اقتداءً بالسلف الصالح ، فقال موسى . عليه السلام لسيدنا شعيب إنما قلت أوعاهدتني عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج عنه ، وأى المديتين الثمانى أو العشر أديتها لك فلا إثم ولا حرج على ، والله شاهد على ما تعاهدنا ، وتواتقنا عليه ، فلما أتم موسى المدة التي اتفقا عليها يقول " ابن عباس " - رضى الله عنهما - قضى أتم الأجلين وأكملهما ، وأوفاهما وهو عشر سنين .

ومشى بزوجه مسافراً بها إلى مصر وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو؟ قيل انه " شعيب " النبي - عليه السلام - الذي أرسل إلى أهل مدين وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء ، وقد قاله الحسن البصري ، وغير واحد ، وقيل أن شعيباً - عليه السلام - هو الذي قص موسى عليه القصص ، وقيل بل كان ابن أخى شعيب ، وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب وقال آخرون كان شعيب قبل زمان موسى - عليه السلام - بمدة طويلة ، لأنه قال لقومه " وما قوم لوط منكم ببعيد " ، وقد كان هلال قوم لوط في زمن " الخليل " - عليه السلام - بنص القرآن وكان بين الخليل وموسى - عليهما السلام - مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة والموجود في كتب بني إسرائيل إن هذا الرجل اسمه " بيرون " ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " ما نصه في هامش صفحة ٢٦٨٧ المجلد الخامس (سبق أن قلت مرة في الظلال أن هذا الرجل هوشعيب أو قلت مرة انه قد يكون النبي شعيباً أولاً يكون وأنا الآن أميل إلى ترجيح انه ليس هو وإنما هوشعيب آخر من مدين) والذي يحمل على هذا

الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له ولم يبق معه إلا المؤمنون به .

فلو كان هوشعيب النبي - عليه السلام - بين بقية قومه المؤمنين ، ما سقوا قبل بنتي نبيهم الشيخ الكبير فليس هذا سلوك قوم مؤمنين ، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول ميل ، يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئاً من تعاليمه لموسى جهرة . ولو كان شعيباً النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات .

ويقول صاحب " التفسير الكبير " أن أباهما هو " بيرون " ابن أخي شعيب - عليه السلام - وشعيب مات بعدما عمى . وهذا قول " ابن عباس " - رضي الله عنهما - وقيل ليس في القرآن ما يدل على أن أباهما كان شعيباً ، ويقول الحسن انه رجل مسلم قبل الدين عن شعيب ، والأكثر على انه شعيب - عليه السلام .

ونحن نرى أن الأمر الذي يهمننا ، ونهدف إليه ونتغياها من هذه القصة هو العبرة والعظة والدرس المستفاد من هذه الأخلاق التي يسجلها القرآن الكريم في ذلك الحوار الذي دار بين سيدنا موسى - عليه السلام - وبين البنيتين أياً كان أبوهما حيث أن الأخلاق بأسمى معانيها ، وغاياتها ومقاصدها تجلت في معاملة سيدنا موسى للبنتين ، وأنه سقى لهما ، ولم تحتل شهامته ، ومروءته ، وخلقه أن يرى بنتين بين الرجال لسقى أغنامهم ، ولا يستطيع ذلك من زحام الرعاة وهذه أخلاق المؤمنين ، ولعل قوة سيدنا موسى النفسية هي التي أوقعت في قلوب الرعاة هيبته حيث أن قوة الإيمان ترهب وترعب ، حيث أن الناس يتأثرون بالقوة الروحية أكثر من غيرها من القوى ، ومنه أيضاً أن " العباس بن عبد المطلب " حيث أقره النبي - ﷺ - أن يرى " أباً سفيان " الجيش الإسلامي وهو متأهب لدخول مكة يوم الفتح .

يقول " أبوسفيان " حين رأى الجيش في استعراض عسكري ، ورأى خاصة الكتيبة الخضراء والتي كانت مكونة من الأنصار والمهاجرين ، تلك القوات الخاصة التي كان النبي - ﷺ - يقودها بنفسه ، وهم مدججون بالسلاح والدروع لا يبين منهم إلا العيون عندئذ نرى " أباً سفيان " يقول يا عباس لقد أصبح ملك أخيك الغداة عظيماً ، فقال له العباس : يا أباً سفيان ليس الملك إنما هي عظمة النبوة .

ولذلك نقول لا حاجة لنا في استعراض آراء المفسرين عن قوة سيدنا موسى مثل رفع الحجر الذي كان يغطي البئر، وكان لا يرفعه إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل . فالبئر لم يكن مغطى، إنما كان الرعاة يسقون فكيف يسقون وهو مغطى ؟

فناهم سيدنا موسى وسقى ، كما انه لا حاجة لنا كذلك للروايات التي تثبت أمانة سيدنا موسى مثل قوله للفتاه " إمشي خلفي ودليني على الطريق " خشية أن يراها ، أو أنه قال لها هذا القول بعد أن مشى خلفها ، فرفع الهواء ثوبها عن كعبها ، فهذا كله تكلف لا داعي له ، ولا يجب الالتفات إليه ، كما أنه لا يجب ترديده بل من الواجب الإعراض عنه ، والبحث وراء ما تتغياه القصة من الأخلاق الكريمة ، لأنه دفع لريبة لا وجود لها أصلاً ، وسيدنا موسى نظيف الحس ، عفيف النظر ، وهي أيضاً كذلك ، ولعل الشيخ استجاب لرغبتها ، ونزل على رأيها لأنه أحس من نفس الفتاه ونفس موسى ثقة متبادلة ، وميلاً فطرياً سليماً يصلح لبناء أسرة مسلمة على أساس من الدين والأخلاق ، فالإسلام يرقب من معتنقه أن يكون ذا ضمير يقظ ، تُصان به حقوق الله ، وحقوق الناس ، وتحرس به الأعمال من دواعي التفريط والإهمال ، ومن ثم أوجب على المسلم أن يكون أميناً ، والأمانة في الإسلام واسعة الدلالة ، فليست الأمانة في الإسلام محصورة في حفظ الودائع والأمانات ، من أموال وحلى ، ومعاملات ورقية ، أو عقود بيع أو رهن أو إيصالات أمانة ، وشيكات ، وغير ذلك من الأمور التي يتعامل بها الناس في حياتهم الدنيوية ، يقول رسول الله - ﷺ -: " كلكم راع ومسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيته ، والخادم في مال سيده راع ومسئول عن رعيته " (١) .

يقول " ابن عمر " - رضي الله عنهما - وهو راوي الحديث: سمعت هؤلاء من النبي - ﷺ - واحسبه قال " الرجل في مال أبيه راع وهو مسئول عن رعيته " .
 إن الإسلام يرقب من معتنقه أن يكون ذا ضمير يقظ تصان به الحقوق وتحرس به الأعمال من دواعي الإهمال والضياع ، والتفريق ، ومن ثم أوجب الإسلام على المسلم أن يكون أميناً .

والأمانة في نظم الاسلام واسعة الدلالة تنظم كل شئ في حياة المسلم يقول الله - عز وجل - : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَىٰ مِن خَيْرِ قَوْمٍ ۗ فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ أَنبِيٌّ فَأَجْرٌ لِّكَ أَجْرٌ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة القصص: ٢٤: ٢٥]

والمعنى : فسقى لهما غنمهما ، ثم انصرف إلى ظل شجرة لِيُقَبِّلَ وَيَسْتَرِيحَ وَنَاجِيَ ربه قائلًا : " إني لمحتاج إلى شئٍ تنزله إليّ من خزائن جُودِكَ وكرمك .

روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : " لقد قال موسى - عليه السلام - ذلك وهو أكرم خلق الله عليه ، ولقد افتقر إلى شق ثمرة ولصق بطنه بظهره من شدة الجوع ، فجاءه الفرج بعد الشدة وأجاب الله طلبته ، وحقق على الفور رغبته ، فجاءته إحدى المرأتين تمشى وهى حياء قد سترت وجهها بثوبها قائلة : " إن أبى يدعوك ليكافئك على ما صنعت من الإحسان ، وأسديت إلينا من المعروف بسقى غنمنا ، قال عمرو بن ميمون : " ولم تكن سلفعا من النساء ، يريد لم تكن امرأة جريئة على الرجال خواجه ولاجه ، وقد أسندت الدعوة إلى أبيها وعللتها بالجزاء حتى لا يتوهم من كلامها شئ من الريبة ، كما إن في كلامها دلالة على كمال العقل والحياء ، والعفة كما هو واضح من الآية الكريمة .

فقد شوهدت مخايل الأمانة على موسى حين سقى لأبنتى الرجل الصالح ورفق بهما واحترم أنوثتهما ، وكان معهما عفيفاً ، شريفاً ، دليل ذلك قوله تعالى :

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [سورة القصص: ٢٤]

وقد حدث هذا قيل أن ينبأ موسى ويرسل إلى فرعون - ولا غرو- فَرَسَلَ اللَّهُ يَخْتَارُونَ مِنْ أَشْرَفِ النَّاسِ طَبَاعاً ، وَأَنْدَكَاهُمْ مَعَادِنَ ، وَالنَّفْسَ الَّتِي تَظَلُّ مَعْتَصِمَةً بِالْفَضِيلَةِ عَلَى شِدَّةِ الْفَقْرِ ، وَوَحْشَةِ الْغَرْبَةِ ، هِيَ بِلَا رَيْبٍ تَكُونُ لِرَجُلٍ قَوِيٍّ أَمِينٍ ، وَالْمَحَافِظَةِ عَلَى حَقُوقِ اللَّهِ ، وَحَقُوقِ الْعِبَادِ ، تَتَطَلَّبُ حُلُقًا لَا يَتَغَيَّرُ بِاخْتِلَافِ الْأَيَّامِ بَيْنَ نَعْمَى وَبُؤْسَى ، وَذَلِكَ جَوْهَرُ الْأَمَانَةِ .

وطلب موسى من الله مطلبه المعروف حيث كان محتاجاً إذ بات ثمانى ليالٍ طاوياً ، أو أنى لما أنزلت إلى من خير فقير في الدنيا فيكون شكراً ، ولم يكن سقيه لهما طلباً للأجرة ، وإنما هو طلب للأجر والثواب ، لذلك قال : " انى لما أنزلت من فضلك وغناك فقير إلى أن تغنينى بك عن سواك .

وروى ان اسم إحدهما " ليا " والأخرى " صفورياء " وقيل : " صافوراء " ابنتا يثرون وهوشعيب - عليه السلام - . فقد كان موسى أميناً وصاحب مروءة حيث لم يعلن نظره بها ، ولم يتبعهما بنظرة حازرة ، ولا سهم مريب طاعن ، بل سقى لهما ثم تولى إلى الظل حيث كان يجلس من قبل ، وقد حمد الله - عز وجل - أن ساق إليه هذا الرزق الذي وجده فيما أسدى إلى هاتين الفتاتين الضعيفتين من عون وإحسان ، وأنه لفقير إلى مثل هذه الأعمال الطيبة ليكفر بها ما كان فيه من قتل المصري .

وهناك أمور جزئية لم يذكرها القرآن وذلك لدلالة الحال عليها ، فجاءته إحداهما تمشى في خِفةٍ وحياءٍ شأن المرأة الحصان ، العفيفة ، وحَسَبُهَا أنها ربيبة بيت النبوة ، فلقد تجسد الحياء حتى كان بساطاً ممدوداً على طريقها إلى موسى إنها لا تمشى على الأرض ولكنها تمشى على حياء ، تتعثر فيه قدمها ، وتقصر به خطاها ، ويضطرب له كيانها ، وذهبت إليه لأن أباهما شيخ كبير ، ولو كان في وسعه أن يذهب إلى موسى ما بعث بابنته إليه ، وهو الغريب الذي لا مأوى له في البلد ، وليس المراد بالأجر هنا هو الأجر المادي ، إنما هو جزاء الإحسان بالإحسان ، ولقاء المعروف بالمعروف ، وهنا تظهر الأتشى التي تطلب الرجل الذي تطمع في أن يكون رجلها الذي تحلم به ، وتنتظر الأيام تجيء به ليطرق بابها .

﴿ قَالَتْ إِحْدَهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجِرَّتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [سورة القصص: ٢٦]

والمعنى : امسك به عندنا ولا تدعه يفلت من يديك وذلك بأن تصله بك يعمل ، فهو خير من يعمل لك ، حيث عجزت عن العمل .

﴿... إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجِرَّتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [سورة القصص: ٢٦]

هكذا تكشف لأبيها عن معدن الرجل الذي يستأجره وأنه في الرجال من يتزين بأجمل صفتين وهما : القوة والأمانة ، فقد رأت قوته فيما كان منه من السقي لهما ، كما رأت أمانته في غض بصره عنها ، وقد جاءت وحدها تدعوه إلى أبيها ويستجيب شعيب – عليه السلام – لهذا الطلب في غير تردد ، ويستشعر بمشاعر الأب ما في نفس ابنته نحو هذا الغريب ، وهكذا يجيء شعيب إلى موسى صريحاً واضحاً ، كما يجيء إلى ابنته أبا حانياً ، عاطفاً ، لا يرى حرجاً في أن يتخير لابنته الرجل الذي تتمناه زوجاً لها ، ويردها حياءها عن أن تعرض نفسها عليه ، وما كان أبرع شعيباً وأحكمه وأعدله ، فيما بينه وبين موسى من جهة ، ثم فيما بينه وبين ابنته من جهة أخرى ، ولم يفرض على موسى واحدة بعينها فمن حق موسى أن يختار من يشاء منهما ، فلقد رأهما من قبل كما رأهما في بيت أبيهما ، وليس من الحكمة ولا من المصلحة ان تفرض عليه واحدة بعينها ، حتى ولو كان لموسى رغبة فيها ، وكان لها رغبة فيه ، فالفرض يصادر رأى موسى ويهدم إرادته ، فإذا لم يختار موسى شريكة حياته وهو سيعيش في بيت شعيب كان في ذلك تنغيص له واضطراب لحياته الزوجية ، هكذا الإنسان ، وهكذا تكون الحياة ، وأن شعيب لم يؤثر إحداهما على الأخرى حتى لا تكون في نفس الأخرى أسى ومرارة ، تجلى ذلك في قوله : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ [سورة القصص: ٢٧]

ولقد كان قول بنت شعيب قولاً حكيماً جامعاً ، لأنه اجتمعت فيه الكفاية والأمانة في القائم بأمر من الأمور وإذا حدث ذلك فقد تم المقصود .

ويبضى القرآن الكريم في الحث على التحلي بالأخلاق الفاضلة ومنها الأمانة والتي نحن بصدد تناولها من خلال الآيات القرآنية الكريمة فيقول الله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢] .

فعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال : يعنى بالأمانة الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم - عليه السلام - فلم يطقها فقال لادم : " انى قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت أخذ بما فيها ؟ قال : يارب وما فيها ؟ قال : ان أحسنت جزيت ، وان أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها فذلك قوله تعالى :

﴿... وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢]

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- أيضا : الأمانة هي الفرائض عرضها الله على السماوات والأرض والجبال إن أدوها أتأبهم ، وإن ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك وأشفقوا على من غير معصية ولكن تعظيما لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿... وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢]

وقيل أنها عرضت على ادم فقال : خذها بما فيها فان أطعت غفرت لك وان عصيت عذبتك ، قال : قبلت ، فما كان إلا مقدار ما بين العصر إلى الليل دون ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة .

ويقول الحسن البصري - رحمه الله - وآخرون - : " إن الأمانة هي الفرائض ، وقال آخرون : هي الطاعة ، وقال قتادة : الأمانة هي الدين ، والفرائض والحدود ، وقال بعضهم : هي الغسل من الجنابة ، وقيل : إن الأمانة ثلاثة : الصلاة ، والصوم والاعتسال من الجنابة ، وكل هذه الأقوال متفقة في مضمونها ، وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهى إن قام بها أتيب ، وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله ، وظلمه ، إلا من وفقه الله ، والله المعين على ذلك .

وعن الحسن البصرى - أيضا - قال : " عرض الله الأمانة على السبع الطباق الطرائق التي زينت بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : ان أحسنت جزيت ، وان أسأت عوقبت ، قالت : لا ، ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد التي شددت بالأوتاد وزللت بالمهاد ، فقيل لها : هل

تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ ف قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت، قالت: لا، ثم عرضها على الجبال الصم الشوامخ، والصعاب الصلاب، قال: قيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت، قالت: لا.

ويقول مقاتل بن حيان: إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنس والجن، والسموات والأرض والجبال فبدأ بالسموات فعرض عليهم الأمانة وهي الطاعة فقال لهم: أتحملن هذه الأمانة ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنة؟ فقلن يا رب إننا لا نستطيع هذا الأمر، وليس بنا قوة ولكننا لك مطيعين ثم عرض الأمانة على الأرضيين، فقال لهم: أتحملن هذه الأمانة وتقبلننا مني، وأعطينكم الفضل والكرامة في الدنيا؟ فقلن: لا صبر لنا على هذا يارب، ولا نطيع، ولكننا لك سامعين مطيعين، لا نعصيك في شيء أمرتنا به، ثم قرب "آدم" فقال له: أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها؟ فقال عند ذلك آدم: ما لي عندك؟

قال: يا آدم إن أحسنت، وأطعت، ورعيت الأمانة فلك عندي الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة، وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها، وأسأت فأني معذبك، ومعاقبك، وأنزلك النار،

قال: رضيت يارب وأتحمّلها، فقال الله - عز وجل - عند ذلك: قد حملتها، فذلك قوله تعالى: ﴿...وَحَمَلَهَا الْإِنْسُ...﴾. ويقول الله تعالى في شأن الأمانة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ [سورة المعارج: ٣٢].

والمعنى: أي يؤدون الأمانات، ويحفظون العهود، فإذا اتتمنوا لم يخونوا وإذا عاهدوا لم يغدروا.

ومن معاني الأمانة وضع كل شيء في المكان الجدير به، واللائق له فلا يسند منصب إلا لصاحبه الحقيقي به، الا ترى إلى يوسف الصديق؟

انه لم يرشح نفسه لإدارة شئون المال بنبوته، وتقواه فحسب، بل بحفظه وعمله، قال تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: ٥٥].

وان سيدنا أبا ذر الغفاري - رضي الله عنه - لما طلب الولاية لم يرّه النبي - ﷺ - أمينا بها، ولا جلدا لها، فلذلك حذره منها حيث قال أباذر - رضي الله عنه - يا رسول الله الاتستعملني؟ أي: اجعلني في منصب من المناصب المهمة، فقال له

النبي - ﷺ -: يا أبا ذر إنك ضعيف ، إنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها " (١) .

فالأمانة تقتضى أن نولى الأعمال والمناصب أصحاب الكفاءات ، دونما تعصب لقربة ، أو خضوع لرشوة ، أو هوى شخصي ، قال رسول الله - ﷺ -: " من استعمل رجل على عصابة وفيهم من هوأرضي لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين " (٢) .
والأمة التي لا أمانة فيها هي الأمة التي تُعبثُ فيها الشفاعات بالمصالح المقررة ، وتطيش بأقدار الرجال الكفاء لتهملمهم ، وتقدم من دونهم ، وهذا مظهر من مظاهر الفساد الخطير . جاء رجل يسأل رسول الله - ﷺ - متى تقوم الساعة ؟ فقال له : " إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، فقال : وكيف إضاعتها ؟ فقال : إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة " (٣) .

فليست أعظم خيانة ، ولا أكبر جرماً ، ولا أسوأ عاقبةً ، من رجل تولى أمور الناس فنام عنها حتى أضاعها .

ومن معانى الأمانة ان تنظر إلى حواسك التي أنعم الله بها عليك ، وإلى المواهب التي خصك بها فتدرك أنها ودائع الله الغالية عندك فمن الواجب عليك ان تسخرها في طاعة الله ، يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٧) وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ [سورة الأنفال: ٢٧: ٢٨] .

ومن معانى الأمانة ان تحافظ على حقوق المجالس التي تشارك فيها فلا ترخى للسانك العنان فتسرد أخبارها ، وتنشر أسرارها ، قال رسول الله - ﷺ -: " المجلس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس : مجلس سفك دم ، أو فرج حرام أو اقتطاع مال بغير حق " (٤) .
والودائع التي تدفع إلينا لنحفظها حينما تم نردها إلى أصحابها حين يطلبونها منّا من الأمانات التي نسال عنها أمام الله يوم القيامة ، وقد استخلف النبي - ﷺ - عند هجرته من مكة إلى المدينة ابن عمه على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ليرد للمشركين الودائع التي كانت محفوظة عند رسول الله - ﷺ - حين ترك وطنه فاراً بعقيدته .
قال ميمون بن مهران : " ثلاثة يؤدين إلى البر: الأمانة ، والعهد ، وصلة الرحم . "

- 1- رواه مسلم .
- 2- رواه الحاكم .
- 3- رواه البخاري .
- 4- رواه أبو داود .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [سورة النساء: ٥٨] .
والأمانة التي تدعو إلى رعاية الحقوق ، وتعصم عن الدنيا ، لا تكون بهذه المثابة إلا إذا استقرت في وجدان المرء ، وكانت راسخة في أعماقه ، وهيمنت على الداني والقاصي في مشاعره ، وذلك معنى حديث خديجة بن اليمان -رضى الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- "إن الأمانة نزلت في جزر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة" (١) .

فإذا مات الضمير انتزعت الأمانة ، فما يعنى عند المرء ترديده لآيات القرآن الكريم ، ولا حفظه للحديث ، ولا دراسته للسنة ، فهيهات أن تستقر الأمانة في قلوب تنكر الحق .
إن الأمانة من الفضائل الضخمة لا يستطيع حملها الرجال المهازيل وقد بين الله سبحانه أنها تثقل كاهل الوجود ، فلا ينبغي للإنسان أن يستهين بها أو يفرط في حقها .
فالأمانة في الإسلام هي الفريضة التي يتواصى المسلمون برعايتها ويستعينون بالله على حفظها حتى انه يقول عند السفر أو غيره لأخيه المسافر: استودع الله دينك وأمانتك ، وخواتيم عملك. (٢)

وعن أنس قال: ما خطبنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا قال " لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد عنده " (٣) .

1- تفسير البحر المحيط ج ٧ ، ص ١١٤ .

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ، ص ٣٨٢ ، ج ٢ ، ص ٥٢٢ وما بعدها .
- التفسير القرآني للقرآن ، تفسير الكريم الخطيب ج ٥ ، ص ٣٣٤ وما بعدها .
- تفسير القرطبي ج ١٣ ، ص ٢٢٦ ، وما بعدها وأيضاً ص ٢٥٣ وما بعدها .
- الفتوحات الالهية للجمل ج ٣ ، ص ٢٢ وما بعدها .
- تفسير المراغي ج ٧ ، ص ٥ ، وما بعدها ، ج ١ ، ص ٧٢ .
- تفسير أبي السعود ج ٤ ، ص ٢٢١ .
- صفوة التفاسير ج ٣ ، ص ٤٤٦ .
- رواه مسلم ،
- تفسير أبو السعود ج ٤ ، ص ٢٢١ .
- التسهيل في علوم التنزيل ج ٣ ، ص ١٤٥ .
- زاد المسير ج ٦ ، ص ٤٢٨ .

2- رواه الترمذي .

3- رواه أحمد .

ويقول النبي - ﷺ - " اللهم انى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة " (١) .

وكان رسول الله - ﷺ - في حياته الأولى قبل البعثة يلقب بين قومه بالأمين .

وكذلك شوهدت مخايل الأمانة على سيدنا موسى حين سقى لابنتا الرجل الصالح ورفقه بهما ، واحترام أنوثتهما ، وكان معهما عفيفاً ، شريفاً ، ومع ذلك لم يكن موسى نبياً في ذلك الوقت ، بل كان شاباً في فترة المراهقة المبكرة بلغة العصر الحديث ، وفي هذا قدوة لشبابنا المسلم حتى لا يقول محتجاً أنه نبي ومعصوم ، فلم يكن موسى نبياً وقتئذ ، بل كان شاباً جلدأ قويا ، فقد حدث هذا قبل أن ينبأ ، ويرسل إلى فرعون ، ولا غرور فان رسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم - يختارون من اشرف الناس طباعا ، وأذكاهم معادن ، واصفاهم سريرةً ولذلك كانت الأمانة في الإسلام ، والاحتفاظ بحقوق الله ، والمحافظة على حقوق العباد يتطلب خلقاً لا يتغير بتغير الأيام بين النعماء والبأساء ، وذلك هو جوهر الأمانة ، ومن الأمانة أيضا وضع كل شئ في موضعه حسب الكفاءة والإمكانات العلمية . فعن أبي ذر . رضي الله عنه . قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟

قال فضرب بيده على منكبي ، ثم قال : يا أبا ذر انك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها . (٢)

وانظر إلى سيدنا يوسف . عليه السلام . انه لم يرشح نفسه لإدارة الشئون المالية بنبوته وتقواه فحسب بل بحفظه وعمله أيضا .

﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ﴾ [سورة يوسف : ٥٥] .

وأبادر - رضي الله عنه - لما طلب الولاية لم ير الرسول - ﷺ - جلدأ لها ، وأميناً بها ، وجديراً بتوليها لذلك حذره منها ولم يوله حفاظاً عليه ، خشية أن يلحق من ورائها ما يضر بدينه .

هكذا الأمانة ، ومحافظة النبي - ﷺ - على أصحابه ، ومن الأمانة أن نصطفى الكفاءات لتولى المناصب وإدارة الأعمال ، قال رسول الله - ﷺ - " من استعمل رجل على وصاية وفيهم من هو أَرْضَى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنون " (٣) .

1- رواه .

2- رواه مسلم .

3- رواه الحاكم .

فانظر إلى هذا العصر الأتكد الذي تولى فيه أمورنا شرارنا ، خاصةً فيما نسميه الدولة " دولة المؤسسات " واختيار أعضاء المحليات ، ومجلس الشعب ومجلس الشورى ، إنهم أناس لا يتصفون بالأمانة ، ولا يتحلون بالأخلاق الفاضلة إلا من عصم الله وهم قلة قليلة تكاد تُعدُّ على أصابع اليد الواحدة .

والأمة التي لا أمانة فيها هي الأمة التي تعبت فيها الشفاعات بالمصالح وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء لتهملمهم ، وتقدم من دونهم ، وقد استشرى هذا الفساد حتى خلت الساحة من الأكفاء ، وغصت بالأكفاء . جاء رجل يسأل رسول الله - ﷺ - " متى تقوم الساعة ؟ فقال له : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، فقال وكيف إضاعها ؟ قال : إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة " (١) .

وقال رسول الله - ﷺ - " إذا جمع الله بين الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء يعرف به فيقال هذه غدرة فلان " (٢) .

وفي رواية أخرى " لكل غادر لواء عند أمته ، يرفع له بقدر غدريته ، ولا غادر أعظم من أمير عامة " (٣) يعني ليس أعظم خيانة ، ولا أسوأ عاقبة من رجل تولى أمور الناس فنام عنها حتى أضاعها ، ومن الأمانة ألا يستغل الرجل منصبه الذي عين فيه لجر منفعة خاصة لنفسه ، أولقرباته ، فإن سرقة المال العام جريمة لا تغتفر ، والمعروف أن كل موظف في الدولة أو شركة له مرتب معين فإذا ما تقاضى قوم ذلك من طريق غير مشروع فهو سُحَّت ، وكسب حرام .

قال رسول الله - ﷺ - " من استعملناه على عمل ففرقناه رزقاً ، فما أخذ بعد ذلك فهو غلول " (٤) .

وكان غلولاً لأنه يعد اختلاس من المال العام ، وهو مال الجماعة المسلمة يعنى هو ملك لجميع المسلمين ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَمَ مَن يَغْلُفُ وَمَنْ يَغْلُفُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة ال عمران: ١٦١] .
أما المسلم الذي يلتزم حدود الله فيما أسند إليه، ويؤدى واجبه على الوجه الأكمل فهو عند الله من المجاهدين لنصرة دينه، وإعلاء كلمته، قال رسول الله - ﷺ -

- 1 - رواه البخاري .
- 2 - رواه البخاري .
- 3 - رواه مسلم .
- 4 - رواه أبو داود .

"العمل إذا استعمل فاخذ الحق وأعطى الحق لم يزل كالمجاهد في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته" (١)

وقد شدد الإسلام في ضرورة التعفف عن استغلال النفوذ، كما شدد في رفض المكاسب غير المشروعة والتي يشوبها الحرام.

فعن "عدى بن عميرة" قال : سمعت رسول الله - ﷺ - قال " من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطة فما فوق كان غلولا يأتي به يوم القيامة ، فقام إليه رجل أسود من الأنصار-كأنى انظر إليه- فقال يا رسول الله اقبل عنى عملك قال : وما لك؟ قال: سمعتك تقول كذا وكذا ، قال : وأنا أقوله الآن من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره فما أوتى منه اخذ ، وما نهى عنه انتهى " (٢) .

وحدث أن استعمل النبي - ﷺ - رجل من "الأزد" يقال له "ابن اللثبية" على الصدقة ، فلما قدم بها قال : هذا لكم ، وهذا أهدي إلى ، يقول راوي الحديث فقام رسول الله - ﷺ - فحمد الله واثني عليه ثم قال : أما بعد فأنى استعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله فيأت فيقول : هذا لكم ، وهذا هدايا أهديت إلى ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتية هديته إن كان صادقاً ؟

والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة فلا عرفن أحد منكم لقي الله يحمل بغيراً له رغاء ، أو بقره لها خوار ، أو شاة تبعر ثم رفع يديه حتى روى بياض أبطيه يقول : اللهم هل بلغت " (٣) .

ومن الأمانة أيضاً أن ينظر المسلم إلى حواسه التي انعم الله بها عليه وللأموال والأولاد والمناصب ، والمواهب التي خصه الله بها ، ومنحه إياها ، فيدرك المسلم أنها ودائع الله عنده فيجب أن يسخرها في مرضاة الله ورسوله ، قال الله - عز وجل :- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٧) وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ [سورة الأنفال: ٢٧: ٢٨] .

ومن معاني الأمانة حفظ حق المجلس فإذا كنت في مجلس حاضرًا فالأخلاق القرآنية تأمرك بالأمانة تفشى أسرار هذا المجلس ، قال رسول الله - ﷺ - : " إذا حدث رجل رجلاً بحديث ثم التفت فهو أمانة ، يعنى اذا حدثه بحديث وأدار ظهره له فيصبح الحديث

1 - رواه الطبراني .

2 - رواه مسلم .

3 - رواه مسلم .

أمانة لا يجوز له إفشائه ، قال رسول الله - ﷺ - " المجلس بالأمانة الاثلاثة مجالس ، مجلس سفك دم حرام أو فرج حرام ، أو إنقطاع مال بغير حق " (١) .

وللعلاقات الزوجية أيضا في نظر الإسلام قداسة وإحترام ، فما يضمه البيت من شئون العشرة بين الرجل والمرأة من الواجب ان يطوى في أستار مُسْبَلَةٍ فلا يطلع عليه أحد مهما قرب .

والسفهاء من العامة والدهاء يثرثرون في هذه الامور، وتلك وقاحة يجرمها الله - سبحانه .

فعن أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله - ﷺ - والرجال والنساء قعود عنده .

فقال : لعن الله رجلا يقول ما فعل بأهله ، ولعن الله امرأة تخبر بما فعلت مع

زوجها ؟

فألزم القوم - سكتوا وجلين - فقلت : أى والله يا رسول الله ، إنهم ليفعلون وإنهن

ليفعلن ، قال " فلا تفعلوا فإنما مثل ذلك شيطان لقي شيطانه فغشيها والناس ينظرون " (٢) .

وقال رسول الله - ﷺ - : " ان من أعظم الامانة عند الله يوم القيامة الرجل

يفضى الى امرأته وتفضي إليه ، ثم ينشر سرها " (٣) .

والودائع التى يحفظها الناس لدينا هى أمانة أيضاً نُسأل عنها امام الله -

سبحانه - ويجب ردها الى صاحبها متى طلبها .

وقد استخلف رسول الله - ﷺ - سيدنا " على بن أبى طالب " -رضي الله عنه-

عند هجرته من مكة الى المدينة ليرد الأمانات والودائع للمشركين حيث أنهم كانوا قد

حفظوها لدى النبي - ﷺ - مع ان هؤلاء المشركين أصحاب الودائع التى استخلف النبي

عليّاً لردها لأصحابها كانوا بعض الذين استفزوه من الأرض، واجبروه على ترك وطنه

مسقط رأسه ، ومدرج صباه ، وذلك في سبيل عقيدته لكن الشريف لا يضيع مع الصغار .

يقول "ميمون بن مهران" ثلاثة يؤددين إلى البر والفاجر : الأمانة ، والعهد ، وصلة الرحم .

أما أن يعد بعض الناس الوديعة غنيمة ، فذلك لون من ألوان السرقة الفاجرة .

1- رواه ابوداود .

2- رواه الإمام احمد .

3- رواه مسلم .

فمن " عبد الله بن مسعود " -رضي الله عنه - قال : القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة ، قال : يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله ، فيقال : أدي أمانتك ، فيقول : اى رب كيف وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال : انطلقوا به الى الهاوية ، وتمثل له أمانته كهبيئتها يوم دفعت إليه فيراها فيعرفها ، فيهوى فى أثرها حتى يدركها فيحملها على منكبيه ، حتى اذا ظن أنه خارج زلت عن منكبيه فهو يهوى فى أثرها ابد الأبدين ، ثم قال : الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والوزن أمانة ، والكيل أمانة ، وأشياء عددها ، وأشد ذلك الودائع ، يقول راوي الحديث : فأتيت البراء بن عازب فقلت : ألا ترى الى ما قال بن مسعود قال كذا وكذا ، قال البراء : صدق اما سمعت الله يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [سورة النساء: ٥٨] .

إن الأمانة حُلُقُ اسلامى أرشدنا اليه القرآن الكريم اثناء حديثه عن الأخلاق ، وهو فضيلة من الفضائل العظيمة ، لا يستطيع حملها المهازيل من الرجال ، حيث انها ثقيلة ضخمة تثقل كاهل الوجود كله ، فلا ينبغي للإنسان الاستهانة بها ، أو أن يفرط فيها .

يقول الله - عزوجل :- ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢] .
والظلم والجهل أفتان عرضتا للفطرة الأولى ، وعنى الإنسان بجهداهما ، فلن يخلص له إيمان ، إلا اذا أنقاه من الظلم .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [سورة الأنفال: ٨٢] .
وأن يخلص له تقوى إلا إذا نقاها من الجهالة ، يقول سبحانه وتعالى :- ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... ﴾ [سورة فاطر: ٢٨] .

ولذلك بعد أن يقرأ الآية التى حملت الانسان الأمانة تجد أن الذين غلبهم الظلم والجهل ، خانوا وناقوا وأشركوا ، فحق عليهم العقاب ، ولم تكتب السلامة لأهل الإيمان والأمانة .

قال تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٣] .

هذه هي الأخلاق في القرآن الكريم، ذينكم الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي يجب على المسلم ان يتخلق بأخلاق القرآن الكريم الذي أنزله الله هدى ورحمة للعالمين، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، اللهم وفقنا للعمل بما أودعته من أخلاق في كتابك العزيز^(١).

1 - البحر المحيط ج ٧ ص ١١٣ .

- صفوة التفاسير للصابوني ج ٢ ص ٤٣٠ وما بعدها .
- مفاتيح الغيب اوالتفسير الكبير للرازي ج ١٢ ص ٢٦٥ وما بعدها .
- مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٠ .
- تفسير الطبري ج ٢٠ ص ٣٩ .
- في ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب ج ٥ ص ٢٦٨٥ - ٢٦٨٩ .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ٣٨٣ - ٣٨٦ .
- روح المعاني للالوسي .
- النهر الماد من البحر المحيط ، حاشية على البحر .
- الدر اللقيط من البحر المحيط ، حاشية على البحر .

" العزة "

ويمضى القرآن الكريم فى توجيهاته الراشدة وحثه على الأخلاق الكريمة ومن بين هذه الأخلاق القرآنية " العزة " فإن اعتزاز المسلم بنفسه ، ودينه ، وريبه وعقيدته ، وإيمانه ، هو كبرياء المسلم ، وعزة المسلم ، وهو مخالف لكبرياء السلطة والطغيان ، والظلم ، فالعزة التى يوجه إليها القرآن الكريم هى التواضع للفقراء والأنفة والشتم لدى الطغاة ، والمتغترسين الجبارين ، والترفع عن النفاق أو التذلل ، أو إهانة النفس لسلطان أو جائر ، والانخفاض الى خدمة المسلمين والتبسط معهم ، مع احترام الحق الذى يجمعه بهم ، لذا يقول الله تعالى :- ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ ﴾ [سورة فاطر: ١٠٠]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَاُولَئِكَ مَا لَهُمْ مِنْ مَّصِيرٍ ﴾ [١٧] إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [١٨] فَاُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [سورة النساء: ٩٨: ٩٩].

ويقول الإمام الشهيد سيد قطب: لقد كان هذا النص يواجه حالة واقعة فى الجزيرة العربية فى مكة وغيرها بعد هجرة النبى - ﷺ - وقيام الدولة المسلمة ، فقد كان هناك مسلمون لم يهاجروا ، حبستهم أموالهم ومصالحهم ، حيث لم يكن المشركون يدعون مهاجراً يحمل معه شيئاً من ماله ، أو حبسهم إشفاقهم وخوفهم من مشاق الهجرة حيث لم يكن المشركون يدعون مسلماً يهاجر حتى يمنعوه ، ويرصدوا له فى الطريق ، وجماعة أخرى حبسهم عجزهم الحقيقى من الشيوخ والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة للهرب ولا يجدون سبيلاً للهرب والهجرة ، ولقد اشتد أذى المشركين لهؤلاء الباقين من أفراد المسلمين ، وذلك بعد عجزهم عن اللحاق برسول الله - ﷺ - وصاحبه ، ومنعهما من الهجرة ، وبعد قيام الدولة الاسلامية ، وبعد تعرض الدولة المسلمة لتجارة قريش فى " بدر " وانتصار المسلمين ذلك الانتصار الحاسم ، فأخذ المشركين يسقون هذه البقية المتخلفة صنوفاً من العذاب والنكال ويفتنونهم عن دينهم فى غيظ شديد ، وقد فتن بعضهم عن دينه فعلاً واضطر بعضهم الى إظهار الكفر تقية ، ومشاركة المشركين عبادتهم وكانت هذه التقية جائزة لهم يوم إن لم تكن لهم دولة يهاجرون اليها متى استطاعوا ، فأما بعد قيام الدولة ، ووجود دار الإسلام فإن الخضوع للفتنة ، أو الالتجاء الى التقية وفى الوسع الهجرة والجهر

بالاسلام ، والحياة فى دار الاسلام ، أمر غير مقبول وهؤلاء هم الظالمون لأنفسهم ، لأنهم قاعدون للمحافظة على أموالهم ومصالحهم وإشفاقاً من مشاق الطريق ، ومتاعب الهجرة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ... ﴾ [سورة النساء: ٩٧]

حيث أنهم حرموها الحياة فى دار الاسلام وهى حياة طاهرة نظيفة ، وفيها الحرية الكاملة والطمأنينة النفسية والراحة والاستقرار ، بعيداً عن الذل والهوان ، والإرباك العقلي والنفسى وأيضا البدني ، وهؤلاء قد توعدهم الله - سبحانه وتعالى - بالعذاب الشديد فقال تعالى : ﴿ ... فَأُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١٧) [سورة النساء: ٩٧].

وهذه الآية تعنى هؤلاء الذين فتنوا عن دينهم ، والقرآن الكريم يصور ذلك الموقف تصويراً حياً نابضاً بالحركة والحوار مع هؤلاء الذين فتنوا فى دينهم فقال تعالى :-

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا ... ﴾ [سورة النساء: ٩٧]

إن القرآن الكريم يعالج نفوس بشرية ، ويهدف الى استجاشة عنصر العزة ومطاردة عوامل الضعف والذل والهوان وذلك بقبول الأمر الواقع وذلك مثل الذى نراه اليوم فى واقعنا المعاصر من قبول العرب والمسلمين للذل والهوان ، وضياع العزة والكرامة العربية الإسلامية ، ونسيان تاريخهم الحافل بالانتصارات وسجلهم المملوء بالأمجاد العظيمة والفتوحات التى سجلها تاريخهم بأحرف من نور ، وقبلوا الذل والهوان خاصة ونحن نكتب هذه الكلمات يقرع سمعي هذا الخبر الذى يطفح بالذل واستخفاف واستهانة العدوا الاسرائيلى بالعرب والمسلمين فى كل أرجاء الأرض وهو محاصرة العدوا الصهيونى للمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين ، مسرى النبى - ﷺ - والذى أمَّ النبى - عليه السلام - جميع الأنبياء وصلى بهم ، ورضي الأنبياء به إماماً وقائداً ونبياً ، وان دل هذا فإنما يدل على أن الأنبياء جميعاً رضوا به نبياً واماماً كما أنهم آمنوا بما أنزل عليه فهو بذلك مسلمون جميعاً ، ومع ذلك لا ترى موقفاً صارماً حيال هذه الاستفزازات الصهيونية الماكرة من العرب والمسلمين فأين هم !!؟

إن الموت الزءام خير لهم من هذه الحياة ، حياة الذل ، والاستكانة والهوان ، ان بطن الأرض خير لهم من ظهرها ، وقد ذكرني هذا الموقف بضياع الأندلس المسلمة ، وسقوطها مملكة تلوا الأخرى ، والمسلمون يستنجدون بالمسلمين فى كل أرجاء المعمورة فلم يقف لنجدهم احد ، وفي ذلك يقول الشاعر العربى المسلم مُصَوِّراً ذلك الموقف المخزي ، والذى يشبه موقف العرب والمسلمين فى هذا العصر ، وتلك الآونة المحزنة ، والمؤسفة وكأن الشاعر

قد كشف له الحجاب حيث ان الأبيات تحكى واقعنا المعاصر، وما يحدث الآن من استيلاء الصهيونية العالمية على الحرم الابراهيمي ، وتطويق المسجد الأقصى تريده هدمه ، وإزالة معالمه ، فيقول الشاعر عبد الله السرندي :

وما لها من طول الدهر نسيان	تلك المصيبة أنست ما تقدمها
كأنها في مجال السبق عقبان	يا راكبين عناق الخيل ضامرة
لهم بأوطانهم عز وسلطان	وراعتين وراء البحر في دعة
قد سرى بحديث القوم ركبان	هل عندكم فيأمن أهل أندلس
وهم قتلى واسري فما يهتز إنسان	كم يستغيث بنا مستضعفون

وكان آخر إقليم سقط من بلاد الاندلس " الحمراء " وغادرها قائدها ويدعى " عبد الله " وامتطى صهوة جواده ، ويمين ناحية المغرب ثم بكى بكاءً مُراً ، وانتحب انتحاباً شديداً ، وتُسَمَّى إلى الآن " بزة المغربي " فقالت له أمه واسمها عائشة :

انك مثل النساء من مضاعا	لم نحافظ عليه مثل الرجال
-------------------------	--------------------------

فما أشبه الليلة بالبارحة ، فما هي ذا الاندلس قد ضاعت ، واكتفى المسلمون باستيراد الكابتن " مانويل جوزيه " ليدرب النادي " الأهلي " وهو نادي القرن فهو برتغالي والاندلس هي اسبانيا ، والبرتغال حالياً ، ثم ضاعت فلسطين والعراق ، وأذل المسلمون إذلالاً في البوسنة والهرسك ، وقامت مجازع عننية أمام ما يسمى بحقوق الانسان إن المراد بحقوق الإنسان هو الإنسان الكافر وليس سواه كما حوصرت كثرة كاثرة من بلاد الاسلام، فهل آن الأوان لأن نستيقظ من رُقادنا؟! ونفيق من غفلتنا؟! ونؤب الى رشدنا؟! ليسترد المسلمون مجدهم ، وعزتهم وسيادتهم؟! أجل والله لقد آن .

هل سمعت المسلمين في القنوات الفضائية وهم يصرخون نساءً ورجالاً وأطفالاً ، شيباً ، وشباباً ، قائلين وإسلاماه حين سمعت بأذني وشاهدت ببصري هؤلاء يصرخون وإسلاماه قلت لهم وهم لا يسمعون قولي : تلك أيام قد خلت . أين المنتصر بالله؟؟ ، أين صلاح الدين؟؟ ، الذي أرسل له شاعر وقد كتب له على لسان المسجد الأقصى يقول له :

يأيهما الملك الذي	لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامه	تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت	وأنا على شرفي منجس

فَجَيِّشَ صلاح الدين الجيوش ، وقصد المسجد الأقصى ، وحرره بعد احتلال دام "ثمانية وثمانين عاماً" وها هو ذا "المعتصم بالله العباس" وموقفه من الرومي الذي يساوم مسلمة في السوق على سلعة لها ، فيلطمها الرومي على وجهها فتخرساقطة على الأرض ، فتصيح قائلة "واعتصماه" فيلحق المعتصم لنجدتها ويحيش الجيوش ، ويفتح "عمورية" ويخرب "حصن زبرطة" ويأسر القائد "توفلس" فيهز هذا النصر اريحة الشاعر "حبيب بن أوس الطائي" فيقول مشيداً بالفتح ، بذلك الانتصار العظيم ، فيقول :

السيف اصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشيك والريب
يا يوم وقعت عمورية انصرفت منك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الاسلام فى صيد والمشركين ودار الشرك فى صيب

وفي الحرب العالمية نرى القائد "منتوجمرى" يضع حذاءه فوق قبر "صلاح الدين" ويقول له : ها نحن قد عدنا فقم يا صلاح ، ولوان يوجد فيه صلاح الدين حياً ما استطاع ذلك الحاقد الماكران يتفوه بهذه المقولة ، أو ان يصل الى مكان يوجد فيه صلاح الدين ولوكان في شرق الارض أوغربها ، إنها اليهودية الماكرة والصليبية الحاقدة والسؤال الآن ، هل يجدي نفعاً دعاء الصالحين ؟ وهل ينزل الله الطير الأباييل ؟ لا نقول فى ثقة تامة " لا " لن يتقبل الله دعاء مليارو مائتي مليون مسلم في العالم ، وأكثر من مائتي مليون عربى ولن ينزل الطير الأباييل ما دام هذا العدد موجوداً فوق سطح الأرض .

إنما يستجيب الله سبحانه حين يهب هؤلاء بأسلحتهم وكل طاقتاهم سياسيا وعسكرياً واقتصادياً وقاتلياً وحينذاك يكلوهم الله برعايته ، ويصونهم بحفظه ، وينصرهم بقدرته ، ويحميهم بقوته ومساعدتهم ، يقول الله سبحانه ﴿...وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ...﴾ [سورة المجادلة: ٢٢] "وأيدهم بروح منه" فالروح هنا معناها النصر من الله - عزوجل ..

ومشهد "الاحتضار" بذاته مشهد ترتجف له النفس البشرية وتتحفز لتصور ما فيه وإظهار الملائكة في المشهد يزيد النفس ارتجافاً وحساسية والقاعدون الذين ظلموا انفسهم وقد حضرت الملائكة لتتوفاهم وهذا حالهم "ظالمى أنفسهم" وهذا وحده كفيل بتحريك النفس وارتجافها ، إذ يكفي أن يتصور المرء نفسه والملائكة تتوفاه وهو ظالم لنفسه ، وليس أمامه من فرصة أخرى لإنصاف نفسه ، فهذه هى اللحظة الأخيرة ، ولكن الملائكة لا يتوفونهم وهم ظالمون لانفسهم فى هدوء وصمت ، بل يقبلون ماضيهم ، ويستنكرون أمرهم ،

ثم يسألونهم فيما أضاعوا أيامهم ولياليهم؟ وماذا كان همهم في الدنيا؟ " قالوا فيما كنتم؟" فيجيب هؤلاء المحتضرون على هذا الاستنكار جواباً كله مذلة، ويحسبونه معذرة على ما فيه من مذلة، " قالوا كنا مستضعفين في الأرض " لقد كنا أذلاء في الأرض لا حول لنا ولا قوة، ولا عزة ولا طول، بيد أن هذا الاعتذار غير مقبول البتة حين يجيء الرد عليهم في قوله سبحانه: ﴿... أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا...﴾ [سورة النساء: 97]

ليس لديهم عذر حقيقي يقبل، أو عجز يسمح لهم بقبول معذرتهم، فليس لديهم العذر الذي يحملهم على قبول المهانة والذل، والفتنة عن الإيمان حيث ان أرض الله واسعة، وفيها متسع لأمثالهم للعيش في طمأنينة وعزة وكرامة، وإنما الذي جعلهم يتحملون الذل والمهانة حرصهم على أموالهم، ومصالحهم، وأنفسهم ذلك الذي جعلهم يسكنون ويقيمون في دار الكفر في ذلة ومهانة، مع ان أرض الله واسعة، والهجرة إليها ميسرة، وينتهي المشهد المؤثر بذكر النهاية المخيفة التي تتجلى في قوله تعالى: ﴿... فَأُولَئِكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء: 97] ثم يستثنى القرآن من لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر والتعرض للفتنة، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ، والضعاف، والنساء، الأطفال، فهؤلاء لهم رجاء في عفو الله ومعرفته ورحمته حيث إن هؤلاء لهم عذر مقبول عند الله وعند الناس لأنهم عاجزون عن الفرار والهجرة بدينهم إلى دار الإسلام، وقال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَيْسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) ﴿... وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٠) [سورة النساء: 98-100] ويمضى هذا الحكم ويسرى إلى آخر الزمان، فهو ليس خاصاً بزمان معين، فهو حكم عام ينظم كل مسلم ومسلمة تناله الفتنة في دينه في أيه أرض، وتمسكه أمواله ومصالحه الخاصة، وأولاده وقرباته، أو إشفاقه من آلام الهجرة، ومخاوف التعب، ومحاذير الغربة متى كان هنالك دار إسلامية يستطيع العيش فيها، ومباشرة حقوقه الإسلامية وإقامة شعائر دينه من صلاة، وصوم، ويعيش في ظلال شريعة الإسلام، متمتعاً بحياة إسلامية رفيعة محافظاً على دينه، وإنسانيته، وكرامته بمنأى عن الذل والهوان ويقول " ابن كثير " هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراشي المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكن من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكُفْرَ ظَالِمِينَ﴾ [سورة النساء: 97] يعني بتركهم الهجرة.

فعن " سمرة بن جندب -" رضي الله عنه- قال : قال رسول الله - ﷺ - " من جامع المشرك مسكن معه فإنه مثله ."

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- ان رسول الله - ﷺ - رفع يده بعد ما سلم وهو مستقبل القبلة فقال " اللهم خلص الوليد بن الوليد وعياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام ، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً من أيدي الكفار ."

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال " إلا المستضعفين " قال :كنت أنا وأُمي ممن عذر الله- عز وجل - ونرى القرآن الكريم يحرض على الهجرة فيقول: " ومن يهاجر في سبيل الله فيجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة " ففي الآية تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين .

ويقول سبحانه: ﴿... وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ...﴾ [سورة النساء: ١٠٠] يعنى : ومن يخرج من بيته بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، كما ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب . رضي الله عنه- قال : قال رسول الله - ﷺ - : " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر إليه "

وهو عام في الهجرة ، وفي جميع الأعمال ، ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفساً ، ثم أكمل بذلك العابد المائة ثم سال عالم هل له من توبة ، فقال له : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده الى بلد أخرى يعبد الله فيه ، فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الأخرى أدركه الموت في أثناء الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقال هؤلاء إنه جاء تائباً ، وقال هؤلاء ! لم يصل بعد ، فأمروا ان يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه ، وهذه ان تبتعد ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة وفي رواية أخرى : " انه لما جاء الموت بآء بصره إلى الأرض التى هاجر إليها " .

ويروى لنا " الزبير بن العوام -" رضي الله عنه- قال : " هاجر خالد بن حزام - رضي الله عنه - إلى أرض الحبشة فنهشته حية فمات فنزلت فيه " ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً ."

ويقول تعالى: ﴿ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً... ﴾ [سورة النساء: ١٠٠] وهذا ترغيب في الهجرة وهو أمر عام كما أومأنا إلى ذلك آنفاً ، فأرض الله واسعة ورزقه سابغ على العباد ، وقال تعالى: ﴿ يَعْبادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا بِإِنِّي آرِضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة العنكبوت: ٥٦] ويقول صاحب " التفسير الكبير " :- " ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم " فى هذا التوفى قولان : الأول : معناه تقبض أرواحهم عند الموت ، وعلى هذا القول كيف الجمع بينه وبين قوله تعالى فى الآيات الكريمة : ﴿ اللَّهُ تَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا... ﴾ [سورة الزمر: ٤٢] و﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [سورة الملك: ٢] . وقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ ءَامُونَ ﴾ فَأَجْنَكُمُ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِنَّهُ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨] وقوله تعالى :- ﴿ قُلْ يَتُوفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة السجدة: ١١] .

قلنا خالق الموت هو الله تعالى ، والرئيس المفوض إليه هذا العمل هو "ملك الموت" وسائر الملائكة أعوانه .

والقول الثاني : هو أن المعنى : توفاهم الملائكة يعنى يحشرونهم إلى النار وهو قول الحسن .

" ظالمى أنفسهم " فقد يراد بالظلم " الكفر " قال تعالى: ﴿...إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة لقمان: ١٣] وقد يراد به المعصية .

وروى أن النبى - ﷺ - بعث بهذه الآية إلى مسلمي مكة فقال "جندب بن حمزة" لبنيه " احملوني فأنى لست من المستضعفين ، ولا إنى لا أهدى إلى الطريق ، والله لا أبيت الليلة بمكة ، فحملوه على سرير متوجهين إلى المدينة وكان شيخاً كبيراً ، فمات في الطريق . وهذا الأمر بالنسبة للقادرين على الهجرة أما غير القادر فلا شئ عليه حيث أنه يعد عاجزاً ، وغير قادر على الهجرة والعاجز عن الشئ غير مكلف به ، فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ، إن نفر يلفظ " عسى " هنا بقرينة يدل على أن ترك الهجرة فى هذه الأحوال أمر مضيق لا توسعة فيه .

إن العزة والكرامة من أبرز الخلال التى نادى بها الإسلام وعرَّسها فى المجتمع الاسلامى ، كما تعهد بنمائها ، وذلك بما شرَّعه من عقائد ، وما سنَّ من تعاليم ، واليهما يومئى سيدنا " عمر بن الخطاب " - رضى الله عنه - بقوله : أحب من الرجل إذا سم خطة حق أن يقول بما لك فيه " لا " ونرى المؤذن يصيح بالأذان خمس مرات فى اليوم والليلة ينادى قائلاً " الله اكبر ، " فى بداية الأذان ونهايته وما ذلك إلا ليتأكد ، ويوقن المسلم أن كل

متكبر بعد الله فهو صغير وان كل متعاضم بعد الله فهو حقير، فهذا النداء يرد الناس إلى رشدهم، وصوابهم كلما اطاشتهم الدنيا، وضللتهم متاهاتها الطامسة، وتوكيداً لهذه المعاني اختار الله - عزوجل - أسمى "العظيم" و"الأعلى" من أسمائه الحسنى ليكررها المسلم اثناء ركوعه وسجوده فيفرد المسلم رب العالمين بالعظمة والعلو، والعزة حق يقابله واجب، فاذا كلفت بعمل فاديته على أكمل وجه، وبضمير يقظ، ويخلق المسلم فلا سبيل لأحد عليك، ولا يستطيع رئيسك في العمل أن يتوجه إليك بكلمة نابية أو لفظ محرج فبذلك تستطيع أن تحتفظ بعزة نفسك أمام رؤسائك وقيادتك في العمل وخارجته وذلك حين تسد الثغرات التي ينفذ منها إليك، والمثل العربي يقول: "إياك وما يتعذر منه" يقول الله تعالى: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِهِمْ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿سورة يونس: ٢٧﴾

واجتراح السيئات، وارتكاب المناكر، واقتراف الآثام سبيل الإهانة والمذلة وقد بين الله - عزوجل - أن الهزيمة في موقعة "أحد" كان من أسبابها ما ارتكبه بعض الصحابة - رضي الله عنهم - من مخالفات فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿سورة ال عمران: ١٥٥﴾. فالإسلام عندما أوصى المسلم بالعزة أرشده إلى أسبابها، ويسرله وسائلها، وافهمه ان العزة في طاعة الله، والمؤمن الذي يعلم ذلك ويعمل به من الواجب أن يأخذ نصيبه كاملاً في الحياة الرفيعة العظيمة، فاذا ما اعتدى عليه أحد، أو طمع فيه ظالم كان دفاعه عن نفسه جهاداً في سبيل الله، ومن ثم فان موت المسلم دون حقه شهادة في سبيل الله، جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال: "يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي يعني يريد اغتصابه. قال: لا تعطه مالك، قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: قاتله، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد، قال: أرأيت ان قتلته؟ قال: هو في النار" (١).

أجل فمن عزة المؤمن ألا يكون مستباحاً لكل طامع، وغرضاً لكل هاجم وكلاً مباحاً للظالمين، بل على المسلم ان يستमित دون نفسه، وماله وعرضه، وان أغرقت في سبيل ذلك

كثرة كثافة من الدماء ، وشرع الله الثأر من المظالم إغزازاً لجانب المهضوم ، وإيهانا لجانب المعتدى .

يقول تعالى : ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمُنْعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [سورة الشورى: ٣٦: ٣٨] ، ويعني هذه التعاليم ، وتلك الإرشادات الربانية العظيمة فى القرآن المحكم آياته ، التى توفر لأصحابها العزة والكرامة فرادى وجماعات ، قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَحِزْوًا سَيِّئَةً سَبَيْتَهُمْ مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الشورى: ٣٩: ٤٠] .

فمن الأخلاق التى وجهنا إليها القرآن الكريم ان المسلم يغفرله اذا استغضبه من هو دونه ، وأقل منه ، كما من خلقه ان يؤدب المجترئين عليه المتطاولين على شخصيته ، حتى يكسر شوكتهم ، وينأى عن مخاطرهم ، وفى هذه الحال يجب أن يبرز قوته حتى يرهب المجرمين ، وله وقت ذاك ان يعفو وذلك عفواً لمقتدر ، فالخلق الذى تضمنته الآيات الأخيرة يخالف الخلق الذى تضمنته الآيات الأولى ، فالأولى تعنى التجاوز عنها فوات العائرين ، قال تعالى : ﴿ ... وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة الشورى: ٣٧] ، أما الآيات الأخرى فتقدم الجاني إلى القضاء ثم تصدر عليه العقاب حتى اذا انكسرت سطوته ، واختفت جراته وتضاءلت قوته ، وتمكن سيف القصاص من عنقه جاء الفضل ، بعد استقالة العدل فيكون ذلك زيادة فى عزة المسلم ، ومن العزة ألا يستكين المسلم ، ويذل نفسه فى سبيل مأرب دنيوي ، او تحقيق مطلب على يد من يستطيع ذلك ، قال - ﷺ - " اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير " والبشر جميعاً لا يستطيعون منع شئ اعطاه الله ، أو كتبه لك وإنهم لا يستطيعون إعطاء شئ منعه الله ، اولم يكتبه لك ، فعلى المسلم أن يرد الأمور ومصايرها إلى الله . عز وجل . فكل قرار لا يتم إلا اذا أمضاه الله - عز وجل - قال تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة فاطر : ٢] .

هذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم التى تُوجهنا إلى العزة ، والكرامة والشهامة ، وعدم الركون إلى متعطرس جبار ، أو فاسق ظالم ، ولا يذل المسلم نفسه إلا لخالفه - عز وجل - ونهى الله - عز وجل - أن يتخذ المؤمنون الكافرين أعواناً وأنصاراً لما يتوهمونه فيهم من القوة ، ويتركون ولاية المؤمنين ، ويطلبون بموالة الكافرين القوة والغلبة ، وفى الحقيقة إن

الكفار لا عزة لهم ، فكيف تبتغى منهم فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَعُوكُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [سورة النساء : ١٣٩] .

فإن كان هؤلاء يطلبون لدى الكافرين العزة والمنعة والغلبة ، فإن العزة لله يؤتيها من يشاء ، فعليهم أن يطلبوها من الله - سبحانه وتعالى - بصادق إيمانهم ، وإتباعهم هدايته التي أرشد إليها أنبياءه ورسله ، وبينوا لهم أسبابها وقد أتاها المؤمنون حينما اهتدوا بكتابه ، وساروا على سنته ، ونهجوا نهجه ، فلما عرضوا عن هذه الهداية التي اعتز بها أسلافهم ذلوا ، وضعفوا ، وخضعوا لعدوهم وصار منهم منافقون يوالون الكافرين يبتغون عندهم العزة والشرف وما هم لها بمدركين ، وحقا انه من اعتز بغير الله ذل ، وما نشاهده في عصرنا هذا خير شاهد ودليل على صدق هذا الكلام ، وهو واقع لا يستطيع أحد ان ينكره ، اوحتى يجادل أو يمارى فيه ، وصدق الله حين قال " أأنتم اعلم أم الله " !!!؟؟

وقد حذر القرآن الكريم قائلاً : يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ، ويبدله بدين آخر ويرجع عن الايمان إلى الكفر ، فسوف ياتى الله مكانهم بأناس مؤمنين يحبهم الله ويحبون الله رحماء متواضعين للمؤمنين ، أشداء متعززين على الكافرين .

يقول " ابن كثير " : " وهذه صفات المؤمنين الكامل ان يكون أحدهم متواضعاً لأخيه متعزلاً على عدوه مثل قوله تعالى : ﴿ ... أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ ... ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] .
ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون لئيم الجانب ، متواضعاً لإخوانه المؤمنين ، ومتصفاً بالقوة حيال المؤمنين والكافرين ، يجاهدون لإعلاء كلمة الله ، ولا يبالون بمن لامهم ، فهم طلاب في دين الله ، لا يخافون في ذات الله أحداً ، ومن اتصف بهذه الأوصاف الحميدة فإنما هومن فضل الله عليه وتوفيقه له ، والله - سبحانه وتعالى - واسع الأفضال والإحسان ، عليه بمن يستحق ذلك .

فقال - سبحانه وتعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۗ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَضَ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكُمْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] .

ومن التوجيهات القرآنية الكريمة ، والإرشادات الإلهية العظيمة التي توجه المسلم للاستمسك بالعزة حيث ان العزة لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين ، فقد قال الكافرون لئن رجعنا من هذه الغزوة وهى " غزوة بني المصطلق " وعدنا إلى المدينة المنورة وهى بلدنا لنخرجن منها محمداً وأصحابه ، وصاحب هذه المقولة " عبد الله بن أبى بن سلول " زعيم المنافقين - وسلول - اسم لأمه ، وعنى بالأعز نفسه وأتباعه ، وعنى بالأذل رسول

الله - ﷺ - وأصحابه ، يقول المفسرون وأهل العلم ، لما قال " ابن سلول " ما قال ورجع إلى المدينة ووقف له ولده " عبد الله " على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يميرون به ، فلما جاء أبوه قال له ابنه " عبد الله " وراءك والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول ان رسول الله هو الأعز ، وأنا الأذل ، فقالها ، ثم جاء إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله بلغني إنك تريد ان تقتل أباي ، فان كنت فاعلاً فمربي فأنا احمل إليك رأسه ، فقال له رسول الله - ﷺ - بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا ، والله - عز وجل - القوة والغلبة ، ولن أعزه وأيده من رسوله والمؤمنين ، وليست لغيرهم ، والصيغة تفيد الحصر .

يقول القرطبي " توهموا إن العزة بكثرة الأموال والأتباع فيبين الله - عز وجل - ان العزة والمنعة لله ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لفرط جهلهم وغرورهم ، وعمى قلوبهم لا يعلمون ، وغاب عنهم لطيش عقولهم ، وفساد نياتهم ، ان العزة والغلبة لأوليائه دون أعدائه . فقال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة المنافقون: ٨].

هذه الأخلاق في القرآن الكريم الذي يحافظ علي المؤمن ، ويصون كرامته ويحافظ عليه من أن يتعرض للذل ، والمهانة ، والضعف ، فلو أن المسلمين استمسكوا بهذه القيم ، وتلك الأخلاق القرآنية لعز المسلمون وسادوا ، وعاشوا حياةً ملؤها العزة والكرامة .

" الرحمة "

إن الرحمة كمال في الطبيعة يجعل المرء يرق لآلام الخلق ، ويسعى لزالتها ، فإن تبدل الاحساس يهوى بالإنسان إلى منزلة الحيوان ويسلبه عطفة الحب والرأفة ، وهى صفة من صفات الله - عز وجل - قال تعالى : ﴿... رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [سورة غافر: ٧].
وعن " عمر بن الخطاب " - رضى الله عنه - قدم على رسول الله - ﷺ - بسبى - يعنى اسرى - فاذا امرأة من السبى تسعى قد تحلب ثديها إذا وجدت صبياً فى السبى ، أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته . فقال رسول الله - ﷺ - : " اترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ .

قلنا " لا والله . وهى تقدر على الا تطرحه ! ، قال : فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها . (١)

وكثرة كثائرة من اسماء الله الحسنى ينبع من معانيها الرحمة والكرم والعفو والفضل ، وقد جاء فى الحديث القدسى " ان رحمتى تغلب غضبى " . (٢) والله - عز وجل - أفضل الرحماء ، ورسوله - ﷺ - كذلك قال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [سورة المؤمنون: ١١٨].
وقال تعالى فى نبيه - ﷺ - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧].
وقال - ﷺ - : " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى " .

فأصحاب الرأفة ، والرحمة قريبيون من الله - سبحانه وتعالى - أما الجبارون ، وقساة القلوب ، وعُلاَّظ الأكباد ، والكاذبين المستكبرين فهم فى الدرك الأسفل من النار .
وفى الحديث : " إن أبعد الناس من الله تعالى القاسى القلب " (٣) .

وكان رسول الله - ﷺ - يعد جمود العين ، واستغلاق القلب من الشقاء ، وقد أراد الله أن يمن على الإنسانية جمعاء بمن ينصر الضعيف ، ويعين على نوائب الدهر ، ويحمل الكل ، ويأسو الجراح ، ويتفرق بالأمه فأرسل سيدنا محمد - ﷺ - ولذلك قال الله

1- رواه البخارى .
2- رواة مسلم .
3- رواه الترمذى .

تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَةً مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة ال عمران: ١٥٩].

وقد لازمته - ﷺ - هذه الخلال العظيمة في أدلك الظروف ، عندما حاول المشركون اغتياله في غزوة " أحد " ونظر إلى اصحابه - رضى الله عنهم - وهم مضرجون في دماءهم الذكية ، ويقال له : يا رسول الله ادع على المشركين ، فما كان منه - عليه الصلاة والسلام - إلا أن قال : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون .

إن القسوة دليل على النقص في الإنسان ، وفي تاريخ الأمم دليل الفساد الخطير ولذلك حذر الإسلام منها ، فقال تعالى : ﴿لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكثيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [سورة الحديد: ١٦].

ونرى الإسلام يأمر المسلمين بالتراحم ، وجعله من دلائل الإيمان الكامل قال رسول الله - ﷺ - " لن تؤمنوا حتى تراحموا ، قالوا : يا رسول الله : كلنا رحيم . قال : " انه ليس برحمة أحدكم صاحبه ، لكنها رحمة العامة " (١) .

وقال رسول الله - ﷺ - : " من لا يرحم الناس لا يرحمه الله " ، وزاد في روايه أخرى " ومن لا يغفر لا يغفر الله له ، وقال - عليه الصلاة والسلام - " من لا يرحم من في الأرض ، لا يرحمه من فى السماء " (٢) .

وقال تعالى : ﴿... أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَبُّهُمْ رُكْعًا سَجَدًا يَتَعَبُونَ فِضْلًا مِنْ اللَّهِ ...﴾ [سورة الفتح: ٢٩] .

والإسلام رسالة خير وسلام ، وعطف على البشر أجمعين ، وسور القرآن الكريم جميعاً مفتحة بقوله "بسم الله الرحمن الرحيم" ورحمة الله وسعت كل شيء عدا المشركين ، قال تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدِّينِ حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا لِنَبِّئُكَ قَالَ عَدَايَ أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأئمة: ١٥٦] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ

1- رواد الطبرانى .

2- رواد البخارى .

فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦: ١٥٧].

وقد تأخذ الرحمة طابع القسوة مثل القسوة التي يسلكها المربي مع مريديه وتلامذته ، ومثل الأب مع أولاده فالقسوة هنا تُعدُّ رحمةً بهم ، يقول الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

كما أن القصاص في الإسلام يعد رحمةً بالمسلمين ، وحمايةً لدمائهم وأموالهم حتى لا يطمع فيها طامع ، ولا يتجرأ عليها سفيه ، كما انه حقن للدماء وحفاظ على الأعراض وصور للحرمات ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٩] وجاءت كلمة حياة نكرة لتدل على العظمة ، يعنى ولكم فى القصاص حياة عظيمة يا أصحاب العقول فالقسوة التي حرمها الإسلام هى التي لا ترتبط بمنطق ولا عدالة .

قال رسول الله - ﷺ - : " جعل الله الرحمة مائة جزء ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه " (١) .

وفي روايه أخرى : " إن الله تعالى خلق - يوم خلق السماوات والأرض - مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض رحمة واحدة ، فيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضه على بعض " (٢) .

وعنأبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت الصادق المصدوق صاحب هذا القول " ابا القاسم " يقول : " لا تنزع الرحمة إلا من شقى " (٣) .

وبينه الإسلام أن هناك أقواما يستحقون أضعافاً من الرحمة ، وهم ذووالأرحام ، والرحم مشتقة من الرحمة فى ميناها ، فيجب ان تستقيم معها فى معناها ، قال رسول الله - ﷺ - : " الراحمون يرحمهم الله تعالى ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ، الرحم مشتق من الرحمن ، من وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعته الله " (٤) .

- 1- رواد البخارى .
- 2- رواد مسلم .
- 3- رواد ابوداود .
- 4- رواد الترمزى .

والشجنة هي القارية المشتبكة اشتباك العروق، فواجب على المسلم أن يؤدي حقوق اقربائه، وذلك بالموودة الدائمة المتواصة، وأحق الناس بالموودة والرحمة هم الوالدان، قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٢٤] ثم الأولاد، فعن "البراء بن عاذب - رضى الله عنه - قال: "أتى ابوبكر عائشة وقد أصابتها الحمى، فقال: "كيف انت يا بنية وَقَبَّلَ خدها (١).
وعن أبي هريرة كذلك. قال: « قبل رسول الله - ﷺ - الحسن بن علي - رضى الله عنهما - وعنده الأقرع بن حابس .

فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً! فنظر إليه رسول الله - ﷺ - ثم قال: " من لا يرحم لا يُرحم " .

وفي رواية أخرى: " أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك (٢) .
قال أنس رضى الله عنه دخلنا مع رسول الله - ﷺ - على أبي سيف القين وكان صهراً لابراهيم ولده عليه السلام فاخذ رسول الله ابراهيم فقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وابراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله تذر فان فقال له عبد الرحمن بن عوف وأنت يا رسول الله قال « يا ابن عوف إنها رحمة » ثم اتبعها أخرى أى دمة أخرى فقال « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وان بفراقك يا ابراهيم لمحزونون » (٣) .

كما تجب الرحمة باليتامى، فإن كفالتهم، والإحسان إليهم من أذكى القربات، فعن "أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رجلا شكأ إلى رسول - ﷺ - قسوة قلبه فقال: " امسح رأس اليتيم، واطعم المسكين " (٤) .

كما تجب الرحمة المرضى، وأصحاب العاهات، فلا يجوز لمسلم أن يؤأخذهم بما أعفاهم الله منه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعدُوهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [سورة الفتح: ١٧]
ومن الرحمة أيضا الرفق بالخدم، قال رسول الله - ﷺ -: - " أخواتكم حولكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم " .

- 1- رواه البخارى .
- 2- رواه البخارى .
- 3- رواه مسلم .
- 4- رواه احمد .

وعن أنس-رضى الله عنه- قال : خدمت رسول الله - ﷺ - عشر سنين ، فما قال لى لشيء فعلته لما فعلته ، ولا لشيء تركته لما تركته .

وعن أبى مسعود البدرى-رضى الله عنه- : "كنت اضرب غلاماً لى بالسوط فسمعت صوتاً من خلفى : " إعلم أبا مسعود- فلم أفهم الصوت من الغضب - فلما دنا منى إذا هورسول الله - ﷺ - : " فاذا هو يقول : " إعلم ابا مسعود ان الله اقدر عليك منك على هذا الغلام فقلت : " يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى .
فقال : " اما لوتفعل للفتحك النار " (١) .

وقال رسول الله - ﷺ - حسن الملكة نماء ، وسوء الخلق شئم " (٢) .

وجاءه رجل يسأله : " كم مرة اغفوع عن الخدم ، قال - ﷺ - : " كل يوم سبعين مرة " (٣) .

وقال رسول الله - ﷺ - : " من ضرب سوطاً ظلماً اقتص منه يوم القيامة " .

ومن الرحمة فى الإسلام الرفق بالحيوان ، فقد رأى " عمر بن الخطاب " - رضى الله عنه - رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها ، فقال : ويلك قدها للموت قوداً جميلاً ، وقال رجل يا رسول الله : انى لأرحم الشاة أن أذبحها ، فقال : " ان رحمتها رحمتك الله " (٤) والدليل على أن الإسلام عرف طريق الرفق بالحيوان قبل الغرب أن يعرفه والشرق ، وقبل ان تنشأ المستشفيات التى تعرف " بالوحدات البيطرية " ويعمل فيها الأطباء المتخصصون ، وقبل ان يعرف العالم " جمعيات الرفق بالحيوان " عرف الإسلام وعرف العالم الرحمة والرفق ، والشفقة بالحيوان ، قال رسول الله - ﷺ - : " بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج ، واذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ! فنزل البئر فملاً خفه ماءً ، ثم امسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له " .

قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم لأجراً ، قال : " فى كل كبد رطبة اجرا " .

وفى روايه : ان امرأة بغيا رأت كلبا فى يوم حار يبئراً ، قد أولج لسانه من العطش فنزعت له موقها - أى خفها - فغرها به . فإن كانت الرحمة بكلب تغفر الذنوب للبغياء فان الرحمة بالبشر تصنع العجائب .

- 1- رواه مسلم .
- 2- رواه البزار .
- 3- رواه الحاكم .
- 4- رواه الحاكم .

ويقول الله- عز وجل- : ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۗ إِنَّكَ أَنْتَ أَوْهَابٌ ﴾ [سورة آل عمران: ٨].

يعنى لا تملها عن الحق ، ولا تضلنا بعد ان هديتنا إلى دينك القديم وشرعك المستقيم وامنحنا من فضلك وكرمك رحمة تثبتنا بها على دينك الحق انك انت يارب المتفضل على عبادك بالعتاء والاحسان .
فعباد الرحمن ينادون رحمة الله التي ادركتهم بالهدى بعد الضلال ووهبتهم هذا العطاء الذى لا يعادله عطاء .

وهم يوحي ايمانهم يعرفون أنهم لا يقدرّون على شيء إلا بفضل الله ورحمة ، وانهم لا يملكون قلوبهم فهى فى يد الله ، فيتجهون اليه بالدعاء ان يدهم بالعون والنجاة، وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله - ﷺ - كثيراً ما يدعو " يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك " ، قلت يا رسول الله : ما أكثر ما تدعو بهذا العامة . فقال : ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن اذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاعه .

ومتى استشعر القلب المؤمن وقع المشيئة على هذا النحو لم يكن أمامه إلا أن يلتصق بركن الله ، فلا ملجأ من الله إلا إليه وأن يتوجه إلى الله يناشده رحمته وفضله .
ويقول " القرطبي " : وهب لنا من لدنك رحمة - أى من عندك ، ومن قبلك تفضلاً ، لا عن سبب منا ولا عمل . ومعنى الآية " هب لنا نعيماً صادراً عن الرحمة ، لأن الرحمة راجعة إلى صفة الذات فلا يتصور فيها الهبة .

ويقول صاحب اللطائف : ما ازدادوا قريباً إلا ازدادوا أديباً ، واللياذ إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب ويقال حين صدقوا في حسن الاستعانة أمدؤوا بأنوار الكفاية . وربما يقصد الأمام " القشيري " فى لطائفه بهذا القول : انهم ابدوا طامعون الهداية ، محتاجون - لا لأعمالهم - بل هم محتاجين لفضل الله ورحمته ، ومهما أسبغ عليهم يشعرون انهم ما زالوا بعيدين عن التمام وعلى هذا التفسير تنسجم هذه العبارة مع سابقتها " ما ازدادوا قريباً إلا ازدادوا ادبا " .

ويقول صاحب التفسير الكبير : " لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا " يعنى لا تمنعها الألفاظ التي معها يستمر قلبهم على صفة الإيمان ، وذلك لأنه تعالى لما منعهم ألفافه عند استحقاقهم منع ذلك جاز أن يقال : أزاعهم ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [سورة الصف: ٥].

وقال الأصمعي : لا تبلنا ببلوى تزيع عندها قلوبنا فهو كقوله سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْثًا ﴿٦٦﴾ [سورة النساء: ٦٦] وقال : ﴿.....لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُر بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [سورة الزُّخْرُف: ٣٣]. والمعنى لا تكلفنا من العبادات ما لا نأمن معه الزيع ، وقد يقول القائل : لا تحملي على إيذائك أي لا تفعل ما أصير عنده مؤذيًا لك الثالث : قال الكعي " لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا " أي لا تسمنا باسم الزائغ ، كما يقال : فلان يكفر فلاناً إذا سماه كافراً ، والرابع : قال الجبائي : أي لا تزغ قلوبنا عن جنتك وثوابك بعد إذ هديتنا؛ وقال آخرون : احرسنا من الشيطان ومن شرور أنفسنا حتى لا نزيغ .

ومجمل القول : ان أولئك الراسخون في العلم مع اعترافهم بالإيمان بالمتشابه يطلعون إلى الله ان يحفظهم من الزيع بعد الهداية ، ويهبهم الثبات على معرفة الحقيقة ، والاستقامة على الطريق فهم يعرفون ضعف البشر ، وكونهم عرضة للتقلب والنسيان والذهول ، فينافون أن يقعوا في الخطأ ، والخطأ قرين بالخطر .

ويقول الله تعالى في معنى الرحمة : ﴿وَلَيْنِ أذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ [سورة هود: ٩].

يعنى اذا انعمنا على الإنسان بأنواع النعم من الصحة والأمن ، والرزق ، وغيرها من النعم فاذا ما سلبناه تلك النعم فاذا هو بؤس قنوط من رحمة الله .

ومن معاني الرحمة ما يسجله القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وَلَيْنِ أذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ﴿٩﴾﴾

والمعنى ولئن اعطينا الانسان نوعاً من أنواع النعم كرفاء عيش وبسطة رزق ، وصحة وامن ، وولد بار، رحمة مبتدأة منا اذقناه لذتها فكان شديد الغتباط بها ، ثم سلبنا ذلك بما يحدث من الأسباب التي قدرها الله تعالى في الخليفة مثل المرض ، والموت والعسر إنه ليظفل في هذه الحال شديد اليأس من الرحمة ، قاطعاً للرجاء من عود تلك النعمة ، كثير الكفران لغيرها من النعم التي لا يزال يتمتع بها فضلا عما سلف منها ، انه يجمع بين اليأس بعودة ما وقع منه والكفر بما يقرله لحرمانه من فضيلتي الصبر والشكر .
و" الاذاقة " هنا معناها الاعطاء القليل .

ومن معاني الرحمة في القرآن الكريم قول الحق سبحانه :- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧].

والمعنى قد ارسل الله محمداً - ﷺ - رحمة للعالمين من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء .

فالبشرية كلها قد تأرت بالمنهج الذي جاء به طائعة أو كارهة ، شاعرة أو غير شاعرة وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة لمن يريد ان يستظل بها ويستروح فيها نسائم السماء الرضية في هجير الأرض المحرقة وبخاصة فى هذه الأيام التى تهب علينا فيها الأعاصير الهوجاء حاملة تيارات الغزو الفكرى ، والثقافى من الشرق والغرب مستهدفة اسلامنا ، ونبينا ، وكتابنا ، وليس أدل على ذلك من الهجمات الشرسة العدوانية التى تشنها هذه البلاد مثل " الدمارك " حيث شنت هجوماً عنيفاً وقاسياً على سيدنا محمد - ﷺ - كما هاجمت الإسلام في حملة شرسة ، ورسومات " كاريكاتيرية " تصف الإسلام بأنه دين الارهاب ، بينما الإسلام هو دين العدالة ، ودين الرفق ، ودين الرحمة بين جميع الناس ، ولكل العالمين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧]. وان إنسانية اليوم في مسيس الحاجة إلى هذه الرحمة ، والتراحم فيما بينها ، خاصة ذلّم العالم الشارد في متهاتات المادة ، وناار الحروب ، وجفاف الأرواح ، وقسوة القلوب .

ويمضى القرآن في الحث على الأخلاق الفضيلة ، والخِلال العظيمة والخصال الحميدة فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنَّمُ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة التوبة: ٦١].

كان المنافقون أو جماعة منهم يؤذون رسول الله - ﷺ - ويعيبونه ويقولون هو " اذن سامعه " أى يسمع من كل احد ما يقوله ، وَيَقْبَلُهُ وَيَصَدِّقُهُ ، وهم يريدون بذلك أنه سليم القلب ، سريع الاعتذار بكل ما يسمع دون أن يتدبر فيه ، ويميز بين ما هو جدير بالقبول لوجود أمارات الصدق فيه ، وما لا ينبغى قبوله وهذا عيب في الملوك والرؤساء لما يترتب عليه من تقريب المنافقين وأبعاد الناصحين ، وإنما قالوا ذلك لأنه كان - عليه الصلاة والسلام - يعاملهم باحكام الشريعة ، كما يعامل عامة المؤمنين بالبناء على الظاهر، فظنوا انه يصدق كل ما يقال له فيقول لهم القرآن : نعم انه اذن ، ولكنه نعم الأذن لأنه اذن خير لا كما تزعمون ، فهو لا يقبل مما يسمعه إلا ما يعتقد انه الحق ، وما فيه مصلحة الخلق ، وليس باذن في سماع الباطل مثل الكذب ، والنميمة ، والجدل ، والمرء واذا سمعه من غير أن يستمع إليه لا يقبله ، ولا يصدق ما لا يجوز تصديقه ، كما هوشأن الملوك

والزعماء الذين يتقرب إليهم أهل الأهواء ، وذلك بالسعاية لإبعاد الناصحين المخلصين عنهم ، وحملهم على إيذاء من يبتغون ايذاءه، ثم يُبين الله - عز وجل - المراد من أذن الخير فقال يصدق بالله ، وبما يوحي اليه مما فيه خيركم وخير غيركم ويصدق المؤمن الصادق الإيمان من المهاجرين والأنصار - رضى الله عنهم - وذلك لما علمهم من ثبات العقيدة ، وصدق ايمانهم الذى يحتم عليهم أن يصدقوا النبى - ﷺ - فيما يحدثوه به ، كما أنه رحمة للذين آمنوا منكم ، إيماننا صحيحاً ، صادقاً إذ كان سبب هدايتهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وليس من أظهر الإسلام وأبطن الكفر نفاقاً إذ هونقمة عليه في الدارين .

ومن الرحمة أيضا قوله تعالى :- ﴿ وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾ (سورة الروم: ٢١)

والمعنى ومن آياته الباهرة ، الدالة على عظمته ، وكمال قدرته أن خلق أصلكم وهو آدم - عليه السلام - من تراب ثم أنتم تتطورون من نطفة إلى علقة ومن علقة إلى مضغة ، إلى بشر عقلاء تتصرفون فيما هو قوام معاشكم .

ويقول "ابن كثير" فسبحان من خلقهم وسيرهم وسخرهم ، وصرفهم في فتون المعاش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبيح ، والغنى والفقير والسعادة والشقاوة . كما أن آياته العظيمة أن خلق لكم من جنس آخر يقول "ابن كثير" : ولو أنه تعالى جعل الإنسان من جنس آخر ، من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل النفرة وذلك من تمام رحمته ببنى آدم ، لتميلوا إليهن ، وتألفوهن .

وجعل بين الأزواج والزوجات محبة وشفقة ، يقول "ابن عباس" : - رضى الله عنهما - المودة هي " حب الرجل امرأته ، والرحمة هي شفقتة عليها ألا يصيبها بسوء، أما فيما ذكر لعبد عظيم لقوم يتفكرون فى قدرة الله وعظمتها فيدركون حكمته العليا . ومن معانى الرحمة في القرآن الكريم قوله تعالى :- ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوِيكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الحجرات: ١٠]

يعنى ليس المؤمنون إلا إخوة تجمعهم رابطة الإيمان ، فلا ينبغى أن تكون بينهم عداوة ولا شحناء ، ولا بغضاء ، ولا تقاتل ، والتعبير بلفظه " إنما " هنا للحصر ، فكأنه يقول : " لا أخوه إلا بين المؤمنين ، ولا أخوه بين مؤمن وكافر " ، وفي الآية إشارة إلى أن أخوه

الإسلام أقوى من أخوه النسب ، ودليل ذلك أن النبي - ﷺ - نسب " سلمان الفارسي " إلى آل بيته فقال - عليه الصلاة والسلام - " سلمان من آل البيت " ولم ينسب عمه " ابا لهب " وقد قال شاعرهم :

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وحط بالشرك النسيب ابولهب

فأخوة النسب لا يُعبأ بها إذا خلت عن أخوة الإسلام ، فأصلحوا بين إخوانكم المؤمنين ، ولا تتركوا الفرقة تدب ، والبغضاء تعمل عملها ، واتقوا الله تعالى بإمتثال أوامره ، وإجتنب نواهيه ، لتعمكم الرحمة ، وتناكم المغفرة وتسعدوا بجنات عرضها السموات والأرض ، كما أنكم تسعدون بمرضات الله - عز وجل - .

ويضي القرآن الكريم في توجيهاته الراشدة ، وحكمه العالية وإرشاداته النافعة المبنية على الرحمة والمودة والصفاء ، فيقول تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارِعُوهَا حَقَّ رِعَابِهَا فَتَاتِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيفُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الحديد: ٢٧].

والمعنى ثم اتبعنا بعدهم يرسلنا الكرام ، أرسلناهم رسولاً بعد رسول موسى ، إلياس ، يونس ...

وغيرهم وجعلناه بعد أولئك الرسل لأنه كان آخر الأنبياء من بنى إسرائيل يعنى سيدنا عيسى - عليه السلام- وأُنزلنا عليه الانجيل الذي فيه البشارة بـ " محمد - ﷺ - وجعلنا في قلوب أتباعه الحواريين الشفقة والرحمة والرأفة ، واللين .

يقول صاحب التسهيل : " هذا ثناء من الله عليهم بتحيتهم بعضهم في بعض ، كما وصف تعالى أصحاب محمد - ﷺ - بأنهم " رحماء بينهم " أما الرهبانية التي ابتدعها القسس والرهبان وأحرتوها من تلقاء أنفسهم ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها .

يقول " أبوحيان " : والرهبانية هي رفض النساء ، وشهوات الدنيا واتخاذ الصوامع ، وقد أحدثوها من عند أنفسهم ، وما كتبناها عليهم ، وما أمرناهم الا بما يرضى الله ، والاستثناء هنا منقطع ، والمعنى وما كتبنا عليهم الرهبانية ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله فما قاموا بها حق القيام ولا حافظوا عليها كما ينبغي .

يقول " ابن كثير ":- وهذا ذم لهم من وجهين ، أحدهما الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله والثاني في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله - عز وجل - .

وفي الحديث " لكل أمة رهبانية ، ورهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله " فأعطينا

الصالحين من أتباع عيسى - عليه السلام- الذين يثبتوا على العهد وآمنوا بمحمد - ﷺ -
 ثوابهم مضاعفاً ، وكثير من النصارى خارجون عن حدود الطاعة ، منتهكون لمحارم الله
 مثل قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ
 النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا
 يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ [سورة التوبة: ٣٤] ومن بين الآيات
 القرآنية الكريمة التي تحض على الأخلاق المتمثلة في الرحمة قول الحق - سبحانه
 وتعالى : ﴿ تَعْرَفَانِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرِّمَّةِ ﴾ [سورة البلد: ١٧] والمعنى ثم كان
 من الذين عملوا هذه القربات لوجه الله تعالى ، وكان مع ذلك مؤمناً صادق الإيمان ، وفي
 الآية إشارة إلى أن هذه القرب والطاعات لا تنفع الا مع الإيمان وأوصى بعضهم بعضاً
 بالصبر على الإيمان ، وطاعة الرحمن وبالرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين .

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " في ظلاله " و " ثم " هنا ليست للتراضى الزمنى
 وإنما للتراضى المعنوى ، باعتبار هذه الخطوة هي الأشمل والأوسع نطاقاً ، والأعلى أفقاً ،
 والا فما ينفع فك رقاب ، ولا إطعام طعام بلا إيمان ، فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك
 الرقاب ، وإطعام الطعام ، وهو الذى يجعل للعمل الصالح وزناً في ميزان الله ، لأنه يصله
 بمنهج ثابت مطرد . فلا يكون الخير فلتة عارضة ترضية لمزاج متقلب ، أو ابتغاء مَحْمَدَةَ
 من البيئَة أو مصلحة . (١)

1- التفسير .

- مختصر ابن كثير ج٣ ، ص ٥٢ الكبير للرازي ، ص ٢٠ ، ص ١٧٥ .
- القرطبي ج ١٠ ، ص ٢٥٢ .
- الطبري ج ٢١ ، ص ٢٢٢ .
- البحر المحيط ج٧ ، ص ١٦٨ .
- الكشف ج٣ ، ص ٤٣٠ .
- زاد المسير ج٦ ، ٣٩٣ .
- حاشية الصاوى ، ج٣ ، ص ٢٨١ .
- تفسير المراعى ج٧ ، ص ١٤٦ وما بعدها ، ج ١ ، ص ١٠٢ وما بعدها .
- صفة التفاسير .
- الجلالين ج ٤ ، ص ١٧٦ .
- البيضاوى ج٣ ، ص ١٤٦ .
- تفسير ابن كثير .
- روح المعانى للالوسى .
- فى ظلال القرآن ج٥ ، ص ٢٤٠٢ وما بعدها . ج١ ، ص ٣٧٠ وما بعدها . ج٦ ، ص ٣٩١٣ وما بعدها .
- مفاتيح الغيب ج ٤ . ص ٩٩ وما بعدها .
- لطائف الاشارات للقسيرى ج ١ ، ص ٢٢٠ وما بعدها .

وكما قال سبحانه ﴿فَكَرِهَ ۙ﴾ (١٣) أو ﴿إِطَعْتُمْ فِي يَوْمِ ذِي مَسْعِيَّةٍ﴾ (١٤) ﴿بَيْمَاتًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ (١٥) أو ﴿مَسْكِينًا ذَا مَرْبٍ﴾ (١٦) ﴿تُرْكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ (١٧) [سورة البلد: من ١٣-١٧]

فتم هنا لإفادة معنى الفضل والعفو. والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة ، ولإقتحام العقبة بصفة خاصة ، والتواصى به يعزز درجة الصبر ذاته وهي درجة تماسك الجماعة المؤمنة ، وتواصيها على معنى الصبر وتعاونها على تكاليف الإيمان . فهي أعضاء متجاوبة الحس ، تشعر جميعاً شعوراً واحداً بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض ، وحمل تكاليفه فيوصى بعضها بعضاً بالصبر على العبء المشترك ، ويثبت بعضها بعضاً فلا تتخاذل ، ويقوى بعضها بعضاً فلا تنهزم ، وهذا أمر غير الصبر الفردي وإن يكن قائماً على الصبر الفردي ، وهو إحياء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة ، وهو ألا يكون عنصر تخذيل ، بل عنصر تثبيت ، ولا يكون داعية هزيمة ، بل داعية اقتحام ، ولا يكون مثار جزع ، بل مهبط طمأنينة . وكذلك التواصى بالرحمة ، فهو أمر زائد على الرحمة إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصى به والتحااض عليه ، واتخاذها واجباً جماعياً فريدياً في الوقت ذاته يتعارف عليه ، ويتعاون عليه الجميع .

فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه وهو المعنى الذي يبرزه القرآن الكريم ، كما تبرزه أحاديث رسول الله - ﷺ - .

لأهميته في تحقيق حقيقة هذا الدين ، فهودين جماعة ، ومنهج أمة مع وضوح التبعية الفردية ، والحساب الفردي فيه وضوحاً كاملاً . أولئك أصحاب الذين يقتحمون العقبة ، كما وصفها القرآن وحدودها " أولئك أصحاب الميمنة " وهم أصحاب اليمين كما جاء في مواضع أخرى ، أو أنهم أصحاب اليمين والحظ والسعادة ، وكلا المعنيين متصل في المفهوم الايماني .

ومجمل القول أن الإسلام يأمر بالرحمة ، والتراحم ، وهو خلق القرآن الكريم الذي يوجه المسلمين إلى التراحم فيما بينهم فالرحمة كمال في الطبيعة يجعل المرء يرقق لآلام الخلق ، ويسعى لإزالتها ، ولا يبأس لأخطائهم فيتمنى لهم الهدى ، هي كمال في الطبيعة حيث إن تلبد الإحساس يهوى بالإنسان إلى منزلة الحيوان ، ويسلبه أفضل ما فيه وهو العاطفة الحية النابضة بالحب والرأفة ، بل إن الحيوان قد تجيش فيه مشاعر مبهمه تعطفه على ذراريه ، ومن ثم كانت القسوة ارتكاساً بالفطرة إلى منزلة البهائم ، بل إلى منازل الجماد الذي لا يعي ولا يهتز .

ولقد وصف أمير الشعراء " احمد شوقي " رسول الله - ﷺ - بالرحمة فقال :

وإذا رحمت فأنت أم أوأب هذان في الدنيا هم الرحماء

ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ أَوْى الْفَتِيَّةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً

وَهِيَئَ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ [سورة الكهف: ١٠]

والمعنى واذكر حين لجأ الشبان إلى الغرو وجعلوه مأواهم فقالوا ربنا أعطنا من خزائن رحمتك مغفرة ورزقا وأصلح أمرنا وأجعلنا من الراشدين المهتدين .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْىٰ إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ

لَكُمْ رَيْبِكُمْ مِن رَّحْمَتِهِ وَبِهِئِ لَكُمْ مِّن أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾ [سورة الكهف: ١٦]

يعنى وإذا اعتزلتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون من الأوثان فالتجؤا إلى الكهف يبسط لكم ربكم ويوسع عليكم رحمته ويسهل عليكم أسباب الرزق وما تحتاجون إليه من غداء وعشاء في الغار .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَرَبِّكَ الْعَفْوَِرُ ذُو الرِّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ

الْعَذَابَ بَلْ لَهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْبِلًا ﴿٥٨﴾ [سورة الكهف: ٥٨]

والمعنى ، وربك يا محمد - ﷺ - واسع المغفرة ، عظيم الرحمة بالعباد مع تقصيرهم وعصيانهم وتمردهم ولو أنه يعاقبهم بما اجترحوا من سيئات ، وارتكبوا من مناكل لعجل لهم العذاب في الدنيا ولكنه - سبحانه وتعالى - يؤخرهم عنهم العذاب الذى يستعجلونه به رحمة بهم وقد جرت سنة الله تعالى أن يمهل الظالم لكنه لا يهمله ، حيث إن لهم وعداً آخر في القيامة يرون فيه الاھوال ولن يجدوا لهم فيه ملجأ ولا منجى .

ويقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ

كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا

فَعَلْنَاهُ عَن أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ [سورة الكهف: ٨٢]

والمعنى ، وأما الجدار الذى بنته دون أجر قد خبئ تحته كنز من ذهب وفضة لفلاحين يتيمين فى المدينة وكان أبوهما صالحاً تقياً فحفظ الله لهما الكنز لصلاح أبيهما وقيل أنه الأب السابع وظاهر اللفظ أنه أبوهما مباشرة وهو الأرجح . فأراد الله أن يكبرا ويشد عودهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار رحمة من الله بهما لصلاح أبيهما ما فعلت ذلك عن أمرى أى من أمرى ومن تلقاء نفسى بل هو بأمر الله وإلهامه .

ويبضى القرآن الكريم في الحث على الأخلاق الفاضلة ، والتمسك بها والسير على

منوالها كى يسعد المسلم في دنياه ، ويفوز بالجنة في أخراه فيقول الحق - سبحانه

وتعالى :- ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ [سورة البقرة: ٢٤٧]

وهنا نتكشف سمة من سمات بنى إسرائيل ، فقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه ، فلما جاءهم من يقاتلون تحت لوائه نكصوا على أعقابهم ، وجادلوا في اختيار الله لهم ، واستكبروا أن يكون طالوت الذى بعثه الله لهم ملكاً عليهم ، لأنهم يرون أنهم أحق بالملك منه بالوراثة ، فلم يكن من نسل الملوك فيهم ، ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التعاضى عن أحقية الوراثة ، وكل هذا غيبش فى التصور ، كما أنه من سمات بنى اسرائيل المعروفة . ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقية الذاتية ، وعن حكمة الله فى اختياره فقال: " إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ " [سورة البقرة: ٢٤٧]

إنه رجل قد اختاره الله وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكة من يشاء ، فهو ملكه وهو صاحب التصرف فيه ، وهو يختار من عباده من يشاء والله واسع عليم ، ليس لفضله خازن ، وليس لعطائه حد ، وهو الذى يعلم الخير ويعلم كيف توضع الأمور فى مواضعها . وهى أمور من شأنها أن تصح التصور المشوش ، وأن تجلوعنه الغبش ، بيد أن طبيعة بنى اسرائيل ونبيها يعرفها لا يمكن أن تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها ، وهم مقبلون على معركة ولابد لهم من أمر خارق للعادة ، وظاهرة تهز قلوبهم ، وتردها إلى الثقة واليقين . ولما أعترض بنو اسرائيل على رياسة وإمارة طالوت يبين الله تعالى لهم أن السبب فى اختياره هو:

أولاً : العلم ، ليتمكن بوساطته من معرفة أمور السياسة .

ثانياً : قوة البدن ، وذلك ليعظم خطره فى القلوب ، ويكون فى وسعه ومكنته مقاومة الأعداء ، ومكابدة الشدائد . وقد خصه الله - سبحانه وتعالى - منهنما بحظ وافر . يقول " ابن كثير " :- رحمه الله تعالى - " ومن هنا ينبغى أن يكون الملك ذا علم ، وشكل حسن ، وقوة شديدة فى بدنه ونفسه ، والله يعطى الملك لمن يشاء من عباده من غير إرت أو مال ، والله واسع الفضل ، عليم من هو أهل فيعطيه إياه ولذلك لما طلبوا آية تدل على اصطفاء الله له أجابهم الله تعالى إلى ذلك فقال - سبحانه وتعالى :-

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَآءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٨]

فعلامة اختياره عليكم هو أن يرد الله إليكم التابوت الذي أخذ منكم ويقول "الزَمْخَرِيُّ" :- هو صندوق التوراة الذي كان موسى - عليه السلام - إذا قاتل قدمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفروا . ففي التابوت السكون والطمأنينة ، والوقار ، وفيه أيضاً بقية من آثار آل موسى وهارون وهى " عصا موسى وثيلهم ، وبعض الألواح التى كتب فيها " التوراة " تحملة الملائكة .

يقول " ابن عباس " - رضى الله عنهما :- " جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعت بين يدي طالوت والناس ينظرون .

إن في هذا الأمر وهو نزول التابوت بين يدي " طالوت " علامة وأمانة ودليل واضح جلى على أن الله - سبحانه وتعالى - اختاره ليكون ملكاً عليهم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر . ويقول صاحب لطائف الاشارات إنهم نسوا حق الاختيار فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فاستبعدوا أن يكون طالوت ملكاً لأنه كان فقيراً لا مال له ، فبين لهم أن الفضيلة باختيار الحق ، وأنه وإن عدم المال فقد زاده الله علماً ففضلكم بعلمه وجسمه ، وقيل : أراد أنه محمود خصال النفس ولم يرد عظيم البنية فإن في المثل " فلان اسم بلا جسم " يعنى " نكربلا معنى وأن الله تعالى إذا أظهر نوراً أمده يتأييد من قبله ، فلما ملك طالوت عليهم أزال الإشكال عن صفته بما أظهر من آياته الداله على صدق قول نبيهم فى اختياره فرد عليهم التابوت الذى فيه السكينة ، فاتضحت لهم آية ملكه وأن نبيهم - عليه السلام - صدقهم فيما أخبرهم . ويقول الأستاذ " أحمد مصطفى المراعى " فى تفسيره المعروف : " روى فى أخبار بنى إسرائيل أن الاسرائيليين فى الزمن الذى بعث فيه " صموئيل " نبياً لهم ، كانوا قد انحرفوا عن شريعتهم ، وعبدوا الأصنام والأوثان وضعفت فيهم الرابطة الدينية ، فسلط الله عليهم أهل فلسطين ، فانتخوهم وقتلوا منهم العدد الكثير ، وأخذوا تابوت عهد الرب ، وكانوا من قبل يستفتحون به ، يعنى " يطلبون الفتح والنصر به " على أعدائهم ففترت همتهم ، واستكانوا ودلوا ، ولم يكن لهم إلى ذلك العهد ملوك بل رؤسائهم وقضاتهم رجال الدين ، ومن بينهم أنبياءهم ومن هؤلاء " صموئيل " فقد كان قاضياً ، ولما كبرت سنه جعل بينه قضاة ، فكانوا قضاة الجور ، وأكلة " الرشاش " فاجتمع شيوخ بنى إسرائيل الذين عبر عنهم القرآن " بالملأ " وطلبوا من " صموئيل " أن

يختار لهم ملكاً يحكم فيهم بكيفية الشعوب الأخرى ، فحذرهم ، وأنذرهم ظلم الملوك ، واستعبادهم للامم فألحوا ، فألهمه الله أن يختار لهم " شاول " ملكا ، فقالوا : كيف يملك علينا ، وهولا يستحق هذا التملك ؟ لأنه هناك من هو أحق به منه ، ولأنه لا يوجد لديه ما يتوقف عليه الملك وهم " المال " ولأنه ليس من سلائل الملوك ، ولا من سلائل النبوة ، وقد كان الملك في سبط " يهوذا ابن يعقوب " لا يتجاوز به إلى غيره ومنهم " داود وسليمان " - عليهما السلام - وكانت النبوة في سبط " لآل بن يعقوب " ومنه " موسى وهارون " وقد جرت العادة عند الناس أن الملك لا بد أن يكون وارثاً للملك أو ذا نسب شريف يسهل على عظماء الناس أن يخضعوا له ، أن يكون ذا مال كثير يدير به الملك ، ولا يأبهون بمعارفه وصفاته الذاتية وفضائله وأخلاقه . من أجل هذا بين الله فيما حكاه عن نبيه خطأ هؤلاء القوم في زعمهم أن الملك لا يستحق إلا بالنسب ، وسعة المال فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٨]

يعنى إن الله اختاره ملكا عليكم لما فيه من المزايا الآتية :-

أولاً : الاستعداد الفطرى ، وهوى المنزلة الأولى من الأهمية ومن ثم قدمه .

ثانياً : السعة فى العلم الذى يكون به التدبير ، ومعرفة مواطن ضعف الأمة وقوتها ، وجودة الفكر فى تدبير شؤونها .

ثالثاً : بسطة الجسم ، وكمال قواه المستلزمة لصحة الفكر ، فقد جاء فى أمثالهم " العقل السليم فى الجسم السليم " وللشجاعة، القدرة على المدافعة والهيبة والوقار .

رابعاً : توفيق الله تعالى له بتسخير الأسباب التى لا عمل له فيها وهذا ما عناه - سبحانه وتعالى - بقوله " والله يؤتى ملكه من يشاء " أما المال فليس بلازم فى تأسيس الملك ، لأنه متى وجدت الأسباب سهل على صاحبها إيجاد المال اللازم لتدبير الملك ، فكم فى الناس من أسس دولة وهو فقير أسمى ، وكان استعداده ومعرفته بحال الأمة التى سادها كافياً فى الاستيلاء عليها ، واستعانتها بأهل العلم والشجاعة كافياً فى تمكين سلطته فيها . " والله واسع عليم " أى والله واسع التصرف والقدرة ، إذا شاء أمراً اقتضته حكمته فى نظام الخليفة فإنه يقع لا محالة ، عليم بوجود الحكمة فهو يضع لهم من السنن والنظم ما هوفى منتهى الإبداع والإتقان ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان .

هذه هي الأخلاق في القرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فلوأن الناس تمسكوا بإسلامهم وسنة نبيهم ، وقرآن ربهم لسعدوا في الحياة الدنيا ، وفازوا برضوان الله تعالى في الدار الآخرة (١).

ومن الأخلاق في القرآن الكريم، ما تقصه علينا هذه الآية وهى قوله تعالى: ﴿.....وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [سورة آل عمران: ٨] يقول " الإمام القرطبي :-

" وهب لنا من عندك ، ومن قبلك تفضلاً عن سبب منا ، ولا عمل وفى هذا إستسلام وتطرح ، يعنى وهب لنا نعيماً صادراً عن الرحمة لأن الرحمة راجعه إلى صفة الذات فلا يتصور فيها الهبة .

وفي الكشاف " وهب لنا من لدنك رحمة يعنى وأعلم أن تطهير القلب عما لا ينبغى مقدم على تنويره بما ينبغى فهولاء المؤمنون سألوا ربهم أولاً ألا يجعل قلوبهم مائلة إلى الباطل ، والعقائد الفاسدة ، ثم إنهم أتبعوا ذلك بأن طلبوا من ربهم أن ينور قلوبهم بأنوار المعرفة وجوارحهم وأعضاءهم بزينه الطاعة ، وإنما قال " رَحْمَةً " ليكون ذلك شاملاً لجميع أنواع الرحمة ، فأولها أن يحصل فى القلب نور الإيمان ، والتوحيد والمعرفة .

وثانيها : أن يحصل في الجوارح والأعضاء نور الطاعة ، والعبودية والخدمة .

وثالثها : أن يحصل في الدنيا سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية .

ورابعها : أن يحصل عند الموت سهولة سكرات الموت .

وخامسها : أن يحصل في القبر سهولة السؤال وسهولة ظلمة القبر .

وسادسها : أن يحصل في القيامة سهولة العقاب ، والخطاب وغفران السيئات

وترجيح الحسنات بقوله تعالى : " مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً " يتناول جميع هذه الأقسام

ولما ثبتت بالبراهين الباهرة ، الكاهرة أنه لا رحيم إلا هو ولا كريم إلا هو لا جرم أكد

ذلك بقوله تعالى ، " مِنْ لَدُنْكَ " تنبيهها للعقل والقلب والروح على أن المقصود لا

يحصل الا منه سبحانه ، ولما كان هذا المطلوب في غاية العظمة بالنسبة إلى العبد لا

1- تفسير المراغى ج ١ ، ص ٢١٤ إلى ص ٢١٨ .
 ◆ لطائف الاشارات للقسيري ج ١ ، ص ١٩١ ، ص ١٩٢ .
 ◆ فى ظلال القرآن ج ١ ، ص ٢٦٧ ، ص ٢٦٨ .
 ◆ القرطبي ج ٣ ، ص ٢٤٥ .
 ◆ مختصر ابن كثير ج ١ ، ص ٢٣٤ .
 ◆ تفسير القرطبي ج ٢ ، ص ١٠٥٥ إلى ص ١٠٥٨ .

جرم ذكرها على سبيل التنكير ، كأنه يقول " أطلب رحمة وآية رحمة ، أطلب رحمة من لدنك ، وتليق بك وذلك يوجب غاية العظمة ، ثم يقول تعالى: "إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ" كأن العبد يقول : "إلهى هذا الذى طلبته منك فى هذا الدعاء عظيم بالنسبة إلى كمال كرمك وغاية جودك ورحمتك ، فأنت الوهاب الذى من هبتك حصلت حقائق الاشياء وأدواتها ، وماهياتها ، ووجودها ، فكل ما من سواك فمن جودك ، واحسانك وكرمك ، يا دائم المعروف ويا قديم الإحسان لا تخيب رجاء هذا المسكين ، ولا ترد دعاءه ، واجعله بفضلك أهلا لرحمتك يا أرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين .

" العلم "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة قوله تعالى: ﴿.....وَمَا يَعْزِمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّسُخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّا بِهِ ءَكُلُّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [سورة آل عمران: ٧]

والمعنى ، لا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقي إلا الله ووحده والثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالمتشابه وأنه من عند الله ، وكل من المتشابه والمحكم حق وصدق لأنه كلام الله وما يتعظ ويتدبر الا أصحاب العقول السليمة المستنيرة .

ويقول صاحب التفسير الكبير: " يكون العلم بالمتشابه حاصلًا عند الله تعالى وعند الراسخين في العلم ، وهذا القول مروى عن " ابن عباس " ومجاهد والربيع وأكثر المتكلمين ، والراسخ في العلم هو الذى عرف ذات الله وصفاته بالدلائل اليقينية القطعية وعرف أن القرآن كلام الله تعالى بالدلائل اليقينية فإذا رأى شيئاً متشابهاً ودل القطعى على أن الظاهر ليس مراد الله تعالى علم حينئذ قطعاً أن مراد الله شيئاً آخر سوى ما دل عليه ظاهره ، وأن مراد ذلك الله حق ، ولا يصيركون ظاهره مردوداً سببه في الطعن في صحة القرآن ، وكل من المحكم والمتشابه من عند ربنا ، وذكر كلمة " عند " لمزيد التأكيد .

" وما يذكر إلا أولوا الأبواب " هو ثناء من الله تعالى على الذين قالوا " ءَأَمَّا بِهِ " ومعناه ، وما يتعظ بما في القرآن إلا ذوا العقول الكاملة فصار هذا اللفظ كالدلالة على أنهم يستعملون عقولهم في فهم القرآن ، فيعملون الذى يطابق ظاهره دلائل العقول فيكون مُحْكَمًا ، وأما الذى يخالف ظاهره دلائل العقول فيكون متشابهاً ثم يعلمون أن لكل كلام من لا يجوز في كلامه التناقض والباطل ، فيعلمون أن ذلك المتشابه لابد أن يكون له معنى صحيح عند الله تعالى ، وهذه الآية دليل على علو شأن المتكلمين الذين يبحثون عن الدلائل العقلية ، ويتوسلون بها إلى معرفة ذات الله ، وصفاته وأفعاله ، ولا يفسرون القرآن إلا بما يطابق دلائل العقول ويوافق اللغة والإعراب والشىء كلما كان أشرف كان ضده أخس ، فكذاك يفسر القرآن متى كان موصوفاً بهذه الصفة ، كانت درجته هذه الدرجة العظمى التى عظم بها الله الثناء عليه ، ومتى تكلم في القرآن من غير أن يكون متبحراً في علم الأصول وفي علم اللغة والنحوكان في غاية البعد عن الله ، ولهذا قال النبى - ﷺ - :

" من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار . "

وقد حس عليهم الكتاب ، فمن ظاهر واضح تنزيله ، ومن غامض شكل تأويله ، فالقسم الأول لبسط الشرع واهتداء أهل الظاهر ، والقسم الثانى لصيانة الأسرار عن اطلاع

الأجانب عليها ، فسبيل العلماء الرسوخ في طليق معناه على ما يوافق الأصول ، فما حصل عليه الموقوف فمقابل بالقبول ، وما امتنع من التأثر فيه بمعلول الفكر سلموه إلى عالم الغيب ، وسبيل أهل الإشارة والفهم إلقاء السمع بحضور القلب فما سنج لفهومهم من لوائح التعريفات بنوا عليه إشارات الكشف وذلك إن طولبوا باستدامة الستر ، وطى السر تخارسوا عن النطق ، وإن أمروا بالإظهار والنشر أطلقوا بيان الحق ونطقوا عن تعريفات الغيبة ، فأما الذين أبدوا بأنوار البصائر فهم مستضيئون بشعاع شمس الفهم ، وأما الذين ألبسوا غطاء الريب ، وخرموا لطائف التحقيق فنقسم بهم الأحوال وتترجم بهم الظنون ويطيحون في أودية الريب والتليب فلا يزدادون إلا جهلاً على جهل ، ونفورا على شك ، ومن وجد علم من الله فيكون ايمانهم بلا احتمال جولان خواطر التجويز ، بل عن صريح الظهور ، وصفاء اليقين وأما أصحاب العقول الصاحية ففي صحبة التذکر لظهور البراهين ويفهم من ذلك أن المتعرض لتفسير القرآن الكريم أن يكون متحصناً بالعلوم ، والمعارف ، والفتانة ، والتروى والعقل الناضج ولذلك لا يعلم تفسيره الحقيقي ، ومقصودة ، وهدفه ، ومرماه إلا الله - سبحانه وتعالى - والراسخون بالعلم ، وكله من عند الله ، وما يتدبر ذلك إلا أصحاب العقول الواعية ، والفكر السليم والقلوب الطاهرة مع الصفاء والنقاء ، والابتهاج إلى الله - عز وجل - والانقطاع له ، وهذا يحى الفكر والفهم والتوفيق ، والهداية إلى تفسير كتاب الله - عز وجل - ، وفهم دقائقه (١) .

ويكرم القرآن الكريم العلماء ، وطبيعة الإسلام تفرض على الأمة التي تعتنقه أن تكون أمة متعلمة ، ترتفع فيها نسبة المثقفين ، وتهبط أو تنعدم فيها نسبة الجاهلين ، لأن حقائق هذا الدين من أصول وفروع ليست طقوساً تنتقل بالوراثة ، أو تعاويد تضيع بالإيحاء ، وتنتشر بالأبهام ، بل هي حقائق تستخرج من كتاب حكيم ، ومن سنة واعية - صلى الله على صاحبها - وسبيل استخراجها لا يتوقف على القراءة المجردة ، بل لابد من أمة تتوافر فيها العقول الذكية والأساليب العالية ، والآداب الكريمة ، ولا ريب أن مدارس مناهج الإسلام تخلق في أى أمة تعنى بها جواً من الفقه التشريعى القائم على الاوامر والنواهي ، يعنى الحقوق والواجبات ، وجواً من الآداب الإجتماعية الدقيقة المتعلقة

1- لطائف الاشارات ج ١ ، ص ٢٢٠ وما بعدها .

♦ القرطبي ج ٢ ، ص ١٢٥٨ ، وما بعدها .

♦ مفاتيح الغيب ج ٤ ، ص ٩٧ ، وما بعدها .

♦ تلخيص البيان ج ١٧ .

♦ تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ج ١ ، ص ٣٤٤ ، وما بعدها .

بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجوا من البحث الصحيح والاجتهاد المخلص لد رواق الإسلام على ما تفديه العصور من أفضية شتى وشئون متجددة فإذا قلّت هذه العناصر في بيئة ما اضمحل أمر الإسلام، ودليل اغصانه، كما تبلى الشجرة، الباسقة المرتفعة فى أرض ذهب خصبها، وجف ماؤها إن العلم للإسلام كالحياة للإنسان، ولن يجد هذا الدين مستقراً له إلا عند أصحاب المعارف الناضجة، والألباب الحصينة، يقول الله تعالى: ﴿ هَذَا بَلَدٌ لِّتَّاسٍ وَيُنذِرُوا بِهِ ۗ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة إبراهيم: ٥٢] ويصور أحاديث أهل جهنم فيقول: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سورة الملوك: ١٠] ويقول القرآن الكريم فى الذين طمست مشاعرهم، وماتت مواهبهم واستغلقت أذهانهم: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعَبُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۗ صُمُّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧١]

لذلك يقول الله - عز وجل -: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة آل عمران: ١٨] وهى شهادة فى معنى الإقرار فالكلى عبيد له و" أولوا العلم " هم الذين عرفوا وحدانيته بالادلة القاطعة .

ولذلك قال - ﷺ - : - " وإذا علمت مثل الشمس ذا شهد " وهذا يدل على أن هذه الدرجة العالية والمرئية الشريفة ليست إلا لعلماء الأصول .
ويقول " سعيد بن جبیر " كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فلما نزلت هذه الآية خررنا سجداً .

ويقول " الكلبي " ، لما ظهر رسول الله - ﷺ - بالمدينة قدم عليه حيران من أخبار أهل الشام، فلما أبصر المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج فى آخر الزمان !.

فلما دخلا على النبي - ﷺ - عرفاه بالصفة والنعت .

فقالا له: أنت محمد؟ قال (نعم).

قالا: وأنت أحمد؟ قال: (نعم) .

قالا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك .

فقال لهما رسول الله - ﷺ - : (سلاني) .

فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله .

فأنزل الله تعالى على نبيه - ﷺ - "شهد الله أنه لا إله إلا هو الملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط" فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله - ﷺ - .
وقد قيل: إن المراد بأولى العلم الأنبياء عليهم السلام. وقال ابن كيسان: المهاجرون والأنصار.

وقال "مقاتل": مؤمنوا أهل الكتاب.

وقال "السدي والكلبي": المؤمنون كلهم، وهو الأظهر لأنه عام. وما يؤسده ونفيل إليه، والذي يتناسب مع فهم الآية الكريمة حيث قال الله تعالى: "وَأُولُوا الْعِلْمِ" وهي عامة. وليست خاصة بقوم بأعينهم، إنما المراد العلماء في كل منهم، وفي كل عصر من العصور، وفي كل زمان ومكان وهو الأنسب للفهم، المتزن المستقيم.

وفي هذه الآية دليل على فضل العلم، وشرف العلماء، فلو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه، واسم ملائكته، كما قرن اسم العلماء وقال الله تعالى:

"في شرف العلم لنبيه - ﷺ - ﴿... وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٤] ولو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه - ﷺ - أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيد من العلم وقال - ﷺ - "إنما العلماء ورثة الأنبياء: العلماء أمناء الله على خلقه".

وهذا شرف عظيم للعلماء. وعن البراء قال: "قال رسول الله - ﷺ -:

"العلماء ورثة الأنبياء يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة".

والعلماء على درجات، فمن عالم وصفه فنَاء وربانية، وعالم يعرف احكام حلاله وحرامه، وعالم يعلم أخباره وسنته وآثاره، وعالم يعلم كتابه ويعرف تفسيره وتأويله ومحكمه وتنزيله، وعالم يعلم صفاته ونعوته ويستقوى حجمه وتوجيهه بحديث يخرج به، وعالم لاطاقة حتى أحضره ثم كاشفه فقهره فالاسم باق، والعين مَحْوٌ، والحكم طارق، والعبد محق، قال قائلهم:

بنوح غدوا بالحق صرفاً فنعت الخلق فيم هو مستور

ويقول "الزمخشري": شبهت دلالاته على وحدانيته بشهادة الشاهد في البيان والكشف، وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحديته بدلائل خلقه وبيد صنعته.

ويقول " ابن كثير " :

" شهد تعالى وكفى به شهيداً وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين { أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء إليه وهو الغني عما سواه كما قال تعالى :

﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ... ﴾ [سورة النساء: ١٦٦] ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال " شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ " وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام .

إن أول ما نزل من آيات القرآن الكريم قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي

خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ ⑥ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَلْ ⑦ فَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الرُّجُوعَ ⑧ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ⑩ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ⑪ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى ⑫ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ⑬ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ⑭ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ⑮ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ⑯ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ⑰ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى ⑱ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ⑲ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ⑳ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ㉑ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ㉒ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ㉓ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ㉔ كَلَّا لَا نَطَعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ㉕ ﴾ [سورة العلق: ١-١٩]

وهذه اول صيحه تسمو بقدر القلم ، وتنوه بقيمة العلم ، وتعلن الحرب على الأمية الغافلة والجهالة الجهلاء ، وتجعل اللبنة الأولى في بناء كل رجل عظيم أن يقرأ ، وأن يتعلم وسما الله - عز وجل - بدرجات العلماء حتى قرنهم بنفسه وملائكته في الشهادة بوحدايته والإقرار بعдалته ، كما ذكرناه في الآية آفة الذكر "

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٨]

فأنى لمن يعيش على هامش الحياة بجهله أن يعرف الحق عن خالقه رب الحياة ، أو حتى يلمح طرفاً من صفات الله العظيمة ، وآياته الكبرى .

لذلك أعز الله تعالى العلماء ، وآثرهم بكرامته وفضله ، قال رسول الله - ﷺ - :

" يقول الله - عز وجل - للعلماء يوم القيامة ، إذا قعد على كرسيه للفصل بين العباد :

" إنى لم أجعل علمى ، وحلمى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبألى . " (١) .

إن المعرفة الجيدة أسبق عند الله من العمل المضطرب ، ومن العبادة الجافة المشوبه بالجهل، والقصور، قال رسول الله - ﷺ -: " قليل العلم خير لكم من كثير العبادة " (١) وقال - ﷺ -: " فضل العلم خير من فضل العبادة " (٢) .
وقال - ﷺ -: " أفضل العبادة الفقه " (٣) .
وقال - ﷺ -: " يا أبا ذر لأن تغدوت تعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة ، ولأن تغدوت تعلم بابا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلى ألف ركعة " (٤) .

ويقول - ﷺ -: " فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد " .
وروى عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : " فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس السريع المضمّر مائة عام وذلك أن الشيطان يضع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهي عنها والعابد مقبل على عبادته لا يتوجه لها ولا يعرفها " (٥) .
وكل علم نافع للإسلام ، وأمته في شتى الفنون ، ومختلف المعارف سواء أكانت هذه العلوم دينية ، أوكونية ، أو في الطاقة النووية ، أو في التاريخ أو الجغرافيا ، أو في علم النفس ، كل ما يخدم الإسلام ، وبأخذ بيد الأمة إلى الرقى والحضارة والتمدن فهو علم ، ويثاب عليه مبتكره ومخترعه ، فأصل العلوم جميعاً هو القرآن الكريم ، وما عداه أمتان وأعصان ، وفروع ، فكل علم نافع يعد علماً .

وقال - ﷺ -: " إن الله وملائكته وأهل السماوات وأهل الأرض حتى النملة في حجرها ، وحتى الحوت في جوف البحر ليصلون على معلم الناس الخير " (٦) .
وحسبنا أن القرآن الكريم عندما فوه بفضل العلم وجلال العلماء إنما عنى بالعلماء الذين يعرفون عظمة الخالق من عظمة الخلق ، وإنما عنى العلم الذي ينشأ من النظر في النبات والحيوان وشئون الطبيعة الأخرى .
إن علوم الحياة مساويةً لعلوم الآخرة في خدمة الدين ، وتجليه حقائقه .

- 1- رواه الطبراني .
- 2- رواه البزار .
- 3- رواية الطبراني .
- 4- رواه ابن ماجة .
- 5- رواه الديلمي عن ابي هريرة .
- 6- رواية الترمذى .

ويقول الله - عز وجل - فى فضل العلم : ﴿ لَنَكِينِ الرَّسُوحُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء: ١٦٢]

والمعنى : لكم المتكمنون فى العلم والسابقون فيه مثل " عبد الله بن سلام وجماعته " ، والمؤمنون من المهاجرين والانصار أصحاب النبى - ﷺ - من غير أهل الكتاب يؤمنون بما انزل اليك وما أنزل من قبلك يعنى يؤمنون بالكتب والأنبياء جميعا ، ثم يمتدح الله - عز وجل - مقيموا الصلاة والمعطون زكاة اموالهم ، والمؤمنون بوحداية الله ، وبالبعث بعد الموت هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الجليلة سنعطيهم ثواباً جزيلاً على طاعتهم وهوالخلود فى الجنة .

ويقول الله تعالى : ﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ؕ أَوْ لَا تُوْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذِقَانِ سُجَّدًا ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٧]

وهوخطاب للمشركين الذين اقترحوا المعجزات على وجه التهديد والوعيد يعنى آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا فإن ايمانكم به لا يزيده كمالا ، وتكذيبكم له لا يورثه نقصا والعلماء الذين قرأوا الكتب السالفة من صالحى أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن تأثروا فخرُوا ساجدين لله رب العالمين .

والمعنى إن لم تؤمنوا به أنتم فقد آمن به من هوخير منكم واعلم ويقول الله - عز وجل - : ﴿ يَتَّابِتْ إِيَّائِي فَدِّجَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٤٣]

وقد كرر النصح باللطف ، ولم يصف اياه بالجهل الشنيع فى عبادته للأصنام وإنما ترفق ، وتلطف به كلامه يعنى جاءت من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لا تعلمه انت فاقبل نصيحتى واطعنى أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك وهودين الله الذى لا عوج فيه .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة الحج: ٥٤]

والمعنى ، وأهل العلم أن القرآن الكريم هو الحق النازل من عند الله تعالى فيؤمنوا بهذا القرآن فتخشع وتسكن له قلوب بخلاف من فى قلبه مرض وإن الله مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ، ومنقذهم من الضلالة والغواية ، وهاديهم إلى طريق الحق ، وهو طريق النجاح فى الدنيا ، والفلاح فى الدار الآخرة وبذلك يكون العالم سعيداً فى دنياه ، فائزاً برضوان الله فى أخراه .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - في فضل العلم والعلماء : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ط
قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ [سورة النمل: ٤٢]

والمعنى : أمثل هذا العرش الذي رأيته عرشك ؟ ولم يقل أهدا عرشك ؟ حتى لا
يكون تلقينا لها ، فقالت كأنه هو أى شبيه له ، ومقارب ، ولم تقل " بلقيس " :

نعم هو، ولا ليس هو. يقول " ابن كثير " : " وهذا غاية في الزكاء والحزم .
وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين هذا من قول سيدنا " سليمان " - عليه
السلام- وقال ذلك تحدياً بنعمة الله : لقد أُوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله ، وبقدرته
وكنا مسلمين لله من قبلها فنحن أسبق منها علماء وإسلاماً .

ويقول الله - عز وجل - : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ
بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ [سورة العنكبوت: ٤٩]

والمعنى : ليس الامر كما حسب الظالمون والمبطلون والمرتابون ، بل هو آيات واضحة
الإعجاز ، ساطعة الدلالة على أنها من عند الله محفوظة في صدور العلماء ، ومن خصائص
القرآن العظيم أن الله حفظه من التبديل والتغيير بطريقتين :

أولاهما : الحفظ في السطور .

ثانيهما : الحفظ في الصدور بخلاف غيره من الكتب فإنها مُسَطَّرَةٌ لديهم غير محفوظة
في صدورهم، ولهذا دخلها التحريف وقد جاء في صفة هذه الأمة " أناجيلهم في صدورهم "

وقال الحسن " أعطيت هذه الأمة الحفظ " وكان من قبلها لا يقرأون كتابهم : لا
نقرأ ، فإذا أطلقوا لم يحفظ ما فيه الا النبيون ، وما يكذب بها إلا المتجاوزون الحد في الكفر
والعناد وهم بذلك ظالمون لأنفسهم .

ويقول " القرطبي " : إتيان التابوت، والتابوت كان من شأنه فيما ذكر أنه أنزله
الله على آدم عليه السلام، فكان عنده إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام، فكان في بنى
إسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتى عصوا فغلبوا على التابوت غلبهم عليه العمالقة:
جالوت وأصحابه في قول السدى، وسلبوا التابوت منهم. وهذا أدل دليل على أن العصيان
سبب الخذلان، وهذا بَيِّنٌ. قال النحاس: والآية في التابوت على ما روى أنه كان يسمع فيه
أنين، فإذا سمعوا ذلك ساروا لحربهم، وإذا هدأ الأنين لم يسيروا ولم يسر التابوت .

وقيل: كانوا يضعونه في مأزق الحرب فلا تزال تغلب حتى عصوا فغلبوا وأخذ منهم التابوت وذل أمرهم، فلما رأوا آية الاصطلام ، وذهاب الذكر، أُنفّ بعضهم وتكلموا في أمرهم حتى اجتمع ملؤهم أن قالوا لنبي الوقت " يعنى الذى كان في زمنهم " .

أبعث لنا ملكا، فلما قال لهم: ملككم طالوت راجعوه فيه كما أخبر الله عنهم، فلما قطعهم بالحجة سألوه البينة على ذلك، فلما سألوها نبينهم البينة على ما قال، دعا ربه فنزل بالقوم الذين أخذوا التابوت داءً بسببه . وهذا هو انتقام الله - سبحانه وتعالى - من العصاة فلا عقوبة إلاّ بذنب ، وكان ما حل بهم جزاءً وفاقا .

وبمضى القرآن الكريم مبيناً فضل العلم والعلماء فيقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَيُرَى الَّذِينَ اتُّوُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سورة سبأ: ٦٠] والمعنى : " ويعلم أولوا العلم من أصحاب النبي - ﷺ - ومن جاء بعدهم من العلماء العالمين الذين يعلمون أن هذا القرآن الذى أنزل عليك يا محمد - ﷺ - هو الحق الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وهو جبل الله المتين من حكم به عدل ومن قال به صدق ، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم . وهو أيضا يرشدنا إلى الحق كما يرشد الذين يتمسكون به إلى طريق الله - سبحانه وتعالى - وهو الطريق الغالب الذى لا يقهر ، وهو الطريق المحمود ، والله - عز وجل - الحميد المحمود فى ذاته وصفاته وأفعاله .

ويبين الله - عز وجل - فى القرآن الكريم درجة العلماء ، كما يبين أقدارهم عند الله - سبحانه وتعالى - فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿.....يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [سورة المجادلة: ١١]

والمعنى : يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامره ، وأوامر رسوله - ﷺ - ، والعلماء منهم خاصة أعلى المراتب ، وبمنحهم أعلى الدرجات الرفيعة فى الجنة . يقول الصحابى الجليل "عبد الله بن مسعود" - رضى الله عنه - : "مدح الله العلماء فى هذه الآية، ثم قال : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم فى العلم فإن الله تعالى يقول : " يرفع الله العالم فوق المؤمن الذى ليس بعالم درجات " .

ويقول الامام الشهيد " سيد قطب " : " والعلم الذى يهذب النفوس ويهذب القلب فيتسع ويطيح ، يؤدىان إلى الرفعة عند الله درجات " (١) .

1- فى ظلال القرآن الكريم ج ٦ ، ص ٣٥١٢ ، بتصريف .

وفي مقابل لرفعة المكان الذي تطوعوا بتركه ورفعوا عنه لاعتبار آراءه الرسول - ﷺ - . " والله بما تعملون خبير "

فإنه يجزى عن علم ومعرفة بحقيقة ما تعملون ، وبما وراءه من شعور مكنون . وهكذا يتولى القرآن تربية النفوس وتهذيبها ، وتعليمها السماحة والطاعة ، فالدين تحول في الشعور ، وحساسية في الضمير .

ويقول " القرطبي " : " بين الله - عز وجل - في هذه الآية ان الرفعة عند الله بالعلم والإيمان ولا بالسبق الى صدور المجالس .

وفي الحديث " فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب " وعنه - ﷺ - يشفع يوم القيامة ثلاثة :

" الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء ، فأعظم بمنزلة هي واسطة بين النبوة والشهادة وذلك بشهادة رسول الله - ﷺ - . والله خير بمن يستحق الفضل والثواب ممن لا يستحقه .

ويقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - : " إن الله تعالى خير بمن يستحق الاحترام والتكريم والتقدير وعلو الشأن والرفعة ، ومن لا يستحق ذلك .

ويروي أن " نافع بن عبد الحارث " - رضى الله عنه - لقي عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمرا استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادي ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبيزي .

قال : وما ابن أبيزي ؟

فقال : رجل من مواليها .

فقال " عمر بن الخطاب " : استخلفت عليهم مولى ؟ .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاض . " يعنى هو قارئ للقرآن الكريم ، وعالم بعلم الميراث وهو المعنى بالفرائض ويحسن القصص في الوعظ والإرشاد ، يعنى يريد أن يقول هو من العلماء " .

فقال عمر ، رضى الله عنه : أما إن نبيكم - ﷺ - قد قال : " إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين " . (١) فالعلم نور ، ونور الله لا يهدى للعصاة :

سألت وجيع سوء حفظ فارشدنى إلى ترك المعاصى

1- رواه مسلم من غير وجه وكتاب " العلم " من صحيح البخارى .

وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي
وسئل "الخليل بن احمد الفراهيدي" : أيهما أفضل العلم أم المال ؟ فقال "الخليل
بن احمد الفراهيدي" : العلم أفضل . قيل له فما بالناس ترى العلماء يزدهمون على أبواب
الملوك ولا ترى الملوك يزدهمون على أبواب العلماء ؟
فقال "الخليل بن أحمد الفراهيدي" : لأن العلماء يعرفون حق الملوك والملوك
يجهلون حق العلماء .
ثم أنشد قائلاً :

العلم يحيى قلوب الميتين كما تحيا البلاد إذا ما مسها المطر
والعلم يجلى سواد القلوب كما يجلى سواد الظلمة القمر (١)

فانظر أيها الأخ المسلم ، والأخت المسلمة كيف حث القرآن الكريم على طلب
العلم؟ وما أعدده الله من جزاء في الدار الآخرة للعلماء ، وتكريم في الدنيا بأعلى المراتب
وأشرف المناصب فالعلم سعادة في الدنيا ، وسعادة في الآخرة وشرف وتكريم عند الله
ورسوله وعند الناس وصدق الله تعالى اذ يقول : ﴿... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ...﴾ [سورة الزمر: ٩] ويمضي القرآن الكريم مبيناً كرامة العلماء ، ومقدارهم لدى
خالقهم فيقول - سبحانه وتعالى - ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
غَفُورٌ﴾ [سورة فاطر: ٢٨] والمعنى : إنما يخشاه - سبحانه وتعالى - العلماء ، وما ذلك
إلا لأنهم عرفوه حق المعرفة فعبده ، ووحدوه ، ورضوا به ربا ، وبمحمد - ﷺ - نبيناً
ورسولاً .

يقول "ابن كثير" : "إنما حق خشية العلماء العارفون به ، فكل من عرف الله فهو عالم
فكلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم ، والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر " .
هذه مكانه العلم والعلماء عند الله - سبحانه وتعالى - ولذلك عنى القرآن الكريم
بالأخلاق ، وبين أنه لا يعقلها الا العالمون ، لذلك عندما كان العرب الحيلة يطوفون بالبيت
عراة ، ويحرمون على أنفسهم ما أحله الله من الطيبات ، ومن التجميل بالثياب التي
خلقها الله لهم للنفع والزينة ، والطيبات من المأكول والمشرب بين الله تعالى أنه لا يفقه ذلك
الا من خصهم الله بالعلم ، وكرمهم بالفقه ، وهذبهم بالتعليم .

1- مجافى الأدب في حدائق العرب ، للأب لويس شيخو عوض .

فقال - عز من قائل -: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٣٢].

فهذه الطيبات للمؤمنين ، وإن شاركهم فيها الكافرون في الحياة الدنيا ولكنها ستكون خالصة وخاصة بهم يوم القيامة لا يشاركون فيها أحد .

والسر في ذلك أن الله حرم المحبة على الكافرين فهي خاصة بالمؤمنين فحسب . وكذلك تدين وتوضح الآيات التشريعية لقوم يتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه ، وفي هذا تكريم للعلماء ، وإعلاء لأقدارهم حيث خصهم الله - عز وجل - بفهم شريعته ، وأسرار كتابه الكريم وهو القرآن العظيم .

وفى تكريمه وأفضلية العلم يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١١) وَإِنْ تَكْفُرُوا أَتَيْنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا أَيَّمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُرُونَ ﴾ (١٢) [سورة التوبة: ١١: ١٢] والمعنى : أن الله - عز وجل - خص العلماء وهم أهل الفقه والفهم بآيات كثيرة في كتابه الحكيم مبيناً أن العلماء هم المقصودون بهذا الخطاب لأنهم أهل له ولفهم غايته والحكمة منه ، فقال تعالى يبين الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم: " ... وَنَفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ... "

وهذا البيان هو " فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة يعنى أعطوها فهم إخوانكم في الدين ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم .

وخص العلماء بفهم هذه الأمور ، وفقه تلك القضايا . وفي الآية الآتية ينبه الله تعالى على دلائل قدرته ، ووحدايته ، وهو بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهاج ، كما جعل القمر منيراً بالليل ، وهذا من كمال رحمته بالعباد ، ولما كانت الشمس أعظم جرماً خضت بالضياء ، لأنه هو الذى له سطوع ولعان .

يقول " الطبى " :- " والمعنى : " أضاء الشمس ، وأنار القمر ، وقد سيره في منازل وهى " البروج " ذلك لتعلموا أيها الناس حساب الأوقات ، فبالشمس تعرف الأيام ويسير القمر تعرف الشهور والاعوام ، وما خلق الله ذلك عبثاً ، بل لحكمة عظيمة وفائدة جلييلة ، وذلك ليبين الآيات الكونية ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله ويتدبرون حكمته .

ويقول " ابوالسعود " : يعنى " يعلمون الحكمة في إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على شئونها مبعثها جل وعلا .

ويقول " صاحب اللطائف": أنوار العقول نجوم ، وهى للشياطين رجوم وللعلوم أقمار، وهى أنوار واستبصار ، وللمعارف شمس، ولها على أسرار العارفين طلوع كما قيل: -
 إن شمس النهار تغرب بالليل
 وشمس القلوب ليست تغيب
 وكما أن في السماء كوكبين ، شمساً ، وقمرأً أبداً بضياؤها ، والقمر في الزيادة والنقصان يستربحاه ، ثم يكمل حتى يصير بدراً ثم يعود جديداً .
 وكل ليلة يجد مزيداً ، فإذا صار بدراً تماماً ، ولم يجد أكثر من ليلة لكمالها مقاماً ، ثم يأخذون في النقصان إلى أن يخفى شخصه ، ويتم نقصه . كذلك من الناس من هو مترددين قبضه وبسطه ، وصحوه ومحوه ، وإيابه ، لا فناء فيستريح ، ولا بقاء له دوام صحيح .
 وقيل :

كلما قلت قد دنال قيدي كبلوني فأوتقوا المسمارا

ويقول " ابن كثير " فى معنى هذه الآية :- " يخبرنا تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نوراً ، هذا فن ، وهذا فن آخر ففاوت بينهما لئلا يشتبها . وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل وقدر القمر منازل فأول ما يبدو صغيراً ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر كقوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [سورة يس: ٣٩: ٤٠] وقوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [سورة الرحمن: ٥] وقوله في هذه الآية الكريمة : { وَقَدَرَهُ } أي القمر { مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام . ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [سورة يونس: ٥] أي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة .

كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [سورة ص: ٢٧] وقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون] ﴿ [سورة الأنعام: ١١٦: ١١٥] وقوله : ﴿ نَفْصِلُ الْآيَاتِ ﴾ [سورة الأنعام: ٥٥]

أي نبيين الحجج والأدلة ونوضح الآيات لقوم يعلمون، يعنى أهل العلم والإيمان (١) .
بعد أن حكى الله سبحانه أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة، وتنادوا في الغى والضلالة ، ومن هذه حاله فليس بالعسير عليه أن يقدم على إيذاء المؤمنين بألوان من الإيذاء حتى يضطروهم إلى الهجرة عن الديار ، ومفارقة الأهل والأوطان ، ذكرهنا حكم تلك الهجرة ، وبين ما لهؤلاء المهاجرين من حسنات في الدنيا وأجر في الآخرة ، من جزاء أنهم فارقوا أوطانهم ، وصبروا وتوكلوا على الله .

وفي هذا ترغيب لغيرهم في الهجرة واحتمال كل أذى في سبيل الله احتساباً للأجر.
فعن قتادة- رضى الله عنه - قال : هؤلاء هم أصحاب محمد- ﷺ - ، ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم ، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ، ثم بوأهم الله المؤمنين ، فقال- سبحانه وتعالى :- ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤْتَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۗ وَلَا جَزَاءَ لَآخِرَةٍ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ [سورة النحل: ٤١]

والمعنى: والذين فارقوا قومهم ودورهم ، وأوطانهم ، وذهبوا إلى بلاد أخرى احتساباً لأجر الله ونيلاً لمرضاته من بعد ما نالهم من الكفار من أذى في أنفسهم وأموالهم لنسكنهم في الدنيا مساكن حسنة يرضونها ، إذ هم لما تركوا مساكنهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله عوضهم الله خيراً منها في الدنيا ، فمكّن لهم في البلاد ، وحكمهم فى رقاب العباد ، وصاروا أمراء وحكاماً ، وكان من منهم للمتقين إماماً .

ثم ترى أن الله - سبحانه وتعالى - يخبر أن ثوابهم في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال تعالى: ﴿..... وَلَا جَزَاءَ لَآخِرَةٍ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾
حيث إن ثوابهم في الآخرة " الجنة " التى لا يغنى نعيمها ، ولا يزول خيرها .

- 1- تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٤٠٧ وأيضاً ج ٤ ، ص ٣٢٦ .
- ◆ مجافى الأدب فى حدائق العرب ، للأب لويس شيخو عوض .
- ◆ تفسير ابو السعود ج ٤ ، ص ٣١٠ .
- ◆ البحر المحيط ج ٤ ، ص ٢٩٢ .
- ◆ تفسير الطبرى ج ١١ ، ص ٨٦ .
- ◆ صفوة التفاسير ج ١ ، ص ٤٤٤ .
- ◆ مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٢١٢ .
- ◆ فى ظلال القرآن الكريم للامام الشهيد سيد قطب ج ٦ ، ص ٢٥١٢ بتصرف .
- ◆ تفسير القرطبي ج ١٧ ، ص ٣٠٠ .
- ◆ تفسير الالوسى ج ٢٨ ، ص ٣٠ .
- ◆ لطائف الاشارات للامام القشيري ج ٢ ، ص ٧٩ - ٨٠ .

فيروى عن " عمر بن الخطاب " -رضى الله عنه- أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءً يقول له : " خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما نذره لك في الآخرة أفضل ثم تلا هذه الآية " ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَمَرُوا لِنَفْسِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النحل: ٤١]

وهؤلاء هم الذين صبروا على ما نالهم من أذى قومهم ، ولم يرجعوا القهقري وعلى مفارقة الوطن المحبوب ، وعلى احتمال الغربة بين ناس لم تجمعهم بهم ألفة نسب ولا جوار في دار ، وقد فوضوا أمرهم إلى ربهم الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ، وأعرضوا عن كل ما سواه .

ويقول " ابن كثير " : " يخبرنا تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيل ابتغاء مرضاته وهم الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان ، رجاء ثواب الله وجزائه . ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجري الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بركة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم سيدنا " عثمان بن عفان " ومعه رقية بنت رسول الله - ﷺ - . وقد قيل فيهم أحسن شخصين رأى إنسان " رقية وبعلمها عثمان وجعفر بن ابى طالب عم الرسول - عليه الصلاة والسلام ، وأبوسلمة بن عبد الأسود -رضى الله عنهم أجمعين- في جماعة قريب من ثمانية ، ما بين رجل وأمرأة صديق وصديقة . فوعد الله - سبحانه وتعالى - بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال - سبحانه وتعالى - ﴿لِنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ [سورة النحل: ٤١]

يقول " ابن عباس -رضى الله عنهما - والشعبي وقتادة وهى " المدينة وقيل هو" الرزق الطيب " ولا منافاة بين القولين فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم ، فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا ، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه ، وكذلك وقع ، فقد مكن الله لهم في البلاد ، وحكمهم في رقاب العباد ، وصاروا أمراء وحكاما .

وكل منهم للمتقين إماماً ، وأخبرنا تعالى أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا ولأجر الآخرة أكبر مما أعطيناهم في الدنيا لو كانوا يعلمون ، يعنى لو كان المتخلفون عن الهجرة منهم يعلمون ما أدخر الله لمن أطاعه ، وأتبع رسوله - ﷺ - ثم وصفهم الله تعالى فقال " الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون " يعنى صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله - سبحانه وتعالى - الذى أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

ونرى الله - عزوجل - يقول : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النحل: ٤١]

وهنا يبين المولى - سبحانه - أفضلية العلماء ، فالعلماء يعرفون بلا ريب ربهم حق المعرفة ويؤمنون بما أعدّه الله من الأجر الجزيل ، والثواب العظيم لمن هاجر في سبيل الله ويعمل في الله ولله .

فهنا يبين - سبحانه وتعالى - أقدار العلماء ، وما وهبه الله لهم من علم ومعرفة وبصر بالأمر ، ولذلك قال تعالى " لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " فالعلم نور للبصيرة والبصر ، وبه يدرك المسلم أين يكون الخير وما الشيء الذي يصلح حاله في دنياه وأخراه .

ويقول " القرطبي " هم " صهيب " و " بلال " و " خباب " و " عمار " - رضى الله عنهم - والصواب والراجع أن المقصود بالآية جميع المهاجرين في سبيل الله تعالى (١) .

إن التعليم والتعلم روح الإسلام ، لا بقاء لجوهره ، ولا كفالة لمستقبله إلا بهما ، والناس في نظر الإسلام أحد رجلين : إما متعلم يطلب الرشد ، وإما عالم يطلب المزيد من العلم وليس بعد ذلك من يؤبه له .

وقال رسول الله - ﷺ - " العالم والمتعلم شريكان في الخير ، ولا خير في سائر الناس " (٢)

ويمضى القرآن الكريم في الحديث عن العلم فيقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَتَلَّكَ مِوْثِقَهُمْ خَاوِيَةً يُبَاطِلُوهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النمل: ٥٢]

يعنى فتلك بيوتهم خاوية ، ومسكنهم خالية ودورهم خربة وذلك الخراب والدمار بسبب ظلمهم وكفرهم ، فلذلك أهلكهم الله - سبحانه وتعالى - ، وخرّب دورهم ومسكنهم إن في هذا الخراب والدمار لمسكنهم عبرة وعظة لقوم يعلمون قدرة خالقهم ، وتديبر ربهم فيتعظون بذلك ، ويقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - " فَتَلَّكَ مِوْثِقَهُمْ خَاوِيَةً يُبَاطِلُوهَا " يعنى : فارغة ليس فيها أحد وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون . ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " في ظلاله : " ومن لمحة إلى لمحة إذا التدمير والهلاك ، وإذا الدور الخالية والبيوت الخالية ، وقبل كانوا منذ لحظة واحدة في الآية السابقة من السورة يدبرون ويمكرون ، ويحسبون أنهم قادرون على تحقيق ما يمكرون ، وهذه السرعة في عرض هذه الصفحة بعد هذه مقصودة في السياق ، لتظهر المباغته الحاسمة القاضية ، وهى

1 - تفسير القرطبي ، ج ١٠ ، ص ١٠٧ .

□ تفسير ابن كثير ج ٢ ، ص ٥٧٠ .

□ تفسير المراعى ج ٥ ، ص ٨٥ - ٨٦ .

٢ - رواية ابن ماجة .

مباغطة القدرة التي لا تغلب للمخدوعين بقوتهم ، ومباغطة التدبير الذي لا يخيب للماكرين المستنرين بمكرهم .

"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" والعلم هو الذي عليه التركيز في السورة وتعقيباتها على القصص والأحداث ، وبعد مشهد المباغطة يجيء ذكر نجاة المؤمنين الذين يخافون الله ويتقونه . ﴿ وَنَحْنُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكُنُوزُنَا يُقُونَ ﴾ [سورة فُصِّلَتْ: ١٨] والذي يخاف الله يقيه- سبحانه وتعالى- من المخاوف فلا يجمع عليه خوفين كما جاء في الحديث القدسي (١) .

وبالنظر إلى المعنى : إن بيوتهم خربة بظلمهم ، ووقع منهم الظلم لجهلهم فلو كانوا يعلمون بعاقبتهم ما فكروا في الظلم ولكن الله أعمى أبصارهم ، وختم على قلوبهم ، فلم يفتنوا إلى ما يكون في صالحهم في الدنيا والآخرة ، إن هؤلاء اغتروا بأنفسهم ، وجبروتهم وأموالهم ، وسلطانهم ، ومناصبهم فظلموا فكان عقابهم أن خرب الله بيوتهم بظلمهم ، وجعلها خاوية على عروشها ، وأصبحوا عبرةً ، وعظةً لمن كان على علم ، وفقه ، وفطانه ، ولذلك كانوا آية للعلماء الذين يخشون ربهم بالغيب . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

ويبين الله- عز وجل- أيضاً قدر العلم ، وقيمة العلماء في فهم ما يكون سبباً في سعادتهم في الدنيا والآخرة فيقول معقباً على القصص القرآني الذي تمثلت فيه ألوان الفتن ، ومن الصعاب والعقبات في طريق الدعوة ففي قصة نوح- عليه السلام- تتمثل في ضخامة الجهد المبذول ، وضآلة الحصيصة حيث لبث في قومه- عليه السلام- ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ولم يؤمن به إلا القليل " فأخذهم الطوفان وهم ظالمون " .

وفي قصة سيدنا : ابراهيم - عليه السلام - يتبدى سوء الجزاء بالحجة والمنطق ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا " أقتلوه أو أحرقوه " وفي قصة " لوط - عليه السلام- يتبدى تبجح الرزيلة وإعلانها جهاراً نهاراً ، وبدت واضحة كالشمس في رابعة النهار ، وسقورها بلا حرج ، ولا استحياء ، وأنحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف ، والشذوذ مع الاستهتار بالندير .

1- صفوة التفاسير للصابوني ج ٢ ، ص ٤١٣ .

□ زاد المسير .

□ البحر المحيط ج ٧ ، ص ٨٥ .

□ في ظلال القرآن الكريم للشيخ سيد قطب ج ٥ ، ص ٢٦٤٦ .

□ تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٩]

وفي قصة سيدنا " شعيب " - عليه السلام - مع مدين يتبدى الفساد والتمرد على الحق والعدل ، والتكذيب " فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين " وتذكر الإشارة إلى " عاد وثمود " بالاعتزاز بالقوة ، والبطر بالنعمة ، كما تذكر الإشارة إلى " قارون " و " فرعون " و " هامان " بطغيان المال ، واستبداد الحكم ، وتمرد النفاق ويغيب على هذا القصص بمثل يضربه لهو أن القوة المرصودة في طريق دعوة الله ، وهي مهما تمكنت ، واستطالت .

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) [سورة العنكبوت: ٤١]

ويقول " ابن كثير " : في هذه الآية " هذا مثل ضربه الله - سبحانه وتعالى - للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ، ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجزى عنه شيئاً . فلو أنهم علموا بهذا الحال ، ما أخذوا من دون الله اولياء .

هذا بخلاف المسلم المؤمن من قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباعه لشرع الله - عز وجل - والتمسك بسنة رسوله - ﷺ - . وفي ذلك التمسك يكون قد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

وذلك لقوتها ومتانتها ، وتماسكها ، وقوة نسيجها ، ثم قال - سبحانه وتعالى - متوعداً لمن عبدَ غيره ، وأشرك به ، إنه - سبحانه وتعالى - يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم .

ثم - قال تعالى - ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣] . يعنى : وما يفهمها ، ويتدبرها الا الراسخون في العلم ، والمتذللون منه . وعن سيدنا " عمرو بن العاص " - رضى الله عنه - قال : عقلت عن رسول الله - ﷺ - .

" ألف مثل " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعلمها إلا العالمون وعن " عمرو بن مرة " - رضى الله عنه - قال " ما مررت بآيه من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتنى لأنى سمعت الله تعالى يقول : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣] .

فإن مثل الذين اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها في اعتمادهم عليها ورجائهم نفعها كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً لا يغنى عنها في حر، ولا برد ولا مطر، ولا أذى .

يقول " القرطبي " -رحمه الله تعالى-؛ " هذا مثل ضربه الله - سبحانه وتعالى- لمن أتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره كما أن بيت العنكبوت لا يقبها حراً ولا برداً ، وإن أضعف البيوت لبيت العنكبوت ، لتفاهته وحقارته، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ما عبدوها . بل كانوا يفكرون تفكيراً سليماً ليعلموا أن هذه المعبودات لا تغنى عنهم من الله شيئاً ، ولفكروا فيما ينفعهم في الدنيا والآخرة ، ولو أن هؤلاء استغلوا نعمة العقل التي أنعمها الله عليهم واستغلوها في فهم الحقيقة لعبود الله- سبحانه وتعالى- ، ووجوده ، وما أشركوا به شيئاً ، فإن العقل نعمة كبيرة أنعم الله بها على الإنسان فالعلماء الذين يتدعون، وابتكرون ، ويخترعون السفن الفضائية والصواريخ العابرة للقارات ، والقنابل النووية والأسلحة الفتاكة ، والمخترعات العلمية الأخرى التي يعج بها العالم الآن وأصبحت ملء السمع والبصر .

إنهم علماء ويملكون عقولاً فذة ، وانهم لمحاسبون عليها في الدار الآخرة يوم الحساب والوقوف بين يدي الله - سبحانه وتعالى- لأنهم لو استغلوا هذه العقول صاحبة الابتكارات العلمية ، والمخترعات النووية لهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط العزيز الحميد ، وعرفوا أن لهذا الكون خالقاً هو: الله - سبحانه وتعالى - الذي خلقهم ، ومن العدم أوجدهم ، وللعلوم سخرهم وهداهم إلى العلم والاختراع .
فلوأنهم فكروا قليلاً بما منحه الله لهم من مواهب العلم والفكر لهدوا إلى أنه هو الله، وأن محمداً عبده ورسوله ومصطفاه .

ولذلك قال تعالى : ﴿.....لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.....﴾ [سورة سبأ: ١٤]، لكنهم لم يعلموا لأن على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة^(١) .

1- تفسير القرطبي ج ١٣ ، ص ٣٤٥ .

□ تفسير الطبري ج ٢٠ ، ص ٩٦ .

□ تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٤١٣ - ٤١٤ .

□ في ظلال القرآن الكريم للإمام سيد قطب ج ٥ ، ص ٢٧٢٦ وما بعدها بتصرف .

□ مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٣٧ .

وفي الآية القرآنية الآتية صورة مشرقة ، فالقنوت والطاعة ، والتوجه وهو ساجد قائم، وهذه الحساسية المرهفة وهو يَحْذَرُ الآخرة ، ويرجو رحمة ربه وهذا الصفاء ، وتلك الشفافية التي تفتح البصيرة ، وتمنح القلب نعمة الرؤية والاتقاط والتلقى .

هذه كلها ترسم صورة مشرقة مضيئة من البشر ، مقابل تلك الصورة النكدة المطموسة التي رسمتها الآية السابقة على هذه الآية التي نحن بصدد شرحها وسير أنوارها، وخبر أسرارها فلا جرم يعتقد هذه الموازنة .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيئٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ [سورة الزمر: ٩] . فالعلم الحق هو " المعرفة " وإدراك الحق ، وهو أيضا : تفتح البصيرة والاتصال بالحقائق الثابتة في هذا الوجود ، وليس العلم هو المعلومات المفردة المفردة التي تزحم الذهن ، ولا تؤدي إلى حقائق الكون الكبرى ، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقي ، والمعرفة المستنيرة ، هذا هو القنوت لله وحساسية القلب ، واستشعار الحذر من الآخرة ، والتطلع إلى رحمة الله وفضله ، ومراقبة الله .

هذا هو الطريق ، ومن ثم يدرك اللب ويعرف ، وينتفع بما يرى ، وما يسمع وما يجرب ، وينتهي إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة ، فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة ، والمشاهدات الظاهرة ، فهم جامعو معلومات ، وليسوا بالعلماء . وهذا هو معنى قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ وإنما يعرف أصحاب القلوب الواعية المتفتحة المدركة لما وراء الظواهر من حقائق المنتفعة بما ترى وتعلم ، التي تذكر الله في كل شيء تراه وتلمسه ولا تنساه ، ولا تنسى يوم لقاها .

ويقول المفسرون في الآية لإستفهام حُذِفَ جوابه لدلالة الكلام عليه أى أم من هومطيع عابد في ساعات الليل يتعبد ربه في صلواته ساجداً ، وقائماً كمن أشرك بالله ، وجعل له أندادا ؟ .

يقول " القرطبي " بين الله تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى ذكره حال كونه خائفاً من عذاب الآخرة .

راجياً رحمة ربه وهى الجنة ، هل يستوى هذا المؤمن التقى مع ذلك الكافر الفاجر ؟ لا يستوون عند الله ، ثم ضرب مثلا فقال سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ

وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟ " يعني : هل يستوى أويتساوى العالم والجاهل ؟ فكما لا يستوى هذان كذلك لا يستوى المطيع والعاصي ، إنما يعتبر ويذكر ويتعظ أصحاب العقول السليمة .
يقول الإمام " الفخر الرازي " : " واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها : أنه بدأ فيها بذكر العمل ، وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فهو " القنوت " ، و" السجود " و" القيام " وأما العلم ففي قوله - سبحانه وتعالى - : " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟ " .

وهذا يدل على أن كمال الانسان محصور في هذين المقصودين فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هي النهاية . وفي وفي الكلام حذف وتقديره .
أمن هو قانت كغيره؟ . وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية " الكافر " ثم مثل بالذين يعلمون ، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم . أجل إن العلم له أفضلية على كل شيء فليس العالم كالجاهل ، وليس من يعرف كمن لا يعرف وليس من يفطن ، كمن لا يفطن .

وليس من يفقه كمن لا يفقه فمما لا ريب فيه أن العلماء أفضل من الجهلاء وصدق الإمام " على بن ابي طالب -"رضى الله عنه- حين قال : " والجاهلون لأهل العلم أعداء . (١)

إن القرآن الكريم ، كتاب الله وبيانه ، ووحيه وتنزيله ، وهدهد وسبيله به قصم الله ظهر كل شيطان مريد ، أذل به كل جبار عنيد ، وهوالذي أحنى رأس " الوليد " ، وآلان قلب " عمر " ، هوالذي سمعته الجن فتتهف قائلة : ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ ۝٢ هَدَىٰ إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٣ ۝٤ وَأَنَّهُ تَعَلَّىٰ جَدًّا رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صُحْبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٥ ﴾ [سورة الجن : ١ : ٣]

ربوا الشباب على الفضائل والتقوى لا تتركوه فريسة الشيطان

١ - تفسير ابوالسعود ج ٤ ، ص ٢ - ٣ .

□ تفسير القرطبي ج ١٢ ، ص ٢٣٨ ، ص ٢٤٢ .

□ حاشية زادة على البيضاوى ج ٣ ، ص ١٩٤ .

□ التفسير الكبير ج ٢٦ ، ص ٢٥٠ .

□ التسهيل لعلم التنزيل ج ٣ ، ص ١٩٢ .

□ حاشية الصاوى ج ٣ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

□ مختصر ابن كثير ج ٣ ، ص ٢١٥ .

□ في ظلال القرآن الكريم للإمام سيد قطب ج ٥ ، ص ٣٠٤٢ بتصرف .

وخذوه بالقرآن يحفظ نفسه فالخير كل لاخير فى القرآن
 ويقول الله- عز وجل- فى تبيان فضل العلماء: ﴿ كَذَّبُ قُضِلَتْ ءَايَتُهُ، قُرْءَانَا عَرَبِيًّا
 لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة قُضِلَتْ: ٤: ٥]
 فهو التفصيل المحكم، وفق الأعراض والأهداف، ووفق أنواع الطبائع والعقول،
 ووفق البيئات والعصور، ووفق الحالات النفسية، وحاجاتها المتنوعة. التفصيل المحكم
 وفق هذه الاعتبارات سمة واضحة فى هذا الكتاب، وقد قُضِلَتْ هذه الآيات وفق تلك
 الاعتبارت، فصلت قرآنا عربياً لقوم يعقلون، يعنى لديهم الاستعداد للعلم والمعرفة، والتمييز.
 ويقول " ابن كثير " - رحمه الله - كتاب فصلت آياته يعنى بينت معانية
 وأحكمت أحكامه فى حال كونه قرآناً عربياً بيناً واضحاً. فمعانيه مفصلة وألفاظه
 واضحة غير مشكلة كقوله تعالى: " كَذَّبُ قُضِلَتْ ءَايَتُهُ، قُرْءَانَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ". يعنى
 وهو معجز من حيث لفظه ومعناه .

قال تعالى: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾
 [سورة قُضِلَتْ: ٤٢] وقوله تعالى " لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ "
 يعنى إنما يعرف هذا البيان والوضوح " العلماء الراسخون فى العلم " وهو كتاب
 جامع للمصالح الدينية والدينية بينت معانيه، ووضحت أحكامه بطريق القصص
 والمواظ، والأحكام، والامثال فى غاية البيان والكمال، وفى حال كونه قرآناً عربياً غير ذى
 عوج اضحاً جلياً نزل بلسان العرب لقوم يفهمون تفاصيل آياته ودلائل اعجازه، فانه فى
 أعلى طبقات البلاغة، ولا تنبرق أسراره إلا لمن كان عالماً بلغه العرب .

ويقول الامام " الفخر الرازى " : " والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج اليه المرضى
 من الأدوية، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية، فكان أعظم نعمة عند الله
 تعالى على أهل هذا العالم، إنزال القرآن الكريم عليهم وسمى " كتابا " لأنه جمع فيه علوم
 الأولين والآخرين، وقد فرق آياته، وجعلت تفاصيل فى معان مختلفه فبعضها
 فى وصف ذات الله تعالى، وشرح صفات التنزيه والتقديس، وشرح كمال علمه وقدرته
 ورحمته وحكمته، وعجائب أحوال خلقه :

السموات، والأرض، والكواكب، وتعاقب الليل والنهار، وعجائب أحوال النبات،
 والحيوان، والإنسان وبعضها فى أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلوب، ونحو الجوارح
 وبعضها فى الوعد، والوعيد، والثواب والعقاب ودرجات أهل الجنة، ودرجات أهل النار،

ويعقبها في المواعظ والنصائح وبعضها في تهذيب الأخلاق ، ورياضة النفس ، وبعضها في قصص الأولين وتواريخ الماضين .

وبالجمله فمن أنصف علم أنه ليس في يد الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة ، والمباحث المتباينة مثل ما في القرآن الكريم .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة يوسف: ٢]

يعنى : نزل بلغة العرب ولسانهم ، ويؤكد هذا المعنى قوله - سبحانه وتعالى - :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة إبراهيم: ٤]

ويعنى باللسان اللغة والمعنى وما أرسلنا من رسول إلا بلغة قومه ، ليسهل عليه دعوتهم ، وشرح التوحيد لهم والتفاهم معهم بلسانهم ولغتهم ، وجعلناه قرآناً عربياً لأننا أنزلناه على قوم عرب ، فجعلناه بلغة العرب ليفهموا المراد منه وهو تنزيل من الله لأجلهم وكذلك فصلت آياته لأجلهم فالقرآن الكريم لا يفقهه ويعرف معانيه ، ويتدبر آياته إلا العلماء الذين بوسعهم فهم مراحجه ، وأهدافه وما يتغياها كتاب الله . (١)

ويبين الله - عز وجل - فضل العلماء ، وكرامتهم عند الله وعند الناس والذين يقدرون العلم ، ويحترمون ذويه ، فبين الله - عز وجل - فضل العلم على غيره فلا يستوى من يعلم من الناس ومن لا يعلم .

إن الذى أنزل إليك يا محمد من ربك وهو القرآن وهو الكتاب الحق الذى لا ريب فيه، ولا مرية ولا لبس ولا اختلاف فيه بل هو كله حق يصدق بعضه بعضا لا يضاد شيء منه شيئا آخر فأخباره كلها حق ، وأمره ونواهيه عدل يقول تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة الأنعام: ١١٥]

يعنى صدقاً في الأخبار ، وعدلاً فى الطلب فلا يستوى من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ، ومن هو أعمى لا يهتدى إلى الخير لا يفهمه ، ولوفهمه ما إنقاد له ولا صدقه ولا اتبعه .

1 - تفسير الرطبي ج ١٥ ، ٣٤١ .

□ البحر المحيط ج ٧ ، ص ٤٨١ .

□ صفة التفاسير ج ٣ ، ص ١١٥ .

□ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ، ص ٩٠ .

□ فى ظلال القرآن الكريم ، للامام سيد قطب ج ٥ ، ص ٣١٠٨ .

□ مفاتيح الغيب ج ١٣ ، ص ٥٩١ - ٥٩٢ .

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [سورة الحشر: ٢٠] ويقول الله تعالى هنا :- ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَنْذُرُ

أُولَٰئِكَ الْآلِئِبِ ﴿١٩﴾ [سورة الرعد: ١٩]

أى أفهكذا كهذا ؟ لا يستوون ، إنما يتعظ بذلك ويعتبر ، ويعقل أولوا العقول السليمة ، الصحيحة ندعوا الله - عز وجل - أن يجعلنا منهم فلا يستوى من يعلم والذي لا يعلم أن الذى أنزله الله عليك هو الحق الذى لا ريب فيه والذي لا يعلم ذلك فهو أعمى عن الحق ، لا يهتدى إلى الخير يفهم ولو يسير له الفهم ما آمن ، وما اهتدى ، وما صدق ، وما اطاع فيظل مشهودها في ظلمات الجهل ، وغياهب الضلالة .

يقول " قتادة " - رضى الله عنه - هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله ، وعقلوه ، ووعوه ، وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق فلا يبصره ولا يعقله ، إنما يتذكر أولوا الألباب ، يعنى إنما يعتبر بهذه الأمثال ، ويتعظ بها ، ويسير أعوارها ويخبر أسرارها إلا أولوا العقول السليمة والأفكار الرجيحة .

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " في معنى الآية : ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَنْذُرُ أُولَٰئِكَ الْآلِئِبِ ﴿١٩﴾ [سورة الرعد: ١٩]

إن المقابل لمن يعلم أن أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من يعلم هذا إنما المقابل هو الأعمى ، وهو أسلوب عجيب فى لمس القلوب ، وتجسيم الفروق . وهو الحق فى الوقت ذاته ، لا مبالغة فيه ولا زيادة ، ولا تحريف .

فالعمى وحده هو الذى ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التى لا تختفى إلا على أعمى والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان :

مبصرون فهم يعلمون ، وعمى فهم لا يعلمون ، والعمى عمى البصيرة وانطماس المدارك ، وأستغلاق القلوب ، وانطفاء قبس المعرفة فى الأرواح وانفصالها عن مصدر الاشعاع .

" إِنَّمَا يَنْذُرُ أُولَٰئِكَ الْآلِئِبِ " وهم الذين لهم عقول وقلوب مدرکه تذكر بالحق فتتذكر ، وتتنبه إلى دلائله فتتفكر ، وهذه صفات أولى الألباب ، هؤلاء الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، وهو عهد مطلق يشمل كل عهد وميثاق مطلق ينتظم به كل ميثاق ، والعهد الأكبر هو عهد الإيمان ، والميثاق الأكبر هو الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان .

والاستفهام في قوله تعالى " أفمن يعلم " أستفهام أنكارى توبيخى يعنى هل يستوى من آمن وصدق بما نزل عليك يا محمد بمن بقى يتخبط في ظلمات الجهل السعدى

لا عقل له كالأعمى ، يقول " ابن عباس " - رضى الله عنهما - : " نزلت هذه الآية في " حمزة وأبى جهل " ، إنما يتعظ بآيات الله ، ويعتبر بها ذو العقول السليمة والألباب الراجحة ، والبصائر المستنيرة ، وهنا يُبيّن القرآن الكريم فضل العالم على غيره من الذين يتمتعون بالجهالة الجهلاء والأمية النكراء .

والعالم بصير بالأمر يملك حساً مرهفاً وقلباً واعياً ، ولساناً ذاكراً ، فلا يستوى بمن أعمى عن الهدى والذي يرتع في ظلمات الجهل والكفر. (١)

ومن الآيات القرآنية الكريمة التي تحت على العلم قول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ [سورة الكهف: ٦٥] والمعنى : وجد " الخضر " - عليه السلام - عند الصخرة التي فقد عندها الحوت وفي الحديث أن " موسى " وجد " الخضر " مسجى بثوبه مستلقيا على الأرض فقال له : " السلام عليك " ، فرفع رأسه وقال له : " وأنى بأردك السلام ؟ . والخضر ليس نبياً وإنما هو من عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين ، وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات والأمر الغيبية تعليماً للخلق " فضل العبودية " وقد وهبناه نعمة عظيمة ، وفضلاً كبيراً ، وهى الكرامات التي أظهرها الله على يديه .

وعلمناه من لدنا علماً خاصاً بنا لا يعلم الا بتوفيقنا وهو علم الغيوب قول العلماء : " هذا العلم الربانى ثمرة الاخلاص والتقوى ويسمى " العلم اللدنى " يورثه الله لمن أخلص العبودية له ، ولا ينال بالكسب والمشقة ، وإنما هو هبة الرحمن لمن خصه الله بالقرب ، والولاية ، والكرامة .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۖ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۗ ﴾ [سورة الكهف: ٦٦: ٦٧]

والمعنى : " هل تأذن لى في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدنى في حياتى ؟ وهذه مخاطبة فيها ملاحظة ، وتواضع من نبي الله الكريم - ﷺ - وكذلك ينبغى أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه .

1 - تفسير المراغى ج ٥ ، ص ٩١-٩٢ .

□ تفسير ابن كثير ج ٥ ، ص ٥٠٩ .
□ فى ظلال القرآن ج ٤ ، ص ٢٠٥٩ .
□ الطبرى ج ١٣ ، ص ١٣٤ .
□ صفوة التفاسير ج ٢ ، ص ٨٠ .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٤] والمعنى جل الله - سبحانه وتعالى - وتقدس الملك الحق الذى قهر سلطانه كل جبار عما يصفه به المشركون من خلقه ، وإذا أقرأك جبريل القرآن فلا تعجل معه ، بل استمع إليه ، واصبر حتى يفرغ من تلاوته ، وحينئذ نقرأ أنت .
يقول " ابن عباس " - رضى الله عنهما - :

" كان - عليه السلام - يعاد " جبريل " فيقرأ قبل أن يفرغ " جبريل " من الوحي ، حرصاً على حفظ القرآن ، ومخافة النسيان ، فنهاه الله عن ذلك ، يقول " القرطبي " : وهذا مثل قوله تعالى: - " لا تحرك به لسانه لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه " والمعنى لا تتعجل بالقراءة يا محمد - ﷺ - قبل فراغ " جبريل " من قراءته فعلينا جمع القرآن في صدرك ، ثم علينا بيانه وتفسيره .
" وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا " .

يعنى سل الله - عز وجل - زيادة العلم النافع .
يقول " الطبرى " أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم . ويقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٠] . والمعنى : علمنا " داود " - عليه السلام - صنع الدروع وكان ذلك بالإينة الحديد له يقول " قتادة " - رضى الله عنه - : " أول من صنع الدروع " داود " - عليه السلام - وكانت صفائح ، فهو أول من سردها وجعلتها لتقييمكم في القتال شر الأعداء ، ثم قال تعالى ﴿... فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [٨٠] وهو استفهام يراد به " الأمر " يعنى أشكروا الله على ما انعم به عليكم .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ [سورة الفرقان: ٥٩] والمعنى : إن هذا الإله العظيم الذى ينبغى أن تتوكل عليه هو القادر على كل شيء فهو الذى خلق السماوات السبع والأرضيين السبع . خلق السماوات السبع في ارتفاعها واتساعها ، والأرضيين السبع في كثافتها وأمتدادها في ستة أيام من أيام الدنيا .
يقول " ابن جبير " : " الله قادر على أن يخلقها في لحظة ، ولكن علم خلقه الرفعه والتثبيت ثم استوى على العرش استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل ، وهو الرحمن ذو الجود والإحسان فسأل عنه من هو خير عارف بجلاله ورحمته .

وقيل المراد : فاسأل الله الخبير بالأشياء ، العالم بحقائقها يطلعك على جليّة الأمر والقول الأول أظهر وأصح ، والثاني مروى عن " مجاهد " - رضى الله عنه - ، وفي الآية آنفة الذكر وإن لم يذكر لفظ " العلم " صراحةً ولكن القارئ يفهمها ضمناً ومن فحوالكلام ، حيث يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿...فَسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥١﴾ ولا يكن أن يكون خبيراً إلا إذا كان عالماً بالأمر ويواطنها ، عارفاً بالأسرار مطلعاً على الحقائق ، ولا يكون خبيراً إلا إذا كان عالماً عارفاً فهنا ذكر العلم بطريقة الخبرة ، فالخبرة علم .

ويمضى القرآن الكريم في الحديث عن العلم مبيناً قيمته ، وفضله وأهميته ، ونفعه ، وخيره للناس أجمعين فيقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ آلاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة النمل : ١٥ : ١٦] يخبر المولى - عز وجل - عما أنعم به على عبده وبنيه " داود " وابنه " سليمان " - عليهما السلام - من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع بهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام في الدنيا ، والنبوة والرسالة في الذين ولهذا يقول المولى - سبحانه وتعالى - : " وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ آلاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ " .

ويروى أن " عمر بن عبد العزيز " كتب فقال : " إن الله لم ينعم على عبد نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه ، ولو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل ، قال الله تعالى : " وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ آلاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ " .

فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان - عليهما السلام - وورث " سليمان " " داود " في الملك والنبوة . وليس المراد به وراثته المال لم يخص " سليمان " وحده من بين سائر أولاد " داود " فإنه قد كان " لداود " مائة امرأة ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوة ، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله - ﷺ - في قوله : " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة " ، وقد أخبر " سليمان " بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير ، وكان يعرف لفظة الطير والحيوان .

وهذا شيء لم يعطه لأحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله - ﷺ - ومن زعم من الجهلة الرعاع أن الحيوانات كانت تنطق مثل بنى آدم قبل " سليمان ابن

داود " فهو قول بلا علم ، وجهالة جهلاء ، ولو كان الامر كذلك لم يكن لتخصيص " سليمان " عليه السلام - بذلك فائدة اذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول ، وليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا بل لم تنزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا على هذا الشكل والمنوال ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - كان أفهم " سليمان " - عليه السلام - ما يخاطب به الطيور في الهواء ، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف اصنافها ، ولهذا قال تعالى : ﴿.....عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.....﴾ [سورة النمل: ١٦]

يعنى مما يحتاج إليه الملك إن هذا هو الفضل المدين ، يعنى الظاهر البين علينا . عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : " كان داود - عليه السلام - فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع ، قال ، فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب فأقبلت امرأة تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار .

فقال لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ؟
والله لنفتضحن بداود فجاء داود - عليه السلام - فإذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من انت ؟

فقال : الذى لا يهاب الملوك ، ولا يمتنع من الحجاب ، فقال داود - عليه السلام - أنت إذاً والله ملك الموت . مرحباً بأمر الله فتزمت داود مكانه حتى قبضت نفسه ، وحتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس .

فقال " سليمان " - عليه السلام - للطير : " أظلى " داود " فظللت عليه الطير حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال لها " سليمان " - عليه السلام - اقبضى جناحاً جناحاً ، يقول " ابو هريرة " - رضى الله عنه - يا رسول الله ، كيف فعلت الطير ؟ فقبض رسول الله - ﷺ - يده وغلبت عليه يومئذ المضحية وهى النسور الحمراء .

وفي مجال العلم والتعليم ، والتعلم يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة القصص: ١٣] ولما بلغ أشده وأستوىء آئنته حكماً وعلماً وكذلك تجزى المحسنين ﴿ [سورة القصص: ١٣] والمعنى : فرددناه إلى أمه كى تقر عينها به ، ولا تحزن عليه ، ولتعلم أن الله وعدها وعد الحق من رده إليها وأن جعله من المرسلين . فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته في تربيته ما ينبغى له طبعاً وشرعاً ولكن أكثرهم لا يعلمون

حكم الله في أفعاله، وعواقبها المحمودة، التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كriebها إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر وذلك لقوله تعالى: ﴿...وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢١٦] وقال تعالى: ﴿...فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ

اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٩]

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَأْتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ٢٢]

يقول "مجاهد" -رضى الله عنه- يعنى النبوة .

ومعنى قوله "حكما" يعنى حكمة مثله قول رسول الله - ﷺ -: " إن من الشعر

لحكما "

والمعنى إن من الشعر لحكمة، والحكمة في الأدب العربى تعج بها مصادر الأدب

فاطلبها في مظانها الرئيسية .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا

الْعِلْمَ وَمَا يُجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٩]

يعنى : هودلائل واضحة في صدور الذين وهبهم الله العلم، لا لبس فيها ولا غموض

ولا شبهة فيها ولا ارتياب . دلائل يجدونها بينة في صدورهم تطمئن اليها قلوبهم، فلا

تطلب عليها دليلاً وهى الدليل والعلم الذى يستحق هذا الاسم تجده في الصدور في قراراتها

مستقراً فيها، منبعثاً منها، يكشف لها الطريق ويصلها بالخيطة الواصل إلى هناك، وما

يجد بآياتنا الا الظالمون، لا يعدلون في تقدير الحقائق، وتقويم الأمور، والذين يتجاوزون

الحق والصراط المستقيم .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ

السِّنِينَ وَالْوَنُكْمِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الروم: ٢٢]

والمعنى : ومن آياته خلق السماوات والأرض، واختلاف لغاتكم، وذلك بأن علم كل

صنف لغة، وألهم وضعها، وأقدر عليها، وقيل إن المراد اختلاف أجناسكم، نطفكم

وأشكالكم، فإنه لا تكاد تسمع منطقتين متساويين في الكيفية وكذلك الاختلاف في بياض

الجلد وسواده، أو تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها، وحلاها، بحيث يقع التمايز

والتعارف حتى إن التوأمين مع اتفاق موادهما، وأسبابهما، والأمورا الملاقية لهما

في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محاله، إن في ذلك لآيات للعالمين، لا تكاد تخفى

على عاقل من ملك أو إنس ، أوجن ويؤيد ذلك قول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿... وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣] ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " :

" ومع آية السماوات والأرض عجيبه اختلاف الألسنة والألوان بين بنى الإنسان ولا بد أنها ذات علاقة بخلق السماوات والأرض . فأختلاف الأجواء على سطح الأرض واختلاف البيئات ذلك الاختلاف الناشئ من طبيعة وضع الأرض الفلكي ، ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان مع اتحاد الأكل والنشأة في بنى الإنسان ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون : ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.....﴾ [سورة الروم: ٧]

وآية خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان لا يراها ولا يفطن إليها ، ولا يعقلها الا الذين يعلمون ، ولذلك يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿..... فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [سورة الروم: ٢٢] ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: ٥٦]

والمعنى : وأولوا العلم هؤلاء هم فى الغالب المؤمنون الذين آمنوا بالساعة وأدركوا ما وراء ظاهر الحياة الدنيا ، فهم أهل العلم الصحيح ، وأهل الإيمان البصير وهم يردون الأمر هنا إلى تقدير الله وعلمه " لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ " ، فهذا هو الأجل المقدر ، ولا يهم طويلاً كان ام قصيراً ، فقد كان ذلك هو الموعد وقد تحقق " فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون " .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ، وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [سورة ص: ٢٠]

والمراد أنه تعالى شدد ملكه بما يقوى الدين ، وأسباب سعادة الآخرة والمراد تشديد ملكه في الدين والدنيا ، ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك ؟ وآتيناه الحكمة وهى اسم جامع لكل ما ينبغى علماً وعملاً . فكان ملكه قوياً عزيزاً وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعاً .

" وَفَصَّلَ الْخِطَابِ " هو قطعته والحزم فيه برأى لا تردد فيه ، وذلك مع الحكمة والقوة وهى غاية الكمال في الحكم والسلطان في عالم الإنسان ، ومع ذلك هذا كله فقد تعرض " داود " - عليه السلام - للفتنه والابتلاء ، وكانت عين الله عليه تكلاه وترعاه ،

وتثبت خطاه ، وكانت يد الله معه تكشف له ضعفه وخطأه ، وتوقيه خطر الطريق ، وتعلمه كيف يتوقاه .

ويقول الحق- سبحانه وتعالى - : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَثَلَكُمْ ﴾ [سورة محمد: ١٩] وهو التوجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التي يقوم عليها أمر النبي - ﷺ - ومن معه .
" فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها في الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى . " وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ " .
علما بأنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

ولكن هذا واجب العبد المؤمن الشاعر، الإحساس الذي يشعر أبدا بنقصيره مهما كان جهد ، ويشعر وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، الاستغفار ذكرٌ وشكرٌ على الغفران ، ثم هو اليقين المستمر لمن خلف رسول الله - ﷺ - ممن يعرفون منزلته عند ربه ويرونه يوجه إلى الذكر والاستغفار لنفسه قم للمؤمنين والمؤمنات ، وهو المستجاب الدعوة عند ربه .

فيشعرون بنعمة الله عليهم وهويوجههم لأن يستغفروا لهم ليغفر لهم .
ويقول تعالى وهي المسة الأخيرة في الآية " وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَثَلَكُمْ " حيث إن القلب المؤمن يشعر بالطمأنينة والحقوق معا ، الطمأنينة وهو في رعاية الله حينما تقلب أوتوى ، والخوف من هذا الموقف الذي يحيط به علم الله ويتعقبه في كل حالاته ، ويطلع على سره ونجواه ، إنها التربية ، على اليقظة الدائمة ، والحساسية المرهفة ، والتطلع والحدز ، والانتظار .

ويقول الله - عز وجل - في العلم وأهله :-

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [سورة الجمعة: ٢]
فالأُمِّيُّون هم العرب ، كما قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَبْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠]
وتخصيص الأميين بالذكر لا ينبغي من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال - عز وجل - في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [سورة الزخرف: ٤٤]

هو ذكّر لغيرهم يتذكرون به ، ومثل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٤] وهذا وأمثاله لا يتنافى مع قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمَنُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٨] وقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنِكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَا أَنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهُ الْآخَرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٩] وقوله - عز وجل - : ﴿ أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَبِتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة هود: ١٧]

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته - ﷺ - إلى جميع الخلق أحمرهم ، وأسودهم ، وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله " سيدنا ابراهيم " - عليه السلام - حين دعا لأهل مكة " أن يبعث الله فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فبعثه الله - سبحانه وتعالى - على حين فترة من الرسل ، وقد اشتدت الحاجة إليه ، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم ، وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، أى قدراً يسيراً مما بعث الله به " عيسى بن مريم " - عليه السلام - ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [سورة الجمعة: ٢] وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين " ابراهيم " الخليل - عليه السلام - فبدلوه وغيروه ، وقلبوهم وخالفوه ، واستبلوا بالتوحيد شركاً ، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأت بها الله .

وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها ، وغيروها ، وألوهها فبعث الله محمداً - ﷺ - بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ، ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، وأورضى الله عنهم ، والنهى عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى ، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع ، وجمع له تعالى جميع المحاسن ممن كان قبله وأعطاه ما يعطى أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين - فصلوات الله وسلامه عليه - إلى يوم الدين .

ويقول - سبحانه وتعالى - ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم: ١] وفي هذه الآية الكريمة يقسم الله - سبحانه وتعالى - " بنون " و " القلم " وبالكتابة والعلاقة واضحة بين الحرف " نون " بوصفه أحد حروف الأبجدية وبين القلم ، والكتابة .

فأما القسم بها فهو تعظيم لقيمتها أو توجيه إليها في وسط الأمة التي لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق وكانت الكتابه فيها مختلفة ونادرة في الوقت الذي كان دورها المقدر لها في علم الله يتطلب نمو هذه المقدرة فيها وانتشارها بينها ، لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض . ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة راشدة . وما من شك في أن الكتابة عنصر أساسي في النهوض بهذه المهمة الكبرى .

ومما يؤكد هذا المفهوم أن يبدأ الوحي بقوله - سبحانه وتعالى - ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [سورة العلق: ١ : ٥] ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [٣] ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [٤] ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ﴾ [٥] [سورة العلق: ١ : ٥]

وهذا خطاب موجه للنبي - ﷺ - الأمي الذي قدر الله أن يكون أمياً لحكمة يعلمها الله تعالى ، وربما نعلمها نحن فشاء الله أن يكون أمياً حتى لا يقال إنه استقى هذا المنهج وقبسه من فكر أبيه ، أو فكر أمه ، أو هو فكر من ثقافة قوم آخرين ، لذلك يقول النبي - ﷺ - : " أدبني ربي فأحسن تأديبي ، بيد أني من قريش وربيت في بني سعد " . وقد بدأ الوحي إليه منزهاً بالقراءة والتعليم والتعلم ، ثم أكد هذه اللقطة في الآية الكريمة والتي نحن بصدد شرحها .

أكد ذلك بالقسم " بنون " و " القلم " وما يسطرون .

وكان هذا حلقة من المنهج الإلهي لتربية هذه الأمة ، وإعدادها للقيام بالدور الكوني الضخم الذي قدره لها في علمه المكنون . يقسم الله - عز وجل - بنون والقلم وما يسطرون منوهاً بقيمة الكتابة معظماً لشأنها ، كما أوامناً إلى ذلك أنفاً لينفي عن النبي - ﷺ - تلك الفرية ، والأكاذبية التي رماها بها المشركون ، مستعداً لها ونعمته على رسوله ترفضها ، " ما أنت بنعمة ربك بمجنون " .

ويقول الله - عز وجل - : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [٢] ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [٤] ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [٥] ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [٦] [سورة التكاثر: ٦ : ٢]

والمعنى : ارتدعوا انزجروا فلو علمتم العلم الحقيقي الذي لا ريب فيه ولا اهتداء ، ولا شك لو أنكم عرفتم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله - عز وجل - ولما خدعتم

بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة، وشداؤها، يقول - صلى الله عليه وسلم -: " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا " .

وهو جزء من حديث رواه البخارى وهو: " إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَظَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشَاتِ وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى - أَوْ إِلَى - الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ " .
ويقول صاحب التسهيل :

" وجواب " لو " محذوف والتقدير " لو تعلمون لازدجرتم ، واستعددتم للآخرة ، وإنما حذف لقصد التهويل فيقدر السامع أعظم ما يخطر بباله مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ تُؤْفَكُوا عَلَى النَّارِ فَمَا لَوْ يَلَيْسْنَا نَرُّهُ وَلَا نَكْذِبُ بِحَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ٢٧] هذا هو العلم الذى مَجَّدَهُ اللهُ - عز وجل - فى كتابه الكريم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، كما ذكر لأقدار العلماء فدينا فضلهم على سائر العباد ، وأذهم قوة عظيمة ضد الشيطان وذلك بسلطان علمهم ، وغزير معارفهم فإن عالما واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، وهى فى الوقت نفسه دعوة إلى التعليم ، ونشر العلم ، وطلب العلاء والمعارف ، وصدق الشاعر، إذ يقول :

بالعلم والمال يبني الناس ملكهم
لم بين ملك على جهل وإقلال
ويقول أيضا :

والمال إن تدخره محصنا
بالعلم كان مطية الاخفاق (١)

1- صفوة التفاسير ج ٢ ، ص ١٩٨ ، ج ٣ ص ٥٩٨ .

■ تفسير الطبرى ، ج ١٦ ، ص ٢٢٠ ، ج ١١ ، ص ٤٢٠ .

■ القرطبي ج ١١ ، ص ٢٥٠ .

■ حاشية الصاوى على الجلالين ج ٣ ، ص ٦٦

■ مختصر تفسير ابن كثير ج ٢ ، ص ٤٩٦ ، ص ٥١٦

■ حاشية الشهاب على البيضاوى ج ٧ ، ص ١١٧

■ تفسير القرآن العظيم لأبن كثير ج ٣ ، ص ٣٥٨ ، ص ٣٨٢ ، ج ٤ ، ص ٣٦٣

■ فى ظلال القرآن الكريم ج ٥ ، ص ٢٧٦٤ وأيضاً ص ٢٧٧٧ ، ص ٣٠١٧ ، ج ٦ ص ٣٦٥٤

■ مفاتيح الغيب ج ١٣ و ص ٣٠٢ .

" الصدق "

إن الله خلق السموات والأرض بالحق ، وطلب إلى الناس أن يبنوا حياتهم على الحق ، فلا يقولوا إلا حقاً ، ولا يعملوا إلا حقاً ، وحيرة البشر وشقوتهم راجعة إلى ذهولهم عن الحق والصدق ، ولذا كان التمسك بالصدق في كل أمر من أمور الحياة ، وفي كل قصة من القضايا واجب على كل مسلم ومسلمة ، وركيزة من ركائز الإيمان وركن ركين في خلق المسلم الذي يأمر به القرآن الكريم . يقول رسول الله - ﷺ - : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث " (١) .

وقال - عليه الصلاة والسلام - : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة " (٢) .

قد نهى القرآن الكريم على أقوام جريهم وراء الظنون التي ملأت عقولهم وقلوبهم ، وأفندتهم بالخرافات ، وأفسدت حاضرهم ومستقبلهم بالأكاذيب . قال تعالى : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴾ [سورة النجم: ٢٣] وفي قوله: ﴿ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنْ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة يونس: ٣٦] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [سورة النجم: ٢٨]

ولذا نرى الإسلام حارب وطارد الكذابين ، كما أنه شدد النكير عليهم ، فعن عائشة أم المؤمنين - رضی الله عنها - قالت : " ما كلن من خلق أبغض إلى رسول الله - ﷺ - من الكذب ، اطلع على أحد من ذلك فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة " (٣) . وعن عائشة - رضی الله عنها - أيضا : " ما كان خلق أبغض إلى رسول الله - ﷺ - من الكذب ولقد كان الرجل يكذب عنده الكذبة ، فما يزال في نفسه حتى يعلم أنه أحدث فيها توبة " (٤) .

ولا غرو فإن السلف الصالح كانوا يتلاقون على الفضائل ، وكانت المعالم الأولى للجماعة المسلمة صدق الحديث ، ودقة الأداء ، وانضباط الكلام . لذا حكموا فسادوا ،

١- رواد البخارى .

٢- رواد الترمزى .

٣- رواد الامام أحمد .

٤- رواد ابن حبان .

وقادوا فنجحوا ، وساسوا العالم كله سياسة الصدق والدقة والانضباط فإنبهر بهم العالم ، كما انبهر بسلوكهم وما يزال التاريخ يتحدث بصدقهم ، وأخلاقهم ، وانضباطهم وحُسن سلوكهم ، وسيرتهم الزاكية العطرة وبحق كانوا مثلاً يحتذى في هذا السلوك الذى ارتقى به المجتمع المسلم .

فأما الكذب فهومن أمارات النفاق ، وأمارات انقطاع الصلة بالدين فمما لا ريب فيه أن الكذب رذيلة كبرى ، وداء عضال ، إذا ما أصيب به مجتمع من المجتمعات ، فسد ، وانحل ، وشاعت فيه الرذيلة ودرست فيه الفضيلة وأصيب بأدواء لم تكن في سابقه . ولا عذر البتة لمن يتخذون الكذب خُلُقاً ويعبثون على خديعة الناس . قال رسول الله - ﷺ - :
 " يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب " (١) .

وسئل رسول الله - ﷺ - : " أيكون المؤمن جبانا ؟

- قال : نعم

- قيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟

- قال : لا (٢) .

لذا نرى القرآن الكريم يوجه المسلم إلى هذا الخلق الكريم ، كى يستقيم أمره ويصلح حاله وتقوى شوكرته ، فى أكثر من موضع ، وأكثر من آية .

فيقول الله - عز وجل - : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [سورة البقرة: ١٧٧]

والمعنى : ليس البر وعمل الخير ، وفعل الطاعات محصوراً في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق أو جهة المغرب ، ولكن البر الصحيح هو : الإيمان بالله ، واليوم الآخر والملائكة والنبين والكتب المنزلة من الله - سبحانه وتعالى - على أنبيائه ، ويعطى وينفق المال على محبته له ، وحرصه على جمعه ، لذى القربى واليتامى والمساكين ، وأبناء السبيل ، وهم المسافرون الذين انقطع عنهم المال ، والذين يسألون المعونة بدافع الحاجة ، كما ينفقه أيضاً في فكك الأسرى من أسرهم ، والعبيد الأرقاء بالفداء ، وقام بأداء الأركان ومن أهمها

١- رواه الامام احمد .

٢- رواه الامام مالك .

" الصلاة " و" الزكاة " والذين يوفون بالعهود ، ولا يخلفون الوعود والصابرين على الشدائد ، وحين القتال في سبيل الله .

من كانت هذه صفاتهم ، وأوصافهم هم الذين صدقوا في إيمانهم وأولئك هم الكاملون في التقوى ، وأصحاب الإيمان الصادق ، الموفون بعهودهم . وفي الآية " ثناء ومديح " للأبرار ، وإيحاء إلى ما يلاقونه من إطمئنان وخيرات حسان . ويقول صحاب اللطائف :

" وما ذكر في هذه الآية من وجوه الإحسان وفنونه ، ووجود قضايا الإيمان وإيتاء المال ، وتصفية الأعمال ، وصلة الرحم ، والتمسك بفنون الذم والعصم والوفاء بالعهود ومراعاة الحدود وعظيم الأثر ، كثير الخطر ، محبوب الحق شرعا ومطلوبه أمراً لكن قدام الحق عنك بعد فئائك ، وامتحانك من شاهدك واستهلاكك في وجود القدم ، وتعطل رسومك عن مساكنات إحساسك - أنت وأعلى في المعنى ؛ لأن التوحيد لا يُبقي رسماً ولا أثراً ، ولا يغادر غيراً ولا غيراً والغير هو السوى ، والغير فهو معروف .

وهناك خلاف بين العلماء في أن هذا الخطاب عام أو خاص ، والصحيح والراجح أنه عام ينتظم جميع المسلمين في كل زمان و مكان ، فهو خطاب عام .

والبر يشمل جميع الطاعات قال تعالى :- ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ [سورة الانفطار: ١٣: ١٤] فجعل البر ضد الفجور .

وقال تعالى :- ﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحَلُّوْا شَعْبِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهُدَىٰ وَلَا الْفَلْتِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْبَغُونَ فَضُلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة المائدة: ٢] وعدوا البر بتحقيق ماهيته في أمور خمسة هي :-

- أولها : الإيمان بالله .
- ثانيها : إيمان باليوم الآخر .
- ثالثها : الإيمان بالملائكة .
- رابعها : الإيمان بالكتب .
- خامسها : الإيمان بالرسل .

وأهل هذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم . ولذا قال بعضهم هذه الصفة خاصةً للأنبياء-عليهم السلام- ، وقال آخرون هذه عامةٌ في جميع المؤمنين .

ونحن نرى أنها عامة في جميع المؤمنين في كل زمان ، وفي كل عصر ، كما أوامناً إلى ذلك أنفاً (١).

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [سورة المائدة: ١١٩] والمعنى إن يوم القيامة ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم في الآخرة ويوم الجزاء ، يوم يقف الناس في عرصات القيامة للحساب والجزاء .

وفي ذلك اليوم ينفع الذين صدقوا في دنياهم صدقهم في هذا اليوم وجزاء صدقهم في دنياهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، يعنى من تحت غرفها وأشجارها ما كتبت فيها لا يخرجون منها أبدا ، وبذلك يكونوا قد نالوا رضا ربهم جزاء صدقهم في الدنيا ، وهم أيضا قد رضوا عن ربهم حيث جازاهم ما وعدهم به فى كتابه العزيز إنه الفوز الكبير برضوان الله - سبحانه وتعالى - وهذا الرضوان ، وذلك الفوز : هو جنات تجري من تحتها الأنهار حيث أن الجميع ملكه ، وتحت سلطانه وقهره ومشيئته ، وهو القادر على كل شيء .

ويقول الإمام " القشيري " : " مَنْ تَعَجَّلَ مِيرَاتَ صَدَقِهِ فِي دُنْيَاهُ مِنْ قَبُولِ حَصَلٍ لَهُ مِنَ النَّاسِ ، أَوْ رِيَاسَةٍ عَقَدَتْ لَهُ ، لَهُ أَوْ نَفْعٍ وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ جَاهِ أَوْ مَالٍ . فَلَا شَيْءَ لَهُ فِي آجَلِهِ مِنْ صَوَابِ صَدَقِهِ ، لِأَنَّ الْحَقَّ - سَبْحَانَهُ - نَصَّ بِأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْفَعُ فِيهِ الصَّادِقِينَ صَدَقَهُمْ .

قوله جلّ ذكره : { ...رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ... } .
ورضاء الحق - سبحانه - إثبات محلّ لهم ، وثناؤهم عليهم ومدحهم لهم ، وتخصيصهم بأفضاله وفنون نواله . ورضاءهم عن الحق - سبحانه في الآخرة وصولهم إلى مُنَاهِم ؛ فهو الفوز العظيم والنجاة الكبرى .

ويقول " القرطبي " : " قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم " أي صدقهم في الدنيا فأما في الآخرة فلا ينفع فيها الصدق وصدقهم في الدنيا يحتمل أن يكون صدقهم في

1- التفسير الكبير المسمى " نفاتيح الغيب " للإمام فخر الرازى ج ٣ ، ص ٨ - ٢٤ بتصرف .

□ صفوة التفاسير للصابوني ج ١ ، ص ١١٥ وما بعدها بتصرف .

□ لطائف الاشارات ج ١ ، ص ١٤٩ .

□ خلق المسلم للإمام العصر الحديث المغفور له الشيخ محمد الغزالي ص ٣١ وما بعدها بتصرف .

العمل لله ويحتمل أن يكون تركهم الكذب عليه وعلى رسله، وإنما ينفعهم الصدق في ذلك اليوم وإن كان نافعاً في كل الأيام لوقوع الجزاء فيه.

وقيل: المراد صدقهم في الآخرة وذلك في الشهادة لانبيائهم بالبلاغ وفيما شهدوا به على أنفسهم من أعمالهم ويكون وجه النفع فيه أن يكفوا المؤاخذة بتركهم كتم الشهادة فيغفر لهم بإقرارهم لانبيائهم وعلى أنفسهم .

ونحن نرى أن المراد بالصدق في الآية وفي غيرها من الآيات التي تذكر الصدق ، والصادقين ، والصادقات هو الصدق في الدنيا ، مع الله ، ومع الناس وفي العبادات ، والمعاملات، وجميع الأعمال المنوطة بالمسلم ، وكل التكاليف وجميع الأوامر ، والنواهي الواردة في القرآن الكريم والسنة . لذا كان جزاؤهم في الآخرة جنات تجري من تحت غرفها الأنهار ، وتجرى أيضاً من تحت اشجارها الأنهار ، وما ذلك الا لأنهم صدقوا الله ورسوله وصدقوا في كل أعمالهم ، وافعالهم وحركاتهم ، وسكناتهم ، وفي نومهم ويقظتهم وسرهم وجهرهم . ثم بين الله - عز وجل - ثوابهم في الآخرة أيضاً أنه راض عنهم ، راضون عنه وذلك بالجزاء الذي أتاهاهم به . وذلك الظفر العظيم خيره الكبير نفعه ، العظيم ثوابه .

ويقول " ابن كثير -" رحمه الله تعالى - في هذه الآية : " عن ابن عباس يقول: يوم ينفع الموحدين توحيدهم .

﴿...لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا...﴾ [سورة التوبة: ١٠٠] أي لهم جنات تجري من تحتها ومن تحت اشجارها: ماكين فيها لا يحولون ولا يزولون، رضي الله عنهم ورضوا عنه، كما قال تعالى: {... وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ...} [سورة التوبة: ٧٢]، فعن أنس مرفوعاً قال: قال رسول الله - ﷺ -: " ثم يتجلى لهم الرب تعالى فيقول: سلوني سلوني أعطكم".

قال: " فيسألونه الرضا، فيقول: رضاي أحلكم داري ، وأنالكم كرامتي فسألوني أعطكم. فيسألونه الرضا، قال: " فيشهدهم أنه قد رضي عنهم ."

وقوله: {... ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ...} [سورة التوبة: ٧٢] أي: هذا هو الفوز الكبير الذي لا أعظم منه كما قال تعالى: - ﴿لِيَسْلُبَ لِهَذَا فليعمل العَمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: ٦١] .
وكما قال: ﴿... وَفِي ذَلِكَ فليتنافس المُنْتَفِسُونَ﴾ [سورة المطففين: ٢٦] .

هو- سبحانه وتعالى- الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير ولا عديل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبه، فلا إله غيره، ولا رب سواه، ولا معبود بحق غيره. (١)

وفى معنى الصدق يقول المولى :- ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [سورة الأعراف: ١٠٥] والمعنى : حقيق علي، يعنى واجب. ومن قرأ " علي ألا " فالعنى حريص على ألا أقول، وفي قراءة " عبد الله " حقيق ألا أقول " وذلك باسقاط " علي " وقيل " علي " بمعنى الباء أى حقيق بإلا أقول وكذلك فى قراءة " أُبَى " والأعمش " بإلا أقول، كما تقول رميت بالقوس وعلى القوس، فحقيق على هذا يعنى " محقوق " فأرسل معى " بنى إسرائيل " أى خلهم، وكان يستعملهم فى الأعمال الشاقة .

ويقول صاحب الظلال : " فما كان الرسول الذي يعلم حقيقة الله، ليقول عليه إلا الحق، وهو يعلم قدره؛ ويجد حقيقته - سبحانه - فى نفسه .

{ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ } .

تدلكم على صدق قولي : إني رسول من رب العالمين .

وباسم تلك الحقيقة الكبيرة .. حقيقة الربوبية الشاملة للعالمين .. طلب موسى من فرعون أن يطلق معه بنى إسرائيل .. إن بنى إسرائيل عبيد لله وحده؛ فما ينبغي أن يعبدهم فرعون لنفسه ! إن الإنسان لا يخدم سيدين، ولا يعبد إلهين . فمن كان عبداً لله، فما يمكن أن يكون عبداً لسواه . وإن كان فرعون إنما يعبد بنى إسرائيل لهواه؛ فقد أعلن له موسى أن رب العالمين هو الله . وإعلان هذه الحقيقة ينهي شرعية ما يزاوله فرعون من تعبيد بنى إسرائيل!

إن إعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها إعلان تحرير الإنسان .

تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله .

تحريره من شرع البشر، ومن هوى البشر، ومن تقاليد البشر، ومن حكم البشر.

1- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ، ص ١٢١- ١٢٢ بتصرف .

□ تفسير القرطبي ج ٤ ، ص ٢٣٧٦ بتصرف .

□ لطائف الإشارات للامام القشيري ج ١ ، ص ٤٥٨ بتحقيق وتقديم وتعليق الدكتور ابراهيم بسبوني ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨١ م .

□ صفوة التفاسير ج ١ ، ص ٣٧٥ بتصرف .

وإعلان ربوبية الله للعالمين لا يجتمع مع خضوع أحد من العالمين لغير الله؛ ولا يجتمع مع حاكمية أحد بشريعة من عنده للناس .. والذين يظنون أنهم مسلمون بينما هم خاضعون لشريعة من صنع البشر - أي لربوبية غير ربوبية الله - واهمون إذا ظنوا لحظة واحدة أنهم مسلمون! إنهم لا يكونون في دين الله لحظة واحدة وحاكمهم غير الله ، وقانونهم غير شريعة الله . إنما هم في دين حاكمهم ذاك . في دين الملك لا في دين الله! وعلى هذه الحقيقة أمر موسى - عليه السلام - أن يُلي طلبه من فرعون إطلاق بني إسرائيل : " يا فرعون إني رسول من رب العالمين " ... " فارسل معي بني إسرائيل " ... مقدمة ونتيجة .. تتلازمان ولا تفتقران .

ولم تغب على فرعون وملئه دلالة هذا الإعلان . إعلان ربوبية الله للعالمين .. لم يغب عنهم أن هذا الإعلان يحمل في طياته هدم ملك فرعون . وقلب نظام حكمه وإنكار شرعيته وكشف عدوانه وطغيانه .. ولكن كان أمام فرعون وملئه فرصة أن يظهروا موسى بمظهر الكاذب الذي يزعم أنه رسول من رب العالمين بلا بينة ولا دليل :

" قال : إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين " .. ذلك أنه إذا اتضح أن هذا الداعية إلى ربوبية رب العالمين كاذب في دعواه؛ سقطت دعوته وهان أمره؛ ولم يعد لهذه الدعوة الخطيرة من خطر - وصاحبها دعوى لا بينة عنده ولا دليل! . ولكن موسى يجيب: ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ وَرَمَى يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٤﴾ [سورة الشعراء ٢٣: ٣٣] فكانت الآية بإلقاء العصي ! فَإِنْ قَلِبْتَ ثُعْبَانًا لَا شَكَّ فِي ثُعْبَانِيَّتِهِ .. وكما قيل في سورة أخرى : ﴿ ... فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة طه: ٢٠] ثم إن يده السمراء - وقد كان موسى - عليه السلام - أسمر اللون أي مائلًا إلى السمرة - يخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء من غير سوء، بيضاء ليست عن مرض ، ولكنها المعجزة ، فإذا أعادها إلى جيبه عادت سمراء! هذه هي البينة والآية على الدعوى التي جاء بها موسى إني رسول من رب العالمين .

هذا هو الصدق الذي يعد من شيم الأنبياء والمرسلين ومن شيم المسلمين الأتقياء ، والمؤمنين الأصفياء ، فالصدق منجاة لهم جميعاً (١).

1- في ظلال القرآن الكريم ج ٣ ، ص ١٣٤٦ .

□ القرطبي ج ٤ ، ص ٢٦٩٣ .

□ حاشية الشهاب على البيضاوي ج ٤ ، ص ٢٠٠ .

وفي فضيلة الصدق يقول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة التوبة: ١١٩]

والمعنى : هم الصادقون في ايمانهم فلم يكونوا من المنافقين ، أومع الذين لم يتخلفوا، أومع الذين لأنه صدقوا في دين الله نيةً ، وقولاً ، وعملاً ، والآية تدل على أن الاجماع حُجَّة لأنه أمر بالكون مع الصابرين فلزم قبول قولهم ، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكُمْ يَأْتُهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُيِّبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة التوبة: ١٢٠]

والمراد بهذا النفي " النهى " وخص هؤلاء بالذكر وإن استوى كل الناس بذلك لقربهم منه ، ولا يخفى عليه خروجه .
ويقول " القرطبي " : " هذا الامر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين .

قال مطرف: سمعت مالك بن أنس يقول: كلما كان رجلاً صادقاً لا يكذب إلا مُعِّجٌ بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف. واختلف في المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال، فقيل: هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب. وقيل: هو خطاب لجميع المؤمنين، أي اتقوا مخالفة أمر الله.

".... وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ"

أي مع الذين خرجوا مع النبي - ﷺ - لا مع المنافقين .
أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم .

وقيل: هم الانبياء، أي كونوا معهم بالاعمال الصالحة في الجنة.

وقيل: هم المراد بقوله: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفِقَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧]

وقيل: هم الموفون بما عاهدوا، وذلك لقوله تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣]

وقيل: هم المهاجرون، لقول أبي بكر يوم السقيفة إن الله سمانا الصادقين فقال:
**﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
 وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾** [سورة الحشر: ٨]

ثم سماكم بالمفلحين فقال: **﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ
 وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ
 شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [سورة الحشر: ٩]

وقيل: هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم. قال "ابن العربي":

"وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق
 في العقيدة والمخالفة في الفعل، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومن
 دونهم على منازلهم وأزمانهم. وأما من قال: إنهم المراد بآية البقرة فهو معظم الصدق ويتبعه
 الأقل وهو معنى آية الأحزاب.

وهو قوله تعالى: **﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾** إن شاء أو
 يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا [سورة الأحزاب: ٢٤]
 وأما تفسير أبي بكر الصديق - رضی اللہ عنہ - فهو الذي يعم الأقوال كلها فإن
 جميع الصفات فيهم موجودة.

وهو الذي ذكرناه آنفا حيث قال يوم السقيفة إن الله سمانا الصادقين فقال تعالى
**﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾** [سورة الحشر: ٨]

فالذي فهم عن الله وعقل عنه أن يلزم الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال،
 والصفاء في الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبواب ووصل إلى رضا الغفار، قال - صلى الله عليه -:
 "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال
 الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب
 يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى
 يكتب عند الله كذابا" (١).

وقد رد - صلى الله عليه - شهادة رجل في كذبة كذبها.

قال معمر: لا أدري أكذب على الله أو أكذب على رسوله أو أكذب على أحد من الناس

وسئل " شريك بن عبد الله " فقيل له: يا أبا عبد الله، رجل سمعته يكذب متعمداً فهل أصلي خلفه؟ قال لا.

وعن " ابن مسعود -رضى الله عنهما - قال: إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، ولا أن يعد أحدكم شيئاً ثم لا ينجزه، أقرأوا إن شئتم " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين "هل ترون في الكذب رخصة؟ وقال مالك :
لا يقبل خبر الكاذب في حديث الناس وإن صدق في حديث رسول الله - ﷺ - .
وقال غيره: يقبل حديثه .

والصحيح أن الكاذب لا تقبل شهادته ولا خبره لما ذكرناه، فإن القبول مرتبة عظيمة وولاية شريفة لا تكون إلا لمن كملت خصاله ولا خصلة هي أشرم من الكذب فهي تعزل الولايات وتبطل الشهادات . فالمراد من الآية أيضا : راقبوا الله في جميع اقوالكم وأفعالكم ، وكونوا مع أهل الصدق واليقين ، الذين صدقوا في الدين نبيه ، وقولاً وعملاً وفي تفسير " المراعى " : " يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله اتقوا الله ، وراقبوه بأداء فرائضة ، واجتناب نواهيه ، وكونوا في الدنيا من أهل ولايته ، وطاعته تكونوا في الآخرة مع الصادقين في الجنة ، ولا تكونوا مع المنافقين الذين يتنصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالحلف ولا رخصة في الكذب الا لضرورة من خديعة حرب ، أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها ، يعنى في التحبب إليها بوصف محاسنها ورضاه عنها ، لا في مصالح الدار والعيال وغيرها " .

أخرجه ابن أبى شيبه وأحمد عن أسماء بنت يزيد -رضى الله عنها - عن النبى - ﷺ - قال : " كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب في خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها " .

ولا ريب في أن المعارض ما يعنى العاقل عن الكذب كما جاء فى الحديث : " إن فى المعارض لمدوحة عن الكذب " . (١)

1- التفسير المراعى ج ٤ ، ص ٤٣ وما بعدها .

♦ الطبرى .

♦ الكشاف للزمخشرى .

♦ القرطبى ج ٥ ، ص ٣١٢٧ وما بعدها .

♦ حاشية الشهاب على البيضاوى ج ٤ ، ص ٣٧٤ .

♦ تفسير النسفى ج ١ ، ص ٥٢٣ - ٥٢٤ ط . دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان سنة ١٤١٥ هـ ،

١٩٩٥ م .

♦ فى ظلال القرآن الكريم للامام سيد قطب .

وفى معنى الصدق يقول الحق- سبحانه وتعالى - : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة يوسف: ٥١] ، والخطب هو الشأن العظيم الذى يقع فيه التخاطب إما لغرابته ، وإما لإنكاره ، ومنه قوله- سبحانه وتعالى- حكاية عم سيدنا إبراهيم - عليه السلام - : " قال فما خطبكم أيها المرسلون " .

وقوم موسى - عليه السلام- : " فما خطبك يا سمري " .

يعنى إن الرسول بعد أن أبلغ الملك قول " يوسف " : " انه لا يخرج من السجن حتى إستجابة دعوته حتى يحقق قصة النبوءة جمعهن وسألهن " : " ما خطبكن الذى حملكم على مراودته عن نفسه : هل كان عن ميل منه إليكن ؟ وهل رأيتم منه مودةً وإستجابة بعدها؟ وماذا كان السبب فى إلقائه فى السجن مع المجرمين ؟ .
قلن ما عاذ الله ما علمنا عليه من سوء يشينه ، ولا فعل يعيبه لا من قريب ولا من بعيد ، ولا قليل ولا كثير .

فقالت امرأة العزيز: " ظهر الحق بعد أن كان خفياً ، وقد ظهر فى جانب واحد لا خفاء فيه ، وهن قد شهدن بما علمن شهادة نفى ، وهأنذا أشهد على نفسى شهادة إيجاب .
﴿... قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة يوسف: ٥١]

فإن يوسف - عليه السلام - قد استعصم وأعرض عنى ، وإنه لمن الصادقين فى قوله حين قال : " هى راودتنى عن نفسى " ، والذى دعاها الى هذا الاعتراف مكافأة يوسف على ما فعله من رعاية حقها ، وتعظيم جانبها ، وإنفاذ أمرها حيث قال : " ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن " ولم يعرض لشأنها البتة وفى هذا إعتراف شهادة مريحة من امرأة العزيز ببراءة يوسف من كل الذنوب وطهارته من كل العيوب .

وفى الظلال : يقول فى معنى هذه الآية : " ومن هذا نعلم شيئاً مما دار فى حفل الاستقبال فى بيت الوزير؛ ما قالت النسوة ليوسف وما لَمَحْنَ به وأشرن إليه ، من الإغراء الذى يبلغ درجة المراودة . ومن هذا تتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى فى ذلك العهد الموهل فى التاريخ . فالجاهلية دائماً هي الجاهلية .

إنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التخلل والتميع والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرستقراطية! . وفي مثل هذه المواجهة بالاتهام في حضرة الملك ، يبدو أنه لم يكن هنالك مجال للإنكار : { قلن : حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء } ! وهي الحقيقة التي يصعب إنكارها . ولومن مثل هؤلاء النسوة . فقد كان أمر يوسف إذن من النصاعة والوضوح بحيث لا يقوم فيه جدال . وهنا تتقدم المرأة المحبة ليوسف ، التي يئست منه ، ولكنها لا تستطيع أن تخلص من تعلقها به . تتقدم لتقول كل شيء في صراحة : " قالت امرأة العزيز : الآن حصص الحق . أنا راودته عن نفسه . وإنه لمن الصادقين .. الآن حصص الحق وظهر ظهوراً واضحاً لا يحتمل الخفاء .
أجل .

قد تكون هناك أعداراً لمن يشعرون بوسواس الحرص ، أو الخوف عندما يقفون في ميادين التضحية والفداء ولكنه لا عذر البتة لمن يتخذون الكذب خلقاً ويعيشون به على خديعة الناس ، قال رسول الله - ﷺ - :

" يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب " ويقول النبي - ﷺ - :
" رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيْانِي قَالَا الَّذِي رَأَيْتُهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ يَكْذِبُ بِالْكَذْبَةِ تُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " (١) .
وفي الحديث : " قال رسول الله - ﷺ - : " ثلاثة لا يدخلون الجنة : الشيخ الزاني ، والإمام الكذاب ، والعائل المزهو " (٢) : أي الفقير المتكبر .

ويدخل في نطاق هذا الكذب تلك الاقتراعات التي يبتدعها الجهال وأقحموها في دين الله بيد أنها لهو ولعب . (٣)

ومن معاني الصدق ما نجده في قول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [سورة الكهف: ٢٩]

1- اخرجه البخارى .

2- رواه البندار .

3- تفسير المراعى ، ج ٤ ، ص ١٥٨ .

♦ فى ظلال القرآن الكريم ج ، ص ١٩٩٥ .

♦ الكشاف للزمخشري .

♦ حاشية الشهاب على البيضاوى .

♦ تفسير الجلالين .

والمعنى: قل أيها الرسول لأولئك الذين أغفلنا قلوبهم عن الذكر، واتبعوا أهواءهم هذا الذي أوحى إلي هو الحق من عند ربكم، وهو الذي يجب عليكم اتباعه، والعمل به، فمن شاء أن يؤمن به ويدخل في غمار المؤمنين، ولا يتعلل بما يصلح أن يكون مقدرة له فليفعل، ومن شاء أن يكفر به، وينبذ وراء ظهره فأمره إلى الله، ولست بطارد لأجل أهوائكم من كان للحق متبعاً، وبالله وبما أنزل علي مؤمناً. وإنني في غنى عن متابعتكم وإنني لا أبالي بكم، ولا بإيمانكم وأمر ذلك إليكم، ويبد الله التوفيق والخذلان، والهوى والظلال، وهولا ينتفع بإيمان المؤمنين، ولا يضره كفر الكافرين مثل ما قال - سبحانه وتعالى - : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: 7] ويقول المفسرون في معنى هذه الآية ظاهره أمر، وحقيقة وعيد وإنذار. يعنى: قل يا محمد - ﷺ - لهؤلاء الغافلين، لقد ظهر الحق بتوضيح الرحمن فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فأكفروا، وذلك مثل قوله تعالى في آية أخرى: ﴿...أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ...﴾ [سورة فُصِّلَتْ: ٤٠]

وقد هيأنا للكافرين بالله ورسوله نارا حامية شديدة، أحاط بهم سورها مثل إحاطة السوار بمعصم الحسنة، وإن استغاثوا من شدة العطش فطلبوا الماء أعغيثوا بماء لكنه شديد الحرارة مثل النحاس المذاب، أو كعكر الزيت المحمى يشوى وجوههم إذا قرب منهم وذلك من شدة حرة.

وفى الحديث :-

" ماء كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه "

يعنى سقطت جلدة وجهه فيه .

نعوذ بالله من جهنم (١) .

بئس ذلك الشراب الذى يغاثون به وساءت جهنم منزلاً ونقيلاً يرفق به أهل النار ويقول " القرطبي " فى معنى هذه الآية :

" قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس ! من ربكم الحق فإليه التوفيق والخذلان، ويبد الهدى والضلال، يهدى من يشاء فيؤمن ويضل من يشاء فيكفر، ليس إلى من ذلك شئ، فالله يؤتى الحق من يشاء وإن كان ضعيفاً، ويحرمه من

فعن " عبد الله بن عامر " قال : " دعنتني أمي يوماً ورسول الله - ﷺ - قاعد في بيتنا ، فقالت : تعال هاك أعطيك فقال لها رسول الله - ﷺ - : وما أردت أن تعطيه؟ قالت : تمرا .

فقال لها رسول الله - ﷺ - : أما إنك لولم تعطه شيئاً كُذِّبَ عليك كذبة " (١) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ :

" مَنْ قَالَ لَصَبِيٌّ تَعَالَ هَاكَ ثُمَّ لَمْ يُعْطِهِ فَهِيَ كَذْبَةٌ " (٢) .

فأنظر كيف يعلم رسول الله - ﷺ - الأمهات والآباء تربية أولادهم حتى ينشأوا على الصدق ، وتجنب الكذب .

قال - ﷺ - : " الصدق منجاة ، ولو كانت فيه الهلكة " يعني : ولو ظن أن

في الصدق هلاكه فهو منجاة له .

وقال رسول الله - ﷺ - : " ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك منه القوم

فيكذب ، ويل له ، ويل له " (٣) .

وقد قال رسول الله - ﷺ - : " لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا

عبد فقولوا : " عبد الله ورسوله " .

وعن أبي هريرة - رضی اللہ عنہ - قال : " أمرنا رسول الله - ﷺ - أن نحثوا في

وجوه الداحين التراب " (٤) .

والمقصود هؤلاء الذين اتخذوا المديح للمادحين ، والاستجداء ، والتكسب . فيمدحون

الناس بما ليس فيهم تزلفاً ونفاقاً ، وابتغاء عرض دنيوى دنى ، أما الذى يصف الرجل بما

هو أهل له فليس ذائلاً فى هؤلاء حيث إنه صادق ، ومن الواجب أن نمدح المخلصين

الصادقين الاوفياء لنشجعهم على الخير وفعله والاستمرار فيه ، وحتى يقتدى بهم غيرهم .

فعن " أبى بكر " قال :- " أن رجلاً ذكر عند النبي - ﷺ - : فأثنى عليه رجل خيراً

فقال النبي - ﷺ - : (ويحك قطعت عنق صاحبك - يقوله مراراً - إن كان أحدكم مادحاً

لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك واللّه حسيبه ولا يركي على اللّه

أحداً " (٥) .

1- رواه ابوداود .

2- رواه أحمد .

3- رواه الترمذى .

4- رواه الترمذى .

5- رواه البخارى .

ومن الآيات القرآنية الكريمة التي تمتدح الصدق ، والصادقين قوله تعالى : ﴿ وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٤١] .

وقوله تعالى :- ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ﴾ [سورة مريم: ٥٠] وقوله- سبحانه وتعالى :- ﴿ وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٥٦]

فأنظر أخى المسلم ، وأختى المسلمة إلى قول الحق - سبحانه وتعالى - في سيدنا " إبراهيم " - عليه السلام- إنه كان صديقاً نبياً ، فهى مبالغة في كونه صادقاً ، وهو الذى يكون عادته الصدق ، لأن هذا البناء ينبئ عن ذلك ، وهو الذى يكون كثير الصدق في الحق حتى يصير مشهوراً به معروفاً ، لأن المصدق بالشيء لا يوصف بكونه " صديقاً " إلا إذا كان صادقاً في ذلك التصديق .

فالمؤمنون بالله ورسله صادقون في ذلك التصديق ، والنبي - ﷺ - : يجب أن يكون صادقاً في كل ما أخبر به ، وأخبر عنه ، لأن الله - سبحانه وتعالى - صدقه ، ومصداق الله صادق ، وإلا لزم الكذب في كلام الله تعالى فيلزم من هذا كون الرسول صادقاً في كل ما يقول ، ولأن الرسل شهداء الله على الناس على ما قال الله - سبحانه وتعالى - .

قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [سورة النساء: ٤١]

والشهاد إنما يقبل قوله إذا لم يكن كاذباً .

أما قوله - سبحانه وتعالى - في سيدنا إبراهيم - عليه السلام- ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ... ﴾ [سورة الأنبياء: ٦٣] ، وقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [سورة الصافات: ٨٩] ليس كذبا .

فقوله تعالى " بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا " سخرية واستهزاء بهم حيث إن الأصنام لا تفعل ، ولا تنفع ، ولا تضر .

ويقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - : " قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا " .

يعنى الصنم الذى تركه ولم يكسره ، فسألوهم إن كانوا ينطقون ، وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم، لأنه جماد .

وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله - ﷺ - قال: "إن إبراهيم، عليه السلام، لم يكذب غير ثلاث: إثنيتين في ذات الله، قوله: " قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا " وقوله: " إِنِّي سَقِيمٌ " .

قال: " وبيننا هويسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة ، إذ نزل منزلاً فأتى الجبار رجل، فقال: إنه قد نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس ، فأرسل إليه فجاء . فقال: ما هذه المرأة منك ؟

قال: هي أختي .

قال: فاذهب فأرسل بها إليّ ، فانطلق إلى سارة .

فقال: إن هذا الجبار سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده فإنك أختي في كتاب الله ، وأنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم - عليه السلام - ثم قام يصلي . فلما أن دخلت عليه فرأها أهوى إليها، فتناولها ، فأخذ أخذاً شديداً .

فقال: ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت له فأرسل ، فأهوى إليها ، فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد . ففعل ذلك الثالثة فأخذ، مثل المرتين الأولين .

فقال: ادعي الله فلا أضرك. فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابيه.

فقال: إنك لم تأتني بإنسان ، وإنما أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته قال: مَهَيْم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأحدمني هاجر .

قال محمد بن سيرين وكان : أبوهريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: فتلك أمكم يا بني ماء السماء .

وقوله " كان صديقا " . يعنى : - عليه السلام - من أول وجوده إلى انتهاءه موصوفاً بالصدق والأمانة. وهذه الأصنام " لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تغنى عنك شيئاً .

ويقول بعض المفسرين في معنى هذه الآية :

" وأذكر يا محمد - ﷺ - في الكتاب العزيز " خليل الرحمن " إبراهيم - عليه السلام - إنه كان ملازماً للصدق ومبالغاً فيه جامعاً بين الصديقية والنبوة ، والغرض من هذا تنبيه العرب إلى فضل سيدنا " إبراهيم " الذى يزعمون الانتساب إليه ثم بعد ذلك يعبدون الأصنام والوثان مع إنه إمام الحنفاء ، وقد جاء بالتوحيد الصافى الذى دعاهم إليه خاتم المرسلين .

ويقول الحق- سبحانه وتعالى- فى معنى الصدق: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [سورة مريم: ٥٠]

يعنى : أعطينا الجميع وهم " إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، " كل الخير الدينى والدنيوى من المال والولد ، والعلم والعمل ، وجعلنا لهم ذكراً حسناً فى الناس ، لأن جميع أهل الملل ، والأديان يثنون عليهم لما لهم من الخصال المرضية ويصلون على إبراهيم - عليه السلام - وعلى آله إلى قيام الساعة .

ويقول الامام " الطبرى " : " أى رزقناهم الثناء الحسن ، والذكر الجميل فى الناس .

ويواصل القرآن الكريم فى الحديث عن فضيلة الصدق ، وامتداحه إياه فيقول سبحانه :- ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ٤١] .

والمراد : " واذكريا محمد - ﷺ - فى الكتاب الجليل خير " إدريس " إنه كان ملازماً للصدق فى جميع أحواله ، وموحي إليه من الله - سبحانه وتعالى - .

ويقول المفسرون إن " إدريس " هو " جد " سيدنا " نوح " - عليهما السلام - وأول مرسل بعد " آدم " - عليه السلام - . وهو أول من خط بالقلم ولبس " المخيط " وكانوا من قبل يلبسون الجلود ، وقد أنزل الله تعالى عليه " ثلاثين صحيفة " .

ذينكم الصدق فى القول ، والعمل ، وهو الذى تحلى به الأنبياء والمرسلين ، وهم قدوة حسنة لنا فمن واجب المسلم والمسلمة الاقتداء بهؤلاء الهداة الذين يعدون قدوة حسنة لأمتهم وشعبهم حتى تسود فضيلة الصدق وينمحى الكذب الذى يؤدى إلى الفجور ، والفجور يؤدى إلى النار وفوق ذلك يستمرى المرء الكذب ويتمادى فيه حتى يكتب عند الله كذابا . أما فضيلة الصدق فإن المسلم إذا اعتادها يظل متمسكا بها حتى يستمر عليها فيصدق فى قوله ، وعمله ، حتى يكتب عند الله صديقا . اللهم اجعلنا من الذين يصدقونك قولاً ، وعملاً ، حتى ترضى عنا ونفوز بسعادة الدارين آمين .

وقال تعالى فى سيدنا " إسماعيل " - عليه السلام - : ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ٥٤]

يعنى : كان صادق الوعد اذ وعد من نفسه لصبر على ذبح أبيه ، وصبر على ذلك إلى أن ظهر الفداء .

وصدق الوعد لأنه حفظ العهد .

وقوله: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ٤١] .

فالصديق كثير الصدق ، لا يشوب صدقه مذق يعنى لا تشوب صدقه شائنه فهو صدق خالص لا يخالطه زيف ولا كذب ، ويكون قائماً بالحق للحق ، ولا يكون فيه نفس لغير الله .

ويتمدح القرآن هذه الخصلة في أكثر من سورة ، وأكثر من آية في كتابه العزيز ، فيقول في موطن اخر من كتاب الله : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (٨٤) ﴿ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ (٨٥) [سورة الشعراء: ٨٤: ٨٥]

والمعنى : واجعل لي ذكرا حسنا ، وثناء عاطرا فيمن يأتى بعدى إلى يوم القيامة ، أذكر به ، ويقضى بى . يقول أهل العلم : " وفي الآية دليل على استحباب كسب الذكر الجميل اذ هو الحياة الثانية ، وأنشدوا : قد مات قوم وهم في الناس أحياء ويقول " ابن عباس - " رضى الله عنهما - :
" هو اجتماع الأُم عليه ، فكل أمة تتمسك به وتعظمه .

ويقول الله - عز وجل - في الصدق : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (٨٤) ﴿ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ (٨٥) [سورة الشعراء: ٨٤: ٨٥]

وهى دعوة تدفعه اليها الرغبة في الامتداد لا بالنسب ، ولكن بالعقيدة فهو يطلب إلى ربه أن يجعل له فيمن يأتون أخيراً لسان صدق يدعوهم إلى الحق ويردهم إلى الحنيفية السمحاء ، وهى " دين إبراهيم " - عليه السلام - .

ولعلها هى دعوته في موضع آخر ، اذ يرفع قواعد البيت الحرام هو وابنه " إسماعيل " - عليه السلام - ثم يقول : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٠٧) ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة البقرة: ١٢٨: ١٢٩]

وقد استجاب الله له ، وحقق دعوته ، وجعل له لسان صدق في الاخرين وبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكئهم .

وكانت الاستجابة بعد آلاف السنين ، وهى في علاف الناس أمد طويل وهى عند الله أجل معلوم تقتضى حكمته أن تتحقق الدعوة المستجابة فيه .

ويقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - : " يعنى الثناء الحسن " .
ويقول " مجاهد " - رضى الله عنه - : " كقوله تعالى : " ... وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ... " ،

ومثل قوله تعالى: " ...وَأَتَيْنَتْهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا ... " ، وأنعم عليَّ فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى ، وفى الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم^(١) .
 ويقول الله سبحانه فى معنى الصدق : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٣]
 والمعنى : فليعلمن الله الذين صدقوا فى دعوى الإيمان ممن هو كاذب فى قوله ، ودعواه ، والله - سبحانه وتعالى - يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ، وبهذا يقول " ابن عباس " - رضى الله عنهما - وغيره فى مثل قوله " الا لنعلم " إلا لنرى .
 وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود .

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ، ولكن الابتلاء يكشف فى عالم الواقع ما هو مكتشف لعلم الله . مغيب عن علم البشر ، فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا مجرد ما يعلمه - سبحانه وتعالى - من أمرهم .
 وهو فضل من الله من جانب وعدل من جانب آخر ، وتربية للناس من جانب ، فلا يأخذوا أحداً إلا بما استعلن من أمره ، وبما حققه فعله ، فليسوا بأعلم من الله بحقيقته قلبه . ويقول بعض المفسرين فى معنى هذه الآية :
 " ولقد أخبرنا ، وامتحننا من سبقهم بأنواع التكاليف ، والمصائب والمحن .

يقول " البيضاوى " : " والمعنى أن ذلك سنة قديمة جارية فى الأمم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافه ﴿... فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٣] .
 فليتلقن علمه بالامتحان تعلقاً حالياً يتميز به الذين صدقوا فى الإيمان والذين كذبوا فيه

1- تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ١٨٢ ، ص ٣٣٨ .

□ تفسير الطبرى ج ١٦ ، ص ٩٣ .

□ البحر المحيط ج ٦ ، ص ٦٩٩ .

□ مختصر تفسير ابن كثير ج ٢ ، ص ٤٥٦ .

□ حاشية الصاوى على الجلالين ج ٣ ، ص ١٧٥ .

□ تفسير القرطبي ج ١٣ ، ص ١١٤ .

□ تفسير الطبرى ج ١٩ ، ص ٥٥ .

□ فى ظلال القرآن الكريم للامام الشهيد سيد قطب ج ٥ ، ص ٢٦٠٤ .

□ مفاتيح الغيب للرازى ج ١٠ ، ص ٤٦٤ وما بعدها .

□ لطائف الاشارات ج ٢ ، ص ٤٣٣ .

وينوط به ثوابهم وعقابهم ولذلك قيل المعنى وليميزن أو ليجازين ، أي وليعرفنهم الله الناس وأليسمنهم بسمة يعرفون بها يوم القيامة كبيض الوجوه وسوادها . وعبر عن الصادقين بلفظ " الفعل " "الذين صدقوا " ، وعن الكاذبين " باسم الفاعل " وذلك للإشارة إلى أن الكاذبين وصفهم مستمر ، وأن الكذب راسخ فيهم بخلاف الصادقين فإن الفصل يفيد التحدد والحدوث .

ويقول الامام " الفخر الرازي " : " إن اسم الفاعل فائدة مع أن الاختلاف في اللفظ أدل على الفصاحة ، وهي أن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضي لا يدل عليه كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الأمر فإنه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك إذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالإسلام في أوائل إيجاب التكليف وعن قوم مستديمين للكفر مستمرين عليه فقال في حق المؤمنين .

ويقول الله - عز وجل - فى معنى الصدق: ﴿لَسَّ لَ الصَّادِقِينَ عَن صَدَقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٨] ومعناه ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الصادقين عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم . يقول " الصاوى " : " والحكمة في سؤال الرسل مع علمه تعالى بصدقهم هو: التقيح للكافرين يوم القيامة ، وتبكيتهم .

ويقول " القرطبي " : " وفي الآية تنبيه على أن الأنبياء يسألون ، فكيف بمن سواهم؟ وقال مجاهد أيضاً : " ليسأل الصادقين " ، أراد المؤيدين عن الرسل . . وسؤال الرسل تبكيت للكافرين بهم ، كما قال تعالى لعيسى - عليه السلام - :

" أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِن دُونِ اللّهِ " وقال تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ٦] أن الله أكد على الأنبياء الدعاء إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين . ﴿... وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٨]

يعنى : وأعد الله للكافرين عذاباً مؤلماً موجعاً ، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم عن قبول الحق والصادقون هم المؤمنون .

فهم الذين قالوا كلمة الصدق ، واعتنقوا عقيدة الصدق ، ومن مواهم فهو كاذب ، لأنه يعتقد بالباطل ، ويقول كلمة الباطل ، ومن ثم كل كان هذا الوصف دلالتة وإحاطه ،

وسؤالهم عن صدقهم يوم القيامة كما يسأل المعلم التلميذ النجيب الناجح عن إجابته التي استحق بها النجاح والتفوق ، أمام المدعويين لحفل النتائج ، وهو سؤال التكريم ، وللإعلان على رؤوس الأشهاد وبيان الاستحقاق ، والثناء على المستحقين للتكريم في يوم الحشر العظيم .

فأما غير الصادقين الذين دانوا بعقيدة الباطل ، وقالوا كلمة الكذب في أكبر قضية يقال فيها الصدق ، أويقال فيها الكذب " قضية العقيدة " .

فأما هؤلاء فلهم جزء آخر حاضر مهياً لهم ، ينتظرهم وهو المعنى والمقصود في قوله - سبحانه وتعالى -:

﴿لَسْئَلُ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿٨﴾ [الأحزاب: ٨]

ويقول الله تعالى في معنى الصدق أيضا :- ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ عَافُوًا رَّحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٤: ٢٥]

والمعنى : ولقد كان من أولئك المؤمنين رجال صادقون ، نذروا أنفسهم إذا أدركوا حربا مع رسول الله - ﷺ - ثبتوا ، وقاتلوا حتى ينالوا ثواب الشهادة في سبيل الله ، ومرضاة الرسول - ﷺ - . فمنهم من وفي نذره وعهده حتى نال الشهادة في سبيل الله مثل "أنس بن النضير" و" حمزة " - رضی الله عن الصحابة أجمعين - .

ومنهم من ينتظر الشهادة في سبيل الله ، وما غيروا عهدهم ، وما بدلوا نياتهم ، ليجزى الله الصادقين بسبب صدقهم ، وحسن صنيعهم أحسن الجزاء في الآخرة ، ويعذب المنافقين الناقضين للعهد إن الله واسع المغفرة ، رحيمًا بعباده .

يقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - : " ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى هي الغالبة لغضبه ، حتم بها الآية الكريمة . وبالتأمل في هذه الآية نجد أن الله - عز وجل - بين لنا صفات المجاهد في سبيل الله .

وهي :-

أولا : الإيمان . فقال تعالى " مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ "

ثانيا : الرجولة . حيث قال - سبحانه وتعالى - : " رِجَالٌ "

ثالثا : الصدق في تنفيذ العهود .

فقال تعالى : " صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ " .

فمنهم من وفي وقضى نحبه واستشهد في سبيله - سبحانه وتعالى - ومنهم من ينتظر أن يلقي الله شهيداً ، وما بدلوا عهدهم ، وما غيروا نياتهم فلذلك نالوا الأجر الجزيل من الله تعالى في الدنيا بالسيرة العطرة ، والأسوة الحسنة ، وفي الدار الآخرة الفوز بجنتات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وحسنت مرتفقا .

ويقول الامام " الفخر الرازي " - ؛ " والآية إشارة إلى وفائهم بعهدهم الذي عاهدوا الله أنهم لا يفارقون نبيه إلا بالموت فمنهم من قضى نحبه أي قاتل حتى قتل فوفى بنذره والنحب النذر ومنهم من هوبعد في القتال ينتظر الشهادة وفاءً بالعهد وما بدلوا تبديلاً بخلاف المنافقين ، فإنهم قالوا : لا نولي الأديبار فبدلوا قولهم وولوا أديبارهم ، وقوله : " لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ "

أي بصدق ما وعدهم في الدنيا والآخرة كما صدقوا مواعيدهم ويعذب المنافقين الذين كذبوا واخلفوا الله ما وعده .

وقوله : " والله إن شاء " ذلك فيمنعهم من الإيمان أو يتوب عليهم إن أراد وإنما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبي - عليه الصلاة والسلام - عن إيمانهم وأمن بعد ذلك ناس منهم وقوله : " اللَّهُ كَانَ غَفُورًا "

حيث ستر ذنوبهم و"رَحِيمًا " حيث رحمهم ورزقهم الإيمان فيكون هذا فيمن آمن بعده أوفقال تعالى : " وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ " مع أنه كان عفورا رحيماً لكثرة ذنوبهم وقوة جرمهم ولو كان دون ذلك لغفر لهم ثم بين بعض ما جازاهم الله به على صدقهم . ثم يبين الله - عز وجل - بعض ما جازاهم الله لصدقهم .

فقال : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٥]

أي مع غيظهم لم يشفوا صدراً ولم يحققوا أمراً .
{ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ } أي لم يحوجهم إلى قتال " وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا " غير محتاج إلى قتالهم عزيزاً قادراً على استئصال الكفار وإذلالهم .

هذا جزء الصدق وثواب الصادقين ، فهم مثلٌ علياً ، ونماذج من طُرزٍ فريد (١) .

1 - التفسير الكبير ج ١٢ ، ص ٥٨٥ بتصرف .

♦ مختصر ابن كثير ج ٣ ، ص ٨٨ بتصرف .

♦ حاشية الصاوي ج ٣ ، ص ٢٧٠ .

♦ مختصر ابن كثير ج ٣ ، ص ٨٩ بتصرف .

♦ صفوة التفاسير للصابوني ج ٢ ، ص ٥٢١ بتصرف .

ويقول الله - عز وجل - في معنى الصدق أيضا: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (سورة الزمر: ٣٤) والمعنى: وأما الذين جاءوا بالصدق وهم الأنبياء، والذين صدقوا به وهم المؤمنون أتباع الرسل، فهؤلاء المصدقون بهذه الصفات هم المتقون، أهل التقوى والصلاح الذين يستحقون كل إحسان وإكرام. هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الحميدة لهم ما يشاءون عند ربهم في الآخرة من حور عين، وقصور ونعيم مقيم إلى غير ذلك من ألوان الميزات وصفوف النعيم، حيث إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على فكر بشر. قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٥) وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُمَاتُهَا تَنَاقُصُ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (سورة الرعد: ٣٥) وذلك جزاء الصادقين والمحسنين.

ويقول بعض المفسرين: "الذي جاء بالصدق هو" محمد - ﷺ -، وصدق به "أبو بكر" - رضى الله عنه -، وهذا مروى عن مجاهد وقتادة، ويقول السدى هو: جبريل - عليه السلام -، والصحيح والراجح أن الآية عامة في الانبياء والرسل والمؤمنين، فهي عامة حتى يشترك في هذه الصفة كل الرسل الكرام، وكل من دعا إلى هذا الصدق عن عقيدة وإيمان من أتباع الرسل - عليهم السلام -، ويدل عليه قوله - سبحانه وتعالى -: "أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ".

ولذلك نرى قوله - سبحانه وتعالى -: "هُمُ الْمُتَّقُونَ" أنت بصيغة الجمع. وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: "وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ" قال: من جاء بلا إله إلا الله، "وَصَدَّقَ بِهِ" يعني: رسول الله - ﷺ - وعن مجاهد أنه قال: والذي جاء بالصدق وصدق به، قال: "أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة فيقولون هذا ما أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا ويشمل كل المؤمنين فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به والرسول - ﷺ - أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير فإنه جاء بالصدق، وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه، ورسله وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:

" والذي جاء بالصدق " هورسول الله - ﷺ - " وصدق به " قال المسلمون " أولئك هم المتقون " .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : اتقوا الشرك .

﴿ هُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ... ﴾ يعني في الجنة مهما طلبوا وجدوا ، ﴿... ذَلِكَ جَزَاءُ

﴿ [سورة الزمر: ٣٥]

كما قال - عز وجل - في الآية الأخرى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَّجِرُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [سورة الأحقاف: ١٦] .^(١)

فالاسلام يحث ويحض المسلم على الصدق في جميع أقواله وأفعاله فإن الحيف في الشهادة مثلا يعد من أشنع ألوان الكذب ، فمن الواجب على المسلم أن يصدق في الشهادة ولو كان ذلك على أدنى الناس منه قرابة ، وأحبهم إليه لا تميل به قرابة ، ولا عصبية ، ولا رغبة ولا رهبة . فتزكية المرشحين مثلا لعضوية مجلس الشورى أو مجلس الشعب ، أو منصب من المناصب العامة يعد لونا من ألوان الشهادة ، فالذى ينتخب المغموط في كفايته ، وأمانته ، فقد كذب وزور ولم يقم بالقسط والعدل ، كما أن التقارير التى يكتبها أى مسئول مثل التقارير التى تكتب في الأشخاص الذين يتقدمون لشغل درجات علمية ، أو مناصب قيادية كالقضاء والنيابة والكلديات العسكرية ، وهى شهادة يسأل عنها امام الله يوم القيامة إذا ما زور في تقريره وكتب له أشياء لا يملكها المتقدم لشغل هذا المنصب كما نرى في عصرنا هذا . يقوم بكتابة تقرير يثبت فيه أن هذا المتقدم يملك حيازة لأكثر من عشرين فدانا ، أو حظيرة خيول ، وعقارات ، وعمارات وهو لا يملك من حطام الدنيا شيئا . فتلك الأمور تزوير وحيف وجور وظلم لأنه بذلك التقرير ربما يشغل مقعدا كان من الواجب أن يشغله غيره ، فبالتقارير الظالمة يقع الجور والظلم وهو منافٍ للصدق الذى يجب أن يتخلق به المؤمن .

قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُوتًا قَوْمِينَ بِأَلْقُسُطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانِ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [سورة النساء: ١٣٥]

1 - تفسير ابن كثير ج ٤ ، ص ٣٥ - ٥٤ .

□ صفوة التفاسير للصابوني ج ٣ ، ص ٧٩ - ٨٠ .

وعن أبي بكره - رضی اللہ عنہ - قال : " قال رسول اللہ - ﷺ - :
" أَلَا أُنبئُكُمْ بِأكْبَرِ الكَبَائِرِ . "

ثَلَاثًا . قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ .

قَالَ « الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعَقُوقُ الوَالِدَيْنِ . »

وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَكِنًا فَقَالَ « أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ . »

قَالَ فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ (١) .

إن التزوير كذب كثيف الظلمات . إنه لا يكتم الحق فحسب ، بل يحقه ليثبت مكانه الباطل ، وخطره على الأفراد في القضايا الخاصة ، وخطرة على الأمم في القضايا العامة شديد مُبيد .

ومن ثم خوَّف رسول الله - ﷺ - منه على هذا النحو الصارخ ، وعلى أرباب الحرف والصناعات ، أن يجعلوا من كلمتهم قانونا مرعى الجانب يقضون عنده ، ويستمسكون به ، فإنه لمن المؤسف أن تكون الوعود المخلفة ، والحدود المانع عادة مأثورة عن كثير من المسلمين ، مع أن دينهم جعل الوعود الكاذبة أمارة النفاق . وقد كان رسول الله - ﷺ - يقدس الكلمة التي يقول ، ويحترم الكلمة التي يسمع ، وكان ذلك شارة الرجولة الكاملة فيه ، حتى قَبِلَ أن يُرسل إلى الناس .

فمن " عبد الله بن أبي الحمساء " قال : " بايعت النبي - ﷺ - ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية فوعده أن آتية بها في مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو في مكانه .

فقال : " يا فتى لقد شققت علي أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك " (٢) .

وحدث أن الرسول ، وعد جابر بن عبد الله بعبء ، فقال جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ - رضى الله عنهما - قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -

« لَوْ قَدْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ لَقَدْ أُعْطَيْتَكَ هَكَذَا وَهَكَذَا ثَلَاثًا . »

فَلَمْ يَقْدَمْ مَالُ الْبَحْرَيْنِ حَتَّى فُيْضَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - - فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ أَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ - ﷺ - دَيْنٌ أَوْ عِدَّةٌ فَلْيَأْتِنِي .

قَالَ جَابِرٌ فَجِئْتُ أَبَا بَكْرٍ ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - - قَالَ « لَوْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أُعْطَيْتَكَ هَكَذَا وَهَكَذَا ثَلَاثًا . » قَالَ فَأَعْطَانِي .

1- رواد البخارى .

2- رواد ابوداود .

قَالَ جَابِرٌ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ فَسَأَلْتُهُ ، فَلَمْ يُعْطِنِ ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَلَمْ يُعْطِنِ ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَالْتَمَسْتُهَا فَلَمْ يُعْطِنِ ، فَقُلْتُ لَهُ قَدْ أَتَيْتُكَ فَلَمْ تُعْطِنِ ، ثُمَّ أَتَيْتُكَ فَلَمْ تُعْطِنِ ، ثُمَّ أَتَيْتُكَ فَلَمْ تُعْطِنِي ، فَمَا أَنْ تُعْطِنِي ، وَإِمَّا أَنْ تَبْخَلَ عَنِّي .
فَقَالَ أَقُلْتَ تَبْخَلَ عَنِّي وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ - قَالَهَا ثَلَاثًا - مَا مَنَعْتُكَ مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيكَ .

وَعَنْ عَمْرٍو عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ جِئْتُهُ ، فَقَالَ لِي أَبُو بَكْرٍ عَذِّهَا .

فَعَدَدْتُهَا فَوَجَدْتُهَا خَمْسَمِائَةَ ، فَقَالَ خُذْ مِثْلَهَا مَرَّتَيْنِ . أطرافه (١) .

أنظر أخى المسلم كيف توزن الكلمة ، ويوجب تنفيذها حتى لا تذهب هباءً مع اللغو الضائع ، على أن الوعود الكاذبة ليست فقط كلاماً يذهب سدى ولكنها خرق للمصالح، وإضرار بالناس ، وإهدار للأوقات ، وليس صدق الوعد خلة تافهة ، إنها محمودة ذكرها الله - عز وجل - في مراتب النبوة قال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤ ﴾ وكان يأمر أهله، بالصلاة والزكاة وكان عنده ربه مرضياً ﴿ ٥٥ ﴾ [سورة مريم: ٥٤: ٥٥]

وسرد الصفات على هذا النحو والترتيب يدل على ما لصدق الوعد من مكانة ، ولقد كان " إسماعيل " - عليه السلام - أصدق الناس وعدا حين قال لأبيه : " ستجدنى إن شاء الله من الصابرين " .

لما قال له أبوه : ﴿ ...إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبُحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ٥٣ ﴾ [سورة الصافات: ١٠٢]

وقد يندفع الإنسان إلى الكذب حين يعتذر عن خطأ وقع فيه ، ويحاول التملص من عواقبه ، وهذا غباء وهوان ، وهوفرار من الشر إلى مثله أو أشد والواجب أن يعترف الإنسان بغلطله ، ففعل صدقه في ذكر الواقع ، وألمسه لما بدر منه يمسخان هفوته ، ويغفران ذلته ، ومهما هجس في النفس من مخاوف - إذا قيل الحق - فالأجدر بالمسلم أن يتشجع ، وأن يتحرج من لوثات الكذب ، قال رسول الله - ﷺ - :
" تحروا الصدق وإن رأيتم فيه الهلكة فيه ، فإن فيه النجاة " (٢) .

1- رواه البخارى .

2- رواه ابن ابى الدنيا

وقال - ﷺ -: " إذا ما كذب العبد تباعد الملك عنه من نَتَنٍ ما جاء به " (١) .

والصدق في الاقوال يتأدى بصاحبه إلى الصدق في الأعمال ، والصلاح في الأحوال ، فإن حرص الإنسان على التزام الحق فيما ينطق به يجعل ضياء الحق يسطع على قلبه ، وعلى فكره ولذلك يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠:٧١]

والعمل الصادق هو العمل الذي لا ريبه فيه لأنه وليد اليقين ، ولا هوى معه لأنه قرين الاخلاص ، ولا عوج عليه لأنه نبع من الحق ، ونجاح الأمم في أداء رسالتها يعود إلى جملة ما يقدمه بنوها من أعمال صادقة .

فإن كانت ثروتها من صدق العمل كبيرة ، سبقت سبقاً بعيداً ، والا سقطت في عرض الطريق ، فإن التهريج واللغط ، والادعاء والهزل ، لا تغني قليلاً عن أحد .

وفي فضيلة الصدق يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات: ١٥]

والمعنى : إنما المؤمنون الصادقون في دعواهم الإيمان ، هم الذين صدقوا الله ورسوله ، فأقروا الله بالوحدانية ولسوله بالرسالة وذلك عن يقين راسخ وایمان كامل ، ثم لم يشكوا ، ولم يتزلزلوا في ايمانهم ، بل ثبتوا على التصديق واليقين ، وبدلوا أموالهم في سبيل الله ، وابتغاء رضوان الله تعالى .

فأولئك الذين صدقوا في إيدعاء الإيمان ، وقد وصف الله تعالى المؤمنين الكاملين بثلاثة أوصاف وهي :

☒ الصفة الاولى : التصديق الجازم بالله .

☒ الصفة الثانية : عدم الشك والارتياب .

☒ الصفة الثالثة : الجهاد بالمال والنفوس .

فمن جمع هذه الأوصاف فهو المؤمن الصادق .

يقول "ابن كثير": " إنما المؤمنون الكمل " الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ."

أي لم يشكوا ولا تزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة هي التصديق المحض " وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله " أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه .
" **أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** " .

أي في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة .

وعن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال : إن النبي - ﷺ - قال : " المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء :

أولاً ، الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

ثانياً ، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم .

ثالثاً ، والذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل " .

وقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ **قُلْ أتعَلِّمُونَهُ اللَّهُ بِدِينِكُمْ...** ﴾ [سورة الحجرات: ١٦]

أي أنخبرونه بما في ضمائرهم . " والله يعلم ما في السموات وما في الأرض " .

أي لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

" والله بكل شيء عليم " .

ويقول الله تعالى : " **يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ** " . والمعنى : يبنون

عليك أن اسلموا ، ويعنى بذلك الأعراب الذين يبنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على

الرسول - ﷺ - .

وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم عشر مرات ، ست آيات في سورة " التوبة "

وآياتان في سورة " الفتح " ، وآية في " الحجرات " والعاشرة في سورة " الأحزاب " .

وقد أجمع المفسرون أن المراد بالأعراب هم سكان البوادي الذين يتفردون بالغلظة

وجفاء الطبع ، وقساوة الافئدة ، ولذلك لم يبعث الله فيهم نبياً ولا رسولاً ، بل كانت البعثة

في أهل القرى .

يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحي إِلَيْهِمْ مِنْ**

أَهْلِ الْقَرْيَةِ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ

الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة يوسف: ١٠٩]

وقال - ﷺ - : " من سكن البادية جفى " .

هؤلاء الإعراب الذين يبنون بإسلامهم ونصرهم على الرسول - ﷺ - فيقول الله ردا

عليهم . " **قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ** " .

فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ، ولله المنة عليكم فيه ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين في دعواكم مثل ما قال النبي - ﷺ - "لأنصاريوم حنين" : " يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ " .

فكلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمن .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله - ﷺ - .

فقالوا : يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك .

فقال رسول الله - ﷺ - : " إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم " .

فنزلت هذه الآية : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة الحجرات: ١٧]

فالمراد : أن هؤلاء يعدون إسلامهم منة على سيدنا محمد - ﷺ - يستوجبون

عليها الحمد والثناء ، فقل لهم : " لا تمنوا عليّ إسلامكم " .

فإن نفع إسلامكم يعود عليكم ، ولله المنة العظمى عليكم ، وذلك بالهداية للإيمان ،

والتثبيت عليه ، إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان (١) .

ويقول الله في فضيلة الصدق : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ

الْجَحِيمِ ﴾ [سورة الحديد: ١٩]

والمعنى : تلك خاصية هذا الدين ، وميزته . إنه طريق مفتوح لجميع البشر وأفق

يتطلع إليه الجميع ، ليس فيه احتكار للمقامات وليس فيه خصوصيات محجوزة لناس

بأعينهم ، وليس إلا العمل يصعد بصاحبه إلى أرقى الدرجات ؟

إنه دين لا مجال فيه للطبقات المحفوظة المقام . فقد روى الامام " مالك "

في " الموطأ " عن صفوان بن سليم ، عن عطاء بن يسار : " قال : " إن أهل الجنة ليتراوون أهل

الغرف من فوقهم كما تتراوون الكوكب الدرى الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ،

لتفاضل ما بينهم " . قالوا يا رسول الله : " تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم .

قال : " بلى ، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين " فهذه لمسة

الإيمان .

1- تفسير ابن كثير ج ٤ ، ص ٢١٩ وما بعدها بتصرف .

□ صفوة التفاسير للصابوني ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ بتصرف .

ويقول بعض المفسرين: "والذين آمنوا برسله إيماناً راسخاً كاملاً لا يخالجه شك ، ولا ارتياب أولئك الموصوفون بهذه الصفات هم الذين جمعوا أعلى المراتب فحازوا درجة الصديقة .

ويقول الله تعالى فى فضيلة الصدق :- ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [سورة الحشر: ٨]

والمعنى : يقول الله تعالى مبينا حال الفقراء المستحقين لمال الغنى والغنائم ، الذين خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضات الله ورضوانه .

هؤلاء هم الذين صدقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين (١) .

وهذه الآية تتعلق بالآية السابقة التى تحكى حكم الفئى كأنه يقول : " الفيء والغنائم لهؤلاء الفقراء المهاجرين الذين ألجأهم كفار مكة إلى الهجرة من أوطانهم ، فتركوا الديار والأموال ابتغاء مرضات الله ورضوانه وهم يقصدون بهجرتهم هذه إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ، وتأيد رسول الله - ﷺ - فهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الحميدة هم الصادقون فى ايمانهم .

يقول " قتادة " - رضى الله عنه - هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهل والوطن حبا لله ورسوله ، حتى إن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع . هؤلاء هم الصادقون فى الإيمان الفارون بدينهم من الأوطان فى سبيل الله ونصرة دينه ، وتأيد نبيه - ﷺ - ذلك هو الصدق الحق فى القول والعمل ، فإن أفعالهم كانت دليلاً حاسماً على صدق ايمانهم ، وثبات عقيدتهم ورباطة جأشهم ، وتضحيتهم بكل غالٍ ومرتخص فى سبيل هذا الدين العظيم ، الذى عم الكون نوره ، وأضاء الدنيا بالحق والعدل والخير ، والحب ، والصدق ، والجمال . إنه الإسلام (٢) .

1 - فى ظلال القرآن الكريم ، ج ٦ ، ص ٣٤٩٠ بتصرف .

□ تفسير البحر المحيط .

□ تفسير مختصر ابن كثير .

□ تفسير الخازن .

2 - تفسير القرطبي ج ١٨ ، ص ١٩ - ٢٠ بتصرف .

□ تفسير الخازن ج ٤ ، ص ٦٢ .

□ صفوة التفاسير ج ٣ ، ص ٣٥١ بتصرف .

□ تفسير ابن كثير ج ٤ ، ص ٣٣٧ بتصرف .

□ خلق المسلم للمغفور له الشيخ محمد الغزالي ج ٣١ وما بعدها بتصرف .

" درء السيئة بالحسنة "

ومن الأخلاق التي وجهنا إليها القرآن " درء السيئة بالحسنة " وهي خلة المؤمنين الاتقياء ، وصفة المسلمين الأصفياء ، الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .

فيقول الحق سبحانه :- ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الرعد: ٢٢] والمعنى : "والذين صبروا على المكاره ابتغاء مرضاة الله وأدوا الصلاة المفروضة في أوقاتها " ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً " وانفقوا من أموالهم في سبيل الله ، تلك النفقة التي أوجبها الله عليهم في الخفاء والعلانية ويدفعون الجهل بالحلم ، والأذى بالصبر ، يقول بن عباس . رضى الله عنهما . " يدفعون بالعمل الصالح السيء من الأعمال " والمعنى أنهم يفعلون الحسنات ليدرءوا بها السيئات . ويقول بن عباس . رضى الله عنهما . " يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم " .

والمراد بالإنفاق سراً وعلانية ، سراً يكون بينه وبين ربه سبحانه ، وعلانية بحيث يراه الناس ، وذلك ليكون أسوة حسنة لهم ، لا فخراً ورياءً . سواء كان الإنفاق واجب على المسلم مثل الإنفاق على الزوجة ، والولد ، والأقارب ، والفقراء ام مندوباً مثل الإنفاق على الفقراء ، والمعوزين ، والمحتاجين من الأجانب .

ومنه قوله - ﷺ - لسيدنا معاذ بن جبل . رضى الله عنه . " واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن " أولئك لهم عقبى الدار يعنى لهم العاقبة الحسنة المحمودة في الدار الآخرة ، والفوز برضوان الله سبحانه وهو الجنة . يقول الله تعالى :- ﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ [سورة الرعد: ٢٣] والمراد جنات إقامة خالدة يدخلها أولئك الأبرار ، ومن كان صالحاً من آبائهم ونسائهم ، وأولادهم ، وذلك للأنس بهم ، وفيهم السرور بهم ، حتى ولو لم يكونوا لا يستحقون هذه المنزلة بأعمالهم ، فيرفع الله منازلهم إكراماً لأولئك ، وذلك فضل الله الذي يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، والكرم العميم ، ثم إن لهم إكراماً آخر بينه الله سبحانه في قوله تعالى :-

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٤﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الرعد: ٢٣: ٢٤] اى والملائكة يدخلون عليهم للتهنئة من كل باب من ابواب الجنة يقولون لهم " سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ " يعنى لقد سلمتم من الجن ونجوتهم من

المحن وذلك بصبركم الجميل " فصبر جميل " في الدنيا ، فلئن كنتم أوديتم في الدنيا فلقد استرحتم في هذا اليوم يوم لقاء الله سبحانه ، والفوز برضوانه ، وتلك بشارة بدوام السلامة فنعمتهم العافية الحميدة وهي عاقبتكم وهي الجنة .

يقول ابن كثير -رحمه الله- يقول الله تعالى مخبراً عمّن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار ، وهي العافية والنصرة في الدنيا والآخرة يقول سبحانه :- ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ [سورة الرعد: ٢٠]

وليسوا مثل المنافقين الذين إذا عاهد أحدهم عَدَر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان . الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل من صلة الأرحام والإحسان إليهم ، وإلى الفقراء ، والمحتاجين ، وبذل المعروف ، ويخشون ربهم فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، ويراقبون الله في ذلك ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة .

لهذا أمرهم بالاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم ، وجميع أحوالهم والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم عن المحارم والمنكر ، واجتراح السيئات واقتراف الآثام ، فامتنعوا عنها ونأوا عن ارتكابها ابتغاء مرضاة الله سبحانه ، وانفقوا من أموالهم على من يجب عليهم الانفاق من الأجانب ، والأقارب من الفقراء والمحاويج ، والمعوزين ، والمساكين ، وأبناء السبيل ، سراً وعلانيةً مع دفعهم القبح بالحسن ، ومقابلة المنكر بالمعروف ، صبراً ، واحتمالاً ، وعفواً ، وصفحاً .

يقول تعالى: ﴿.....أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [سورة فصلت ٣٤: ٣٥]

ولهذا قال الله سبحانه عن هؤلاء السعداء في الدار الآخرة ، والذين اتصفوا بهذه الصفات الحميدة الجميلة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله تعالى :- ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَأَنْزَلْنَاهَا مِنْ أَسْفَلِ سُهُبٍ مِزْجًا مِنْ دُرٍّ يَلْمِزُهَا وَالسَّيِّدَاتُ يَنْزِلْنَ عَلَيْهِنَّ مِنَ السَّمَاءِ مِزْجًا خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الصَّابِرِينَ ﴾ [سورة الرعد: ٢٣: ٢٤]

ومعنى " عدن " العدن هي الإقامة الدائمة .
يعنى جنات إقامة دائمة مستمرة لا تنقطع عنهم ، وهم فيها خالدون .
وعن سيدنا " عبد الله بن عمرو" .رضى الله عنهما - قال : " إن في الجنة قصر يقال له عدن حوله البروج والبروج فيه خمسة آلاف باب ، على كل باب خمسة آلاف حيرة لا يدخله إلا نبي ، أو صديق ، أو شهيد . ويقول الضحاک جنات عدن مدينة الجنة ، فيها الرسل ، والأنبياء ، والشهداء وأئمة الهدى ، والناس حولهم بعد ، والجنات حولها ، ويجمع

اللّه بينهم ، وبين أحبابهم فيها من الآباء ، والأهلين ، والأبناء فمن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، وذلك لتقر أعينهم بهم ، حتى انه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتنانا من اللّه وإحسانا من غير تنقيص للأعلى عن درجته.

كما قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِنْ عملِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [سورة الطور: ٢١] وقوله سبحانه: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ [سورة الرعد: ٢٣: ٢٤] صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

فالملائكة يدخلون عليهم للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم الجنة تفد عليهم الملائكة مهنيين لهم بما حصل لهم من اللّه من التقريب والإنعام ، والإقامة فى دار السلام ، فى جوار الصديقين ، والأتقياء والرسل الكرام .

عن عبد الله عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - انه قال :-

" هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق اللّه ، الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور ، وتنقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء .

فيقول اللّه تعالى لمن يشاء من ملائكته " اتئوهم فحيوهم " فيقول الملائكة نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ونسلم عليهم ؟ فيقول اللّه تعالى لملائكته إنهم كانوا عباداً يعبدونى لا يشركون بى شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتنقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، قال فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [سورة الرعد: ٢٤].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى اللّه عنهما - عن النبى - ﷺ - قال " أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تنقى بهم المكاره ، واذا أمرؤ سمعوا وأطاعوا ، وان كانت لرجل منهم حاجة الى سلطان لم تقض حتى يموت وهى فى صدره ، وان اللّه يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها فيقول أين عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى ، وأوذوا فى سبيلى وجاهدوا فى سبيلى ، ادخلوا الجنة بغير عذاب ، ولا حساب ، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ، ونقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟

فيقول الرب - عز وجل - هؤلاء عبادى الذين جاهدوا فى سبيلى ، وأوذوا فى سبيلى ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم فنعم عقبى الدار ، وفى الحديث أن رسول

اللَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم: ﴿سَلِّمُوا عَلَيَّ بِمَا صَدَرْتُمْ فَنِعْمَ عَقَبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الرعد: ٢٤] وفي ذات المعنى يقول الله - عز وجل - ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٩٦].
والمعنى: ادفع إساءتهم بالصفح والعفو عنهم، وتحمل بمكارم الأخلاق.

يقول ابن كثير - رحمه الله - أرشده الى الترياق النافع من مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسيء اليه ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، وهو كما قال في آية أخرى: ﴿.....ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ وما يلقنهما إلا الذين صبروا وما يلقنهما إلا ذو حظٍ عظيمٍ ﴿[سورة فصلت: ٣٤: ٣٥]

يعنى وما يلهم هذه وتلك الصفة إلا الذين صبروا على أذى الناس فعاملون بالاحسان مع أنهم أسدوا إليهم العمل السيء القبيح، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم في الدار الآخرة. ﴿.....نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٩٦]

يعنى نحن أعلم بحالهم وما يكون منهم من التكذيب، والاستهزاء وسيجازيهم عليه، والله سبحانه أرشدهم إلى الترياق النافع لهم في دنياهم، وفي آخرهم في مخالطتهم للناس، وهو إحسان المسلم لمن يسيء إليه، حتى تعود عداوته صداقة، وعذفه لنا، وبغضه محبة، وكراهيته مودة، يقول الشاعر:

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسان إحسان

هكذا يمضى القرآن الكريم في الحث على الخلق الفاضل، والذي يأخذ بيد المسلم إلى الطريق القويم، وبذلك يضمن له هذا الخلق حسن الخاتمة وذلك بدخول الجنة، وتحياء الملائكة المقربين في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها فنعم عقبى الدار^(١)

1 - سورة المؤمنون آية رقم ٩٦ .

- ♦ القرطبي ج ٩ ص ٣١١ .
- ♦ صفة التفاسير ج ٢ ص ٨١ .
- ♦ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ص ٥١٠ .
- ♦ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ص ٢٥٤ .
- ♦ مختصر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٧٣ .
- ♦ البحر المحيط ج ٦ ص ٤٢٠ .
- ♦ تفسير المراعى ج ٦ ص ٥٢ ، وج ٥ ص ٩٣ - ٩٥ .
- ♦ تفسير القرطبي ج ٥ ص ٣٥٣٩ وما بعدها .

كراهية المؤمن لإرتكاب الذنوب

ومن الأخلاق القرآنية العظيمة ، والتي يحث عليها ديننا الحنيف وإيماننا الظاهر ، وأنفسنا الذاكية ، وسنتنا المطهرة ، كراهية المؤمن لارتكاب الذنوب ، واقتراف الآثام ، واجتراح السيئات ، وكسب المناكر ، لذا يقول الحق- سبحانه وتعالى- في محكم كتابه الكريم :- ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنُّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٣٣]

والمعنى إن دخول السجن أهون عليّ وأسهل من الوقوع في المعصية لا ان دخول السجن مما يجب على التحقيق ، وحكي أن يوسف -عليه السلام - لما قال " السجن أحب إليّ " اوحى الله إليه يا يوسف أنت حبست نفسك حين قلت السجن أحب إليّ ، ولوقلت "العاقبة أحب إليّ لعوقبت " وإلا تصرف عنى كيد النسوان ، وقيل النسوة اللاتي رأينه ، فأنهن أمرنه بمطاوعة امرأة العزيز وقلن له " هي مظلومة وقد ظلمتها " وقيل طلبت كل واحدة ان تخلوبه للنصيحة في امرأة العزيز ، والقصد من وراء ذلك هو أن تعدله في حقها وتأمره بمساعدتها فلعله يجيب ، فصارت كل واحدة تخلوبه على حدة فتقول له " يا يوسف اقض لي حاجتي فأنا خير لك من سيدتك ، تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده .

فقال يوسف-عليه السلام- يارب كانت واحدة فصرن جماعة .

وقيل هو كيد امرأة العزيز فيما دعته اليه من الفاحشة ، وكنى عنها بخطاب الجمع. إما لتعظيم شأنها في الخطاب ، وأما ليعدل عن التصريح إلى التعريض ، والكيد هو الاحتيال ، والاجتهاد ، ولذلك سُمّيت الحرب كيداً وذلك لاحتيال الناس فيها ، قال الشاعر " عمرو بن لجأ " :

تراعت كي تكيدك أم بشر وكيد بالتبرج ما تكيد

ونحن نرى إن الراجح هو امرأة العزيز وجاءت صيغة الجمع للتعظيم لأنها امرأة الملك وهذا هو الأنسب فى هذا المقام ، وليس المراد جميع النسوة ، فهو من غير المعقول . "واصب إليهن " يعنى أميل إليهن.

يقول الشاعر :

الى هند صبا قلبى وهند مثلها يصبى

والمراد هوان لم تلتطف بى في اجتناب المعصية وقعت فيها ، وأكون ممن يرتكب الإثم ، ويستحق الذم ، أو أكون ممن يعمل عمل الجاهل ، ودل هذا على ان أحدا لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله ، ودل أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه .

ففي هذه الآية الكريمة نرى " يوسف " - عليه السلام - يلجأ إلى ربه ويناجيه فى تضرع ، وخشية وخشوع ، وتذلل فيقول رب السجن آثر عندي وأحب مما يدعوننى إليه من اقتراف الذنوب ، وارتكاب المنكر ، وأسند الفعل إليهن لأنهن جميعاً مشتركات حيث أردن مؤازرة امرأة العزيز بالتصريح ، أو التلميح ، فإن لم تدفع عنى سرهن ، وتعصمنى منهن أمل الى إجابتهن وذلك بمقتضى البشرية حيث أنه بشر ، ولديه الغريزة ، يقول علماء النفس إن الغريزة تنشط بوجود المؤثرات . وها هو ذا وجد المؤثر وهو امرأة العزيز التي تراوده ، وتطلب منه الفاحشة ، وأكن من الجاهلين بسبب ما يطلبونه منه من القبح ، وفعل المنكر ، وهذا كله على سبيل التضرع ، والاستغاثة بالله سبحانه ، وذلك كعادة الأنبياء - عليهم السلام - والصالحين ولا غرو فإن يوسف - عليه السلام - أعطى شطر الحسن ورأى النبى - ﷺ - يوسف - عليه السلام - في السماء الثالثة قال فاذا هو قد أعطى شطر الحُسن .

وعن ثابت بن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - " أعطى يوسف وأمه شطر الحسن " ، وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال " اعطى يوسف وأمه ثلث الحسن " ، وقيل كان وجه يوسف - عليه السلام - مثل البرق ، وكانت المرأة اذا أنته لحاجة غطى وجهه مخافة ان تفتن به وأعطى الناس الثلثين ، وقيل أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث .

ولهذا ثبت في الصحيحين ان رسول الله - ﷺ - قال : " سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا اليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما انفقت يمينه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه " وقد اجتمع في يوسف - عليه السلام - اكثر من خصلة فهو شاب ونشأ في طاعة الله ودعته ذات منصب وجمال ودعته إلى نفسها فخاف الله .

هذا خلق يجب أن يحتديه كل مسلم ، بل كل شاب وشابه ، يريد الاعتصام باللَّه ، فمن أراد العصمة من اقتراف الذنوب بنية خالصة وصادقة ، يسر الله له العصمة من الوقوع في الفاحشة وفي غيرها من المناكر، التي نهى الله عنها فنية المؤمن خير من عمله ، ويقول النبي - ﷺ - " إنما الاعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى " .

ويقول الإمام المراعى في تفسير هذه الآية " ربي أنت العليم بالسرور والنجوى ، والقدير على كشف تلك البلوى ، إن السجن الذى هددت به ، والمكث في بيئة المجرمين على شظف العيش ، ورقة الحال احب إلى نفسى مما يدعوا إليه اولئك النسوة من الاستمتاع بهن في ترف القصور والاشتغال بجهن عن حبك وبقربهن عن قريك ، حيث ان النسوة خوفنه مخالفتها ، فقلن هل: أطع مولاتك أنلها ما تهوى ، لتكفى شرها ، وتأمّن عقوبتها ، وان لم تبعد عنى شراك كيدهن ، وتثبتي على ما أنا عليه من العصمة ، أمل إلى موافقتهن على أهوائهن ، وأقع في شباك صيدهن ، وارتع في حماة غوايتهن ، ويلجأ يوسف- عليه السلام - إلى الطاف ربه ويسلك سبيل المرسلين من قبله في فزعهم الى مولاهم الحق- سبحانه وتعالى- لينيلهم الخيرات ، ويبعد عنهم الشرور والموبقات وإظهارهم أنه لا طاقة لهم إلا بمعونته سبحانه ، وذلك مبالغةً في استدعاء لطفه وعظيم كرمه ومنه ، وأكون بهذا الفعل القبيح من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء وتتملك فيهم الشهوات ، فيحنون إلى ارتكاب الموبقات ، واجتراح السيئات فالذى يعيش بين هؤلاء النسوة الماكرات المترفات لا مهرب له من الجهل إلا أن تعصمه بما هو فوق الأسباب والسنن العادية . وفي هذا إيماء إلى أنه ما صبا يوسف إليهن ، ولا أحب أن يعيش معهن ، بل سأل ربه سبحانه أن يديم له ما عوده من كشف السوء عنه ، وذلك يتجلى في قول الحق سبحانه:- ﴿.....كَذَلِكَ أَنْصَرَفَ عَنْهُ السُّوءُ وَالْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ﴿٤٤﴾ [سورة يوسف: ٢٤] فاستجاب له ربه وقبل دعاءه ، وصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع لدعاء من تضرع إليه ، وأخلص

الدعاء له ، العليم بصدق إيمانهم ، وبما يصلح أحوالهم ، وفي هذا إرشاد الى ان ربه سبحانه حرسه بعنايته ، وكلاًه برعايته ، وحفظه بحفظه في جميع أطواره وشؤونه ، ورباه أكمل وأعظم تربية ، وما خلاه لنفسه في أهون الأمور. (١)

وذلك دليل على إن المسلم اذا اعتصم بالله ، ودعاه ورجاه بنية صادقة فإنه من الذنوب ينجبه ، ومن السيئات يحميه ، وبالإخلاص ينقيه ، وظاهراً وباطناً يرقيه ، اللهم رقنا ظاهراً وباطناً آمين .

1- الكشاف ج ٢ ص ٤٦٧ .

- تفسير القرطبي ج ٥ ص ٣٤١٣ وما بعدها .
- تفسير المراغي ج ٤ ص ١٤١ وما بعدها .
- تفسير البيضاوي .
- حاشية الشهاب على البيضاوي بتصرف .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ص ٤٧٧ بتصرف .

" البشاشة وحسن اللقاء "

ومن الاخلاق الكريمة والتي تغرس المحبة ، والمودة ، وتزرع الألفة فى قلوب المسلمين، وتزيل ما بينهم من شئنان ، وفرك وبغضاء ، وشحناء وكراهية ، يتجلى ذلك فى قول الحق سبحانه :-

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَيْنَ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ٥٤]

بعد أن نهى سبحانه نبيه عن طرد المستضعفين من حضرته ، استمالة لكبراء المتكبرين من قومه وطمعاً فى إقبالهم عليه ، وسماعهم لدعوته ، كما اقترح بعض المشركين ، أمره بأن يلقى الذين يدخلون فى الاسلام إلا بعد ان عن بينة وبرهان بالتحية والسلام ، والتبشير برحمة الله ومغفرته ، فقد كان السواد الأعظم من الناس كافرين ، اما كفر جحود وعناد ، وإما كفر جهل وتقليد للأباء والأجداد وكان يدخل فى الإسلام الأفراد بعد الافراد ، وكان أكثر السابقين من المستضعفين والفقراء .

وكان النبى - ﷺ - يكون تارة معهم يعلمهم ويرشدهم وتارة يتوجه الى أولئك الكافرين يدعوهم وينذرهم .

فيقول للنبي - ﷺ - اذا جاءك القوم الذين يصدقون بكتابتنا ، وحججنا ، ويقرون بذلك قولاً وعملاً ، سائلين عن ذنوبهم التى فرطت منهم ، هل لهم منها توبة ، فلا تؤيسهم منها ، وقل لهم سلام عليكم يعنى أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها ، وان الله تعالى أوجب على ذاته المقدسة فضلاً منه وإحساناً ، الرحمة بخلقه ، فإن فيما سخر للبشر من أسباب المعيشة المادية ، وفيما أتاهم من وسائل العلوم الكسبية لآيات بينات على سعة الرحمة الربانية ، وتربية عباده بها فى حياتهم الجسدية والروحية ، ثم يبين أصلاً من أصول الدين فى هذه الرحمة للمؤمنين فقال ﴿.....أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ٥٤] والمعنى ان من عمل منكم عملاً تسوء عاقبته ، للضره الذى حرمه الله لأجله ، حال كونه ملتبساً بجهالة دفعته الى ذلك السوء ، كغضب شديد حمله على السب والضرب ، أو شهوة مغتزمة قادته إلى انتهاك العرض ، ثم تاب ورجع عن ذلك السوء بعد أن عمله شاعراً بقبحه ، نادماً عليه خائفاً من عاقبته وأصلح عمله بأن اتبع ذلك العمل السيئ بعمل يضاده ويذهب أثره من

قلبه ، حتى يعود إلى النفس ذكائها ، وطهارتها وتصير أهلاً للقرب من ربه ، فشأنه تعالى في معاملته إنه واسع المغفرة والرحمة ، فيغفر له ما تاب عنه ، ويتعمده برحمته واحسانه . وقد بيّن سبحانه في هذه الآيه من أنواع الرحمة المكتوبة لعباده ما هو أحوج إلى معرفته بنص الوحي ، وهو حكم من يعمل السوء بجهالة من عباده المؤمنين ، وبقية أنواعها ممكن أن يستدل عليها بالنظر في الأنفس والآفاق ، وأمر نبيه بتبليغه لمن يدخلون في الدين ليهدوا بها حتى لا يغتروا بمغفرة الله ورحمته فيحملهم الغرور على التفريط في جب الله والغفلة عن تزكية أنفسهم ، وحتى يبادروا إلى تطهيرها من إفساد الذنوب خوف ان تحيط بها خطيئتها يقول تعالى :- ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ [سورة النساء: ١٧]

ويقول القرطبي وهذه الآيه نزلت في الذين نهى الله نبيه -عليه الصلاة والسلام- عن طردهم فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: " الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام ، وعلى هذا كان السلام من جهة النبي -صلى الله عليه وسلم- وقيل أنه كان من جهة الله تعالى ، والمعنى أبلغهم منا السلام ، وعلى أية حال فهذا دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله .

وتقدير هذا المعنى بأنه من الواجب احترام الصالحين ، واجتناب ما يغضبهم ويؤذيهم فان في ذلك غضب الله سبحانه ، وقال بن عباس -رضى الله عنهما- نزلت الآيه في أبي بكر وعمر وعثمان وعلى -رضى الله عنهم- ويقول الفضيل بن عياض " جاء قوم من المسلمين الى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا إنا قد أصبنا من الذنوب فاستغفر لنا فاعرض عنهم فنزلت هذه الآيه ، كما روى انس بن مالك مثله .

وقوله تعالى " كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ " يعني أوجب على ذلك بخيره الصدق ، ووعده الحق ، فخطوب العباد على ما يعرفونه من انه من كتب شيئاً فقد أوجب على نفسه ، وقيل كتب ذلك في اللوح المحفوظ أنه من عمل خطيئة فهو بها جاهل ، وقوله ﴿ تَعَالَى فَانَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة الأنعام: ٥٤] قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- " لما قضى الله على الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش " إن رحمتي غلبت غضبي " وقال -صلى الله عليه وسلم- " اذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش إن رحمتي سبقت غضبي وأنا ارحم الراحمين فتعين فيضة اوفيضتين فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً مكتوب بين أعينهم عتقاء الله " ويقول تعالى " وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ " وقيل معنى " كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ " يعني ألزم نفسه الرحمة تفضلاً منه

وإحسانا فإنه غفور رحيم يعنى من عمل ذنباً ، أو ارتكب خطيئة ، أو اجترح سيئةً ، ثم تاب من بعد ذلك وأصلح عمله فإن الله يغفر له ، وهو وعد بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح . وفي ذات المعنى يقول الحق سبحانه :- ﴿ وَإِنْ جَاحُوا لِسَلْمٍ فَاجْحَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة الأنفال: ٦١]

ومن الأخلاق في القرآن الكريم قبول السلم والصلح من جميع الناس حتى الأعداء ، والمعنى إن مال العدو عن جانب الحرب إلى جانب السلم ، ولم يغتر بقوته فاجح لها لأنك أولى بالسلم منهم ، وفوض الأمر إلى الله ، ولا تخشى عدوهم ومكرهم ، فالله هو السميع لما يقولون ، العليم بما يفعلون ، فلا يخفى عليه ما يأترون به من الكيد والخداع ، وإن خفي ذلك عليك ، وإن أرادوا بجنوحهم للسلم الخداع ، والمكر والكيد ليفترصوا الفرص كانتظار الغرة والخديعة التي تمكنهم من أهل الحق ، أو الاستعداد للحرب فالله يكفيك أمرهم ، وينصرك عليهم ، ومن آثار عنايته بك أن أيدك بتسخير المؤمنين لك ، وجعلهم أمة متحدة متآلفة ، ومتعاونة على نصرك ، وأن سخرك ما وراء الأسباب من خوارق العادات مثل الملائكة التي تثبت القلوب في وقعة بدر الكبرى وقد جمعهم الله على الإيمان بك ، وبذل النفس والمال في مناصرتك ، بعد التفرق والتعادى الذي كان إثر حروب طويلة وضغائن موروثة مثل الذي كان بين الأوس والخزرج من الأنصار .

يقول الله تعالى :- ﴿...بِعَمَتِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا... ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣]

وقد كاد يقع شئ من التباغض من المهاجرين والأنصار حين قُسمت الغنائم في غزوة حنين فكفاهم الله شر ذلك ، وذلك بفضلته تعالى ، وحكمة رسول الله - ﷺ - وفي الآية إيحاء وإشارة إلى أن النصر ينال بالأسباب والتي من أهمها التآلف والاتحاد بفضل مقدر الأسباب ، ورحمته بالعباد ، لذلك يقول الحق سبحانه :- ﴿...أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ... ﴾ [سورة الأنفال: ٦٣]

ولهذه المعاني المتقدمة حين طلب المشركون في عام الحديبية الصلح ووقعت الحرب بينهم وبين رسول الله - ﷺ - تسع سنين أجابهم النبي إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخرى ، وقال مجاهد -رضى الله عنه- نزلت الآية في بني قريظة ، والصواب والراجح إن الآية نزلت في معركة بدر لان السياق يؤيد ذلك ، ويقول القرطبي " وإن كان للمسلمين مصلحة للصلح ، لنفع يحتاجونه أو ضرر يدفعونه ، فلا بأس أن يبتدئ المسلمون بالصلح إذا احتاجوا إليه ، وقد صالح رسول الله - ﷺ - أهل خيبر على شروط نقضوها

فنقض النبي - ﷺ - صلحهم ، وقد هادن قريشاً لمدة عشرة أعوام حتى نقضوا عهده ، وما زال الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التي شرحناها سالفة ، وبالجوه التي شرحناها عاملة .

ويقول القشيري . رحمه الله . إذا كانت القوة للمسلمين فينبغي ألا تبليغ الهدنة سنة وإذا كانت القوة للكفار جازت مهادنتهم عشر سنين ، ويقول الشافعي . رحمه الله . لا يجوز مهادنة المشركين أكثر من عشر سنين وذلك على ما فعل النبي - ﷺ - عام الحديبية فإن هؤن المشركون أكثر من ذلك فهي منتقضة لأن الأصل غرض قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية .

وخلاصة القول ان الأمر يفوض لله أولاً ، ثم للسلطان أو الحاكم حسب الأحداث السياسية ، والمواقف الدولية ، والعمل بما يكون في صالح المسلمين ، فإن كل عصر له سياسته ، وكل زمان له طبائعه والأمور دائماً مختلفة ، ومتباينة ، ومتغيرة .

ويمضى القرآن الكريم قائلاً في نفس المعنى والهدف والغرض فيقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة يونس: ٩: ١٠] والمعنى يهديهم ربهم سبحانه الى طريق الجنة وذلك بسبب إيمانهم تجرى من تحت قصورهم الأنهار ، أو من تحت أسرتهم وهم مقيمون في جنات النعيم ، ودعائهم في الجنة " سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ " وفي الحديث يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس ، والمعنى ان كلامهم في الجنة تسبيح الله ، وتحية بعضهم بعضاً " سلام عليكم " كما تحييهم الملائكة بذلك ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الرعد: ٢٣: ٢٤] وأخر دعائهم أن يقولوا " الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " وفي الآية إشارة إن الإيمان والعمل الصالح هما سبب الهداية والفوز برفيع الدرجات ، والوصول الى أقصى الغايات ، وانهم يبدأون كل دعاء وثناء عليه تعالى بمناجاته بهذه الكلمة " سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ " وتحييتهم في الجنة كلمة " سَلَامٌ " الدالة على السلامة من كل مكروه ، وهي أيضا تحية المؤمنين في الدنيا ، وهذه التحية تكون من الله . عز وجل . حين لقاءه ، يقول سبحانه ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ... ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٤] ومن الملائكة لهم عند دخول الجنة قال تعالى ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [سورة الزمر: ٧٣] وتكون من بعضهم لبعض قال تعالى ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [سورة الواقعة: ٢٥: ٢٦] وان

آخر كل حال من أحوالهم من دعاء يناجون به ربهم ، ومطلب يطلبونه من إحسانه وكرمه
 "..... الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" .

ويبضى القرآن الكريم قائلًا في نفس المعنى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [سورة الفرقان: ٦٣]. والإضافة هنا للتشريف والتعظيم يعنى العباد الذين يحبهم الله وهم جديرون بالانتساب اليه ، وهم الذين يمشون على الأرض في لين وسكينة ووقار ، لا يضربون بأقدامهم شرًا ولا بطرا ، ولا يتبخرون في مشيتهم ، وإذا خاطبهم السفهاء بغلظة وجفاء وقساوة طبع ، وغلظة كبر ، وسوء خلق ، قالوا قولاً يسلمون فيه من الذنب ، وينأون عن السيئات ، ويتعدون عن المناكر ، لا يجهلون على أحد وإن جهل عليهم حكموا .

ويقول ابن كثير . رحمه الله . هذه صفات عباد الله المؤمنين يقول تعالى : ﴿... وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا...﴾ [سورة لقمان: ١٨] . وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ، ورياءً فقد كان النبي - ﷺ - إذا مشى كأنما ينحط من صيب ، وكأنما الأرض تطوى له ، ورأى عمر بن الخطاب . رضى الله عنه . شاباً يمشى رويدا فقال له ما بك أنت مريض ؟ قال لا يا أمير المؤمنين فعلاه بدرته يعنى عصاه التى كان يمسك بها ، وأمره ان يمشى بقوة ، فالمراد بقوله تعالى " هَوْنًا " السكينة والوقار ، كما قال رسول الله - ﷺ - " إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها واتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصولا ، وما فاتكم فأتوا " فهؤلاء قوم كما يقول الحسن البصري . رحمه الله . إن المؤمنين قوم نلت منهم . والله . الأسماع ، والأبصار ، والجوارح حتى يحسبه الجاهل مرض ، وما بالقوم من مرض ، وإنهم . والله . لا اصماء ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة فقالوا " الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن " اما والله ما أحنن الناس ، ولا تعاضم في نفوسهم شئ طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من الله ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير الله نعمة إلا في مطعم او مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه ، وهؤلاء القوم اذا سفه عليهم الجاهل بالقول السئ لم يقابلونهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً .

كما كان رسول الله . - ﷺ - لا تزيده شدة الجهل عليه الا حلما يقول سبحانه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا...﴾ [سورة القصص: ٥٥] وقال رسول الله . - ﷺ - أما سب رجل رجلاً عنده فجعل المسبوب يقول عليك السلام ، فقال رسول الله . - ﷺ - أما ان ملكا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له بل أنت ، وأنت أحق به ، واذا قلت له

وعليك السلام قال لا بل عليك وأنت أحق به " وقالوا سلاماً يعنى قالوا قولاً سديداً صحيحاً ، صادقاً منبعثاً من صدق إيمانهم ، وسلامة يقينهم ، وفي نفس المعنى يقول الحق سبحانه ﴿ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة الصافات: ١٨١] والمعنى وسلام منا على الرسل الكرام وبحمده . عز وجل . تعليماً وإرشاداً للعباد وفي ذات المعنى يقول الحق سبحانه ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلِّمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ [سورة الذاريات: ٢٥] والمعنى حين دخلوا على إبراهيم . عليه السلام . فقالوا نسلم عليك سلاماً ، قال عليكم سلام ، انتم قوم غرباء لا نعرفكم فمن أنتم ؟ يقول ابن كثير " وانما أنكرهم لأنهم قدموا عليه في صورة شبان حسان ، عليهم مهابة عظيمة ، ولهذا أنكرهم . ويقول أبي حيان " والذي يناسب حال إبراهيم . عليه السلام . انه لا يخاطبهم بذلك ، إذ فيه من عدم الأُنس ما لا يخفى ، وإنما قال ذلك في نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانته بحيث لا يسمع ذلك الأضياف . والملائكة هم جبريل وميكائيل وإسرافيل .

فكل هذه الآيات تدعو المسلم الى التخلق بالأخلاق الحسنة ، والخصال الحميدة حتى يعم السلام في الأرض ، ويتأدب الناس بأدب الله ورسوله - ﷺ - فذلك خلق القرآن ، وخلق من نزل عليه القرآن وهو لأسوة الحسنة ، والقدوة العظيمة سيدنا محمد - ﷺ - . (١)

- 1- حاشية الصاوي ج ٢ ص ١٧ .
- الكشاف ج ٢ ص ٢٣ ، ص ٢٢٣ .
- زاد المسير ج ٣ ص ٥٢ .
- تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٣٥ ، ص ١٣٩ ، ص ٣٢٢ ، ج ٣ ص ٣٢٤ ، ج ٤ ص ٢٣٥ .
- مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٥ .
- القرطبي ج ٤ ص ٢٤٣٢ وما بعدها ، ص ٢٣٧٩ وما بعدها ج ١٣ ص ٧٢ .
- تفسير المراغي ج ٣ ص ١٣٨ ، ج ٤ ص ٢٦ وما بعدها ،
- البحر المحيط ج ٨ ص ١٣٩ .
- تفسير ابن الجوزي ج ٨ ص ٣٦ .
- البيضاوي ج ٣ ص ١٢٦ .
- تفسير الطبري ج ١١ ص ١٨٦ ، ج ١٩ ص ٢٠-٢٣ .
- أبو السعود ج ٢ ص ٣١٠ .
- حاشية الصاوي على الجلالين .
- التفسير الكبير ج ٢٤ ص ١٠٨ .
- صفوة التفاسير ج ٣ ص ٤٧ .
- تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ٢٠١ .

" القصد في المشى "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة " القصد في المشى " يقول الله - عز وجل -: ﴿ وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ [سورة لقمان: ١٨: ١٩]. والمعنى: " لا تمل بوجهك عنهم تكبراً عليهم ، ويقول القرطبي: " لا تمل خدك للناس كبراً عليهم ، واعجاباً ، وتحقيراً لهم . وهو قول " ابن عباس " -رضى الله عنهما - ولا تمس متبخترا ، متكبراً لأن الله يكره المتكبر الذى يرى العظمة لنفسه ، ويتكبر على عباد الله ، ولما نهاه عن الخلق الذميمة ، أمره بالخلق الكريمة فقال له تعالى : " توسط في مشيتك واعتدل فيها بين الإسراع والبطء واخفض من صوتك فلا ترفعه عالياً فإنه قبيح لا يليق بعاقل ، إن أوحش الأصوات صوت الحمير ، فمن رفع صوته كان ماثلاً لهم ، وأتى بالمنكر القبيح .

يقول الحسن : " كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فرد عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتهم به الحمير ، ويقول " قتادة " -رضى الله عنه - أقبح الأصوات صوت الحمير ، وأوله زفير وآخره شهيق . ويقول " المراعى في تفسيره : " ولا تعرض بوجهك عن تكلمه تكبراً واحتقاراً له ، بل أقبل عليه بوجهك كله مهلاً ، مستبشراً من غير كيد ولا عتو . عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ - قال : " لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث " . ولا تمس في الأرض مختالاً متبخترا لأن تلك مشية الجبارين المتكبرين الذين يبغون في الأرض ويظلمون الناس ، بل إمشى هونا ، فإن ذلك يفضى إلى التواضع .

عن " غضيف بن الحارس " قال : " أتيت بيت المقدس أنا وعبد الله بن عبيد بن عمير قال : فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسمعتة يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول : يا ابن آدم ما غرك بي ! ألم تعلم أني بيت الوحدة ! ألم تعلم أني بيت الظلمة ! ألم تعلم أني بيت الحق ! يا ابن آدم غرك بي ! لقد كنت تمشي حولي فدادا قال ابن عائد قلت لغضيف : ما الفداد يا أبا أسماء ؟ قال : كبعض مشيتك يا ابن أخي أحياناً قال أبو عبيد : والمعنى ذا مال خيلاء وقال : - ﷺ - : " من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة " .

والله لا يحب المختال المعجب بنفسه ، الفخور على غيره ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [سورة الإسراء: ٣٧].

وامشى هونا بلا تصنع ، ولا مرآة للخلق وذلك بإظهار التواضع ، وعمد الكبرياء ، روى عن عائشة - رضی اللہ عنہا - أنها نظرت إلى رجل كاد يموت تخافتاً... فقالت: ما لهذا؟ .
فقيل : إنه من القراء .

فقال: كان عمر - رضي الله تعالى عنه - سيد القراء ، وكان إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع . فالمراد بالإسراع فيه ما فوق ديبب السماوت وهو الذي يخفي صوته ويقل حركاته مما يترتب بزي العباد كأنه يتكلف في اتصافه بما يقربه من صفات الأموات ليوهم أنه ضعيف من كثرة العبادة . ورأى " عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رجلاً متموتاً ، فقال له : لا تمت علينا ديننا ، أماتك الله " . ورأى رجلاً مطاطاً رأسه فقال له : " إرفع رأسك ، فإن الإسلام ليس بمریض " .

وإن أبشع الأصوات وأقبحها رفعها فوق الحاجة بلا داع ، وفي ذلك تهجين لرفع الصوت ، وأن الذي يرفع صوته بلا داع فكصوت الحمار تنفيراً من ذلك العقل وتقبيحاً ، وقد كانت العرب تفخر بجهارة الصوت فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعز ، ومن كان أخفض صوتاً كان أذل ، يقول شاعرهم :

جهير الكلام جهير العطاس جهير الرواء جهير النعم
ويخطو على الأين خطو الظليم ويعلو الرجال بخلق عميم

والرواء هو المنظر الحسن ، والنعم هي الابل ، والأين الاحياء ، والخلق العمم أي التام ، والظليم هو ذكر النعام .

ويقول " ابن كثير - رحمه الله تعالى - : " لا تتكلم وأنت مُعْرَض ، يعني بذلك التشديق في الكلام ، وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر . ويقول عمرو بن حبي التغلي :
وقال أبوطالب في شعره :

وكنا قديما لا نفر ظلامه إذا ما ثنوا صعر الرؤوس نقيمها

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [سورة لقمان: ١٨] . يعني : مختال معجب في نفسه ، فخور على غيره . وقد ذكر الكبر عن رسول الله - ﷺ - : " ذكر الكبر عند رسول الله - ﷺ - فشدد فيه ، فقال : " إن الله لا يحب كل مختال فخور " .

فقال رجل من القوم: والله يا رسول الله إني لأعسل ثيابي فيعجبني بياضها، ويعجبني شراك نعلي، وعلاقة سوطي،

فقال: " ليس ذلك الكبر، إنما الكبر أن تُسْفَه الحق وتُعْمِط الناس " .

وعن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال: " إذا سمعتم نهاق الحمير فتعوزوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً ، وإذا سمعتم صياح الديك فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً " . وعن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله - ﷺ -: " طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غيراء مشينة " . وعن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر، رضي الله عنه - ، أنه دخل المسجد فإذا هو " بمعاذ بن جبل " يبكي عند قبر رسول الله - ﷺ - ، فقال له: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: حديث سمعته من رسول الله - ﷺ - ، سمعته يقول: " إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غيراء مظلمة " .

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- عن النبي - ﷺ - قال: " رُبَّ ذِي طَمْرِينٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ، لَوْ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ لِأَعْطَاهُ الْجَنَّةَ، وَلَمْ يَعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً " .

قال عبد الله بن المبارك:-

الْأَرْبُ ذِي طَمْرِينٍ فِي مَنْزِلِ غَدَا
قَدْ اطَّرَدَتْ أَنْهَارُهُ حَوْلَ قَصْرِهِ
زَرَابِيهِ مَبْنُوثَةٌ وَنَمَارِقُهُ
وَأَشْرَقَ وَالتَّفَّتْ عَلَيْهِ حَدَائِقُهُ

هذه هي الأخلاق في القرآن الكريم التي تأخذ بيد المسلم إلى مواطن النجاح وسبل الرشاد (١) .

1- تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٤٤٦ - ٤٤٨ .

□ تفسير القرطبي ج ١٤ ، ص ٧٠ .

□ صفوة التفاسير ج ٢ ، ص ٤٩٣ .

□ تفسير المراغي ج ٧ ، ص ٨٥ وما بعدها .

" النأي عن المن والأذى "

ومن الأخلاق القرآنية عدم إتباع النفقة والصدقة والعمل الصالح بالمن والأذى ، يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ ﴿٣٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطَلُوا صِدْقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ، وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾ وَمِثْلَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتُبَيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَانَتْ أَكْطَلُهَا ضَعْفَتِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٥﴾ أَيُّودٌ أَحَدَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبْرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾ [سورة البقرة: ٢٦٢: ٢٦٦]. والمعنى : إن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ولا يقصدون بإنفاقها إلا وجه الله ، ولا يعقبون ما أنفقوا من الخيرات ، والصدقات بالمن والأذى على من أحسنوا إليه ، مثل قوله : " إنني أحسنت اليك ، وقدمت لك خيرا ثم يذكره فإن ذلك أذى ، والله تعالى يقول: ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ . فالذين ينفقون ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى . هؤلاء لهم ثواب ما قدموا ، وجزاء ما أحسنوا ، ولا يضرهم فزع يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على فائت من زهرة الدنيا . ثم يبين الله - عز وجل - أن رد السائل بالتي هي أحسن ، والصفح عن الحاجة خير عند الله وأقصد من إعطائه ثم إيذائه ، أو تعيره بذل السؤال ، والله - سبحانه وتعالى - غني عن الخلق أجمعين ، حلِيم لا يعاجلهم بالعقوبة عند مخالفتهم لأوامره ، ثم أخبر الله - سبحانه وتعالى - عما يبطل الصدقة . ويضيع الثواب ، ويذهب بخيرها وبرها ، ونفعها في الدار الآخرة . فيقول الله - عز وجل - : " يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطَلُوا صِدْقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ " . والمعنى : " يا أيها الذين آمنوا بالله ، وصدقوا برسوله لا تحبطوا ما أنفقتم بالمن والأذى ، مثله في ذلك مثل الذي يرائي الناس فيبطل بالرياء إنفاقه ، ولا يصدق بقاء الله ولا يرجوا ثواباً ، ولا يخشى عقاباً فمثله كمثل

الحجر الأملس الذى يكون عليه شيء من التراب يظنه الضان أرضاً طيبةً منبئةً فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلباً أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً .

كذلك المنافق الذى ينفق ماله رياءً الناس يظن أن له عملاً صالحاً فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وزهبت ، ولهذا يقول - سبحانه وتعالى - : " ... لَا يَفْزُرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ... " . يعنى لا يجدون لهم ثواباً في الآخرة فلا أنتفع بشيء منها البتة ، والله لا يهدى هؤلاء إلى طرق الخير ، ولا إلى سبل النجاة والرشاد فالقرآن الكريم يؤكد أن المن والأذى يبطل الصدقة كما يبطل الرياء وضرب لهذا مثل " الصفوان " . وفي تفسير المراعى " إن الذين يبذلون أموالهم ينفقون بذلك مرضاة ربهم ، ولا يتبعون ذلك بمنهم على من أحسنوا إليهم ، ولا بإيذائهم ، لهم عند ربهم ثواب لا يقدر قدره ، ولا خوف عليهم حين يخاف الناس ، وتفزعهم الاهوال ، ولا هويحزنون حين يحزن الباقون المسكون عن الإنفاق في سبيل الله ، اذ هم أهل السكينة والاطمئنان ، والسرور الدائم .

واحكمة في تعليق هذا الثواب على ترك المن والأذى أن الإنفاق في سبيل الله يراد به وجه الله ، وطلب رضاه ، فلا وجه لمن المنفق على من أنفق عليه لأنه لا يد له قبله ولا صنيعه له عنده ، تستحق - إن لم يكافئه عليها - المن والأذى فعلى الله مثوبته دون من أنفق عليه . ثم يضع الله - سبحانه وتعالى - دستوراً الحسن المعاملة بين الناس فقال : " قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ " يعنى كلام حسن ، ورد جميل على السائل ، وستر لما وقع منه من الألفاف في السؤال وغيره أنفع لكم ، وأكثر فائدة من صدقة فيها أذى ، لأنه وإن كان قد خيب رجاءه ، ولكن أفرح قلبه ، وهون عليه نل السؤال . والإنفاق غير مقصود به التصدق على ذوى الحاجات والمعوزين فحسب ، بل إن التبرع لبناء مدرسة ، أو مستشفى ، أو الإسهام في تعبيد الطريق أو تمهيد ممشى ، أو التبرع لكفالة اليتيم ، أو مساعدة طالب العلم ، أو فك العانى الذى أنقلته الديون وهكذا .

يعد كل ذلك إنفاق في سبيل الله وجميع أعمال البر والخير تُعدُّ إنفاقاً في سبيل الله ، وإن لم يكن لدى المسلم مال يتبرع به فعليه التبرع بالكلمة الطيبة والتشجيع لغيره على الإنفاق ، وعلى فعل الخير . يقول الشاعر :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

أما الصدقة التي يتبعها أذى فهي مشوبةٌ بضرر ما يتبعها من الأيذاء ، ومن أذى فقد بغض نفسه إلى الناس بظهور في مظهر البغض لهم والسلم والولاء خير من العداوة والبغضاء .

ومن الخير للأمة أن يظهر أفرادها في مظهر المتعاونين، يقول- سبحانه وتعالى- :

﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ...﴾ [سورة المائدة: ٢]

وجماع هذا القول أن مقابلة المحتاج بكلمة تسره ترضيه خير له من الصدقة التي يتبعها الإيذاء بسوء القول ، أو سوء المقابلة واللقاء . ولا فارق بين أن يكون المحتاج فرداً . أو جماعة ، أو دولة ، أو أمةً مثل التبوع لتسليح الجيش الاسلامي ليصد غارات المعتدين ، ويذود عن الأرض ، والعرض وهو يسمى في عصرنا " بالجهود الحربى " فحين تكون مع الدولة بقلبك ولسانك أجدى لها وأنفع من التبوع بالمال مع مقابلة سوء ، وفعل الأذى . وقد قررت الآية الكريمة مبدأ عاماً في الشريعة الاسلامية ، وهو درء المفسد مقدم على جلب المصالح . فقد دلت على أن الخير لا يمكن أن يكون طريقاً للشر ، وعلى أن الأعمال الصالحة بحيث أن تكون خالية مما يكدرها من الشوائب التي تفسدها ، وتذهب بخيرها وفائدتها . فالذى لا يملك أن ينفق أو يتصدق على الفقير فليكله ويسعه بكلمة طيبة ، فإن الله غنى عن صدقة عباده حيث أنه لا يقبل إلا الطيب من العمل .

وفي هذا تكريم للفقراء وتوجيه لهم أن يتعلقوا بحبل الله ، ويستعينوا بالله ، وقد بين الله- سبحانه وتعالى- أن المن والأذى يهدم الصدقة بل هو هادم لفائدة الصلحة وهو الثواب الجزيل من الله- سبحانه وتعالى- . وهو تخفيف لبؤس الفقراء والمحتاجين وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد ، وتنشيط القائمين بخدمة الأمة ومساعدتها إذا كانت الصدقة في مصلحة عامة . إذ أن كل عمل لا يؤدي إلى الغاية منه فقد حبط وبطل كأن لم يكن ، فما بالك إذا أتبع بصد الغاية ونقيضها ؟ . فالإسلام ينهى المسلم عن ارتكاب ما يفسد صدقته من المن والأذى وحتى تكون الصدقة خالصةً لوجهه- سبحانه وتعالى- ، فالمرأى وصاحب المن والأذى عمله غير صحيح وغير مقبول لدى الله- عزوجل- . فالمنافق المرأى صفته كصفة " تراب " على حجر أملىس نزل عليه مطر شديد ، فأزاله ، وترك الحجر صلباً نقيلاً لا تراب عليه .

ووجه الشبه بينهما هو أن الناس يرون أن لهؤلاء المرأين أعمالاً كما يرى التراب على " الصفوان " فذا جاء يوم القيامة وصاروا إلى الله- عزوجل- اضمحل ذلك وذهب ،

لأنه لم يكن لله ، كما يذهب الوابل من المطر كما كان على الصفوان ، فيتركه أملس لا شيء عليه. يقول الشاعر :

ثوب الرياء يَشْفُ عما تحته فإذا اكتسبت به فإنك عار

فالرياء والمن والأذى منافٍ للإخلاص ، فلا أجر عند الله إلا للمخلصين في أعمالهم الذين يتحرون تزكية نفوسهم ، وإصلاح أحوالهم والله لا يهدى القوم الكافرين إلى ما فيه خيرهم ، ورشادهم ، فإن الإيمان هو الذى قلب صاحبه إلى الاخلاص ، ووضع النفقات في مواضعها ، والاحتراس من الإتيان بما يذهب فائدتها . وفي هذا تعريض بأن كلاً من الرياء والمن والأذى من صفات الكافرين التى ينبغى للمؤمنين أن يتجنبوها . هذه توجيهات ربانية وأرشادات قرآنية ، لوأن المسلمين اتبعوها ، وساروا على هديها لسعدوا في دنياهم ، وفي أخرهم ولسادوا الدنيا وقادوا العالم ، كما كان أسلافهم . إنهم صنعوا امجاد وبطولات ومنحوا البلدان قاصديها ، ودانيها ، ونشروا العلم والأخلاق وحثوا الناس على الجهاد في سبيله ، وعلى الانفاق دون من وأذى ولا رياء فكانوا بحق مثلاً صالحاً ، ونماذج فريدة في السلوك والعمل الصالح ، فبذلك طابت نفوسهم ، وصفت قلوبهم ، وطهرت سرائرهم ، وخلصت أعمالهم ، فسعدوا في الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا بحسن السيرة ، وفي الآخرة بالفوز بجنات عرضها السماوات والأرض ، أعدت لهم ، ولأمثالهم من المتقين الصالحين النائين عن الرياء والمن والأذى والنفاق (١).

ويعضد الآية السالفة الذكر آية أخرى. وهى قول الله - سبحانه وتعالى-: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ اسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ [سورة الحُجُرَات: ١٧]. فالمراد : أن هؤلاء يعدون إسلامهم عليك يا محمد - ﷺ - منة وتفضيلاً يستوجبون عليها الحمد والثناء، فقل لهم يا محمد- ﷺ -: "... قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ...". فإن نفع إسلامكم يعود عليكم، ولله المنة العظمى عليكم، وذلك بالهداية للإيمان، والتثبيت عليه، إن كنتم صادقين فى دعوى الإيمان. وفي هذا ما إيماء وإشارة إلى أنهم كانوا كاذبون فى ادعائهم الإيمان. وقد روى أن النبى - ﷺ - قال للأنصار " يوم حنين " : " يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم

1- صفوة التفاسير ج ١ ، ص ١٦٨ وما بعدها نتصرف .

□ أسباب النزول للواجدى ص ٤٧ .

□ تفسير المراعى ج ١ ، ص ٢٩ - ٣٥ بتصرف .

متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأعناكم الله بي؟ " فكلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمن وأفضل .

والله - عز وجل - سمى ما كان منهم إسلاماً وخضوعاً ، لا إيماناً ، وذلك إظهاراً لكذبهم في قولهم " آمنا " ثم لما منوا على رسول الله - ﷺ - بما كان منهم قال - سبحانه وتعالى - لرسوله - عليه الصلاة والسلام - : أيعدون عليك بما ليس جديراً أن يعتد به من اسلامهم الذى سموه إيماناً وليس بذلك ؟ بل الله هو الذى يعتد عليهم إيمانهم إن صدقوا ، فهو قد أمدهم بهديه وتوفيقيه . ثم أعاد الإخبار بعلمه بجميع الكائنات ، وبصره بأعمال المخلوقات فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الحجرات: ١٨] . ويقول الله - سبحانه وتعالى - في هذا المضمار الأخلاقى لسيدنا محمد - ﷺ - : " ولا تمنن تستكثر " . فالله - عز وجل - يوجه نبيه - عليه الصلاة والسلام - إلى إنكار ذاته ، وعدم المن بما يقدمه من الجهد ، أو استكثاره واستعظامه : " ولا تمنن تستكثر " وهو سيقدم الكثير ، وسيبذل الكثير ، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء ، ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ، ويستكثره ويمنن به ، وهذه الدعوة لا تستقيم فى النفس تحس بما تبذل فيها .

فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه ، بل حين لا تستشعره من الأصل لأنها مستغرقة فى الشعور بالله ، شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ، ومن عطاياه . فهو فضل ينحها إياه وعطاء يختارها له ، ويوفقها لنيله ، وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله ، ولا المن والاستكثار .

ويقول بعض المفسرين ولا تُعْطِ عطاءً يا محمد - ﷺ - وتستكثره ، لأن الكريم يستقل ما يعطى وإن كان كثيراً ، وأعط عطاءً من لا يخاف الفقر . ويقول " ابن عباس " - رضى الله عنهما - : " لا تعطى عطية تلتبس بها أفضل منها " . بمعنى لا تعط شيئاً ليعطى أكثر منه . وسر النبي أن يكون العطاء خالياً عن أنتظار العوض تعففاً وكمالاً ، فإن النبى - ﷺ - مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق . وفي ذات المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾ [سورة البلد: ٦] . والمعنى : إنهم إذا طلب اليهم أن يعملوا عملاً من أعمال البر قالوا : " إننا ننفق الكثير من أموالنا فى المفخر والمكارم ، ولم يعلموا أن المكرمه ما عده الله مكرمه ، والبر ما اعتبره الله براً ، فليس من البر إنفاقهم المال فى مشاقه الله ورسوله ، ولا إنفاقهم طائل الأموال فى الصد عن سبيل الله ، والكيد للذين آمنوا بالله ورسوله .

ويقول "ابن كثير" - رحمه الله تعالى - في تفسير هذه الآية: "يعنى يقول ابن آدم: "أنفقت مالا لُبداً، أى كثيراً". ﴿أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [سورة البلد: ٧]. أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ اللَّهُ- عز وجل-. فهذه الآيات تحت المسلم على التحلى بأخلاق القرآن الكريم وأن ينفق مما آتاه الله- سبحانه وتعالى- ولا تبخل، ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه، وأن يكون ذلك الإنفاق خالصاً لوجهه تعالى، لا ينتظر جزاء إلا من الله- عز وجل- وهو خير من يثيب على البذل والعطاء والحسنة بعشر أمثالها ويضاعفها الله لمن يشاء.

يقول الله - سبحانه وتعالى-: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١]. وقد عنى بتطبيق هذا المثل علمياً بعض أعضاء الجمعية الزراعية "بمصر" فى مزارع "القمح" التى لها فى التفتيش النموذجى وفى غيره، فهدتهم التجارب إلى أن الحبة الواحدة لا تنبت سنبله واحدة بل أكثر، وقد وصلت أحياناً إلى "أربعين" وأحياناً إلى "ست وخمسين" وأحياناً إلى "سبعين حبة" أو أكثر. وقد عثر عام ١٩٤٢ م أحد مفتشى الجمعية الزراعية بمصر أنفه الذكر على "سنبله" أنبتت "سبعاً ومائة حبة"، وعرض نتيجة بحثه على الإخصائين من رجال الجمعية، وغيرهم فى حفل جامع ورأوا تلك السنبله وعدوها عدا، فاتفقت كلمتهم على صدق ما عدو رأى، وشكروه على جهوده الموفقة، وإن الزمان كفىل بتأييد قضايا الكتاب الكريم مهما طال عليها الأمد، وكلما تقدم العلم ظهر للناس صدق ما أخبر به القرآن الكريم. فهو الحق، والصدق، والنجاة، ليس بالهزل، ولا يأتيه الباطل من بين أيديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. حقاً إنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. إنه الحبل المتين، وكلام الله رب العالمين (١).

1 - صفوة التفسير، ج ١، ص ١٦٨ وما بعدها، ج ٣، ص ٢٣٨.

- ♦ تفسير المراعى ج ١، ص ٢٨ وما بعدها، ج ٩، ص ١٤٨.
- ♦ تفسير ابن كثير ج ٤، ص ٥١٢.
- ♦ مختصر تفسير ابن كثير ج ٣، ص ٥٦٨.
- ♦ التسهيل لعلوم التنزيل ج ٤، ص ١٦٠.
- ♦ فى ظلال القرآن الكريم للإمام سيد قطب ج ٦، ص ٣٧٥٥.

" الحياء "

إن الحياء خلق الإسلام ، وطبع إيماني ، وهو أمانة صادقة على طبيعة الإنسان ، فهو يميّط اللثام عن صدق إيمانه ، ومقدار أديبه ، فإذا ما رأيت مسلماً يتملكه الحياء فاعرف على الفور أنه يملك إيماناً صادقاً ، وضميراً حياً يقظاً . ولذا يقول النبي - ﷺ - : " إن لكل دين خلقاً ، وخلق الإسلام الحياء " (١) . وقد كانت الصرامة ملحوظة في تعاليم اليهودية على عهد " موسى " - عليه السلام - ، وكانت السماحة ملحوظة في تعاليم المسيحية على عهد " عيسى " - عليه السلام - . وقد تميز الإسلام بالحياء .

يقول " ابن القيم " :

هب البعث لم تأتتا رُسُلُه وجامحة النار لم تُضرم
أليس من الواجب المستحق حياءُ العباد من المنعم ؟ (٢)

والقدوة في ذلك سيدنا " محمد " - ﷺ - . فعن " أبي سعيد الخدري " - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله - ﷺ - أشد حياءً من العذراء في خدرها ، وكان إذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه " (٣) . وقال رسول الله - ﷺ - : " الحياء والإيمان قرنا جميعاً ، فإذا رفع أحدهما ، رفع الآخر " . والعلة في ذلك أن المرء حين يفقد الحياء يتدرج من سيء إلى أسوأ ويهبط من رذيلة إلى أرذل ولا يزال يهوى حتى ينحدر إلى الدرك الأسفل ، وقد روى عن رسول الله - ﷺ - هذا الحديث الذي يكشف فيه عن مراحل هذا السقوط الذي يبتدىء بضياع الحياء ، وينتهي بشر العواقب قال : " إنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياءَ فإذا نزع منه الحياءَ لم تلقه إلا مقبباً مُمقَّباً فإذا لم تلقه إلا مقبباً مُمقَّباً نزعته من الأمانة فإذا نزعته من الأمانة لم تلقه إلا خائناً مُحوناً فإذا لم تلقه إلا خائناً مُحوناً نزعته من الرحمة فإذا نزعته من الرحمة لم تلقه إلا رجيماً مُلعناً فإذا لم تلقه إلا رجيماً مُلعناً نزعته من ربة الإسلام " (٤) . فاذا نزع الحياء من المسلم لا يؤتمن على شيء إنه لا يؤتمن على مال ، ولا عرض ، ولا على موعد ، أو عهد ، أو ميثاق ،

- 1 - رواه الامام " مالك " .
- 2 - جامحة النار يريد جهنم . تضرم أى توقد ، رواه الحاكم .
- 3 - رواه مسلم .
- 4 - رواه ابن ماجه .

أوعلى حفظ وديعة أوأمانة ، وتحقيق مطامعه ، وملذاته ، ويوم يبلغ الإنسان هذه المراحل يكون بذلك قد أفلتت من قيود الدين ، وانخلع من ربيعة الإسلام .

فالحياء خير كله . ومن ذلك قول الحق – سبحانه وتعالى – في هذا الخلق الكريم :

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِئِجِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا ﴾ (٢٣)

[سورة مريم: ٢٣]. والمعنى : فأجأها المخاض وألم الطلق ، وشدة الولادة إلى ساق نخلة يابسة لتعتمد عليه عند الولادة ، فقالت السيدة الفضلى " مريم بنت عمران " : يا ليتني مت قبل هذا اليوم وكنت شيئاً تافهاً لا يعرف ولا يذكر وهذا القول لابن عباس ، وقتادة – رضى الله عنهم – ويعنى " يا ليتني متت " . لم أخلق ولم أك شيئاً . يقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى " : " عرفت السيدة الفضلى " مريم بنت عمران " أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خيرها وأنها حملت دون أن تقترب إثمًا ، أو ترتكب منكراً ، أو تجترح سيئة ، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية . ولذلك صدر منها هذا القول : " يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً " . أي قبل هذا الحال أي لم أخلق ولم أك شيئاً . ولذلك أخذت المكان القاصى النائى والبعيد حياءً من قومها ، ولا غور فهى من سلائل بيت النبوة ولأنها استشعرت منهم الاتهام والريبة والشك ، فرأت أن لا تراهم ، وأن لا يروها حياءً منها وأدباً ، وخوفاً من توجية اللوم إليها .

ويقول " صاحب اللطائف " : " أَلَجَّأَهَا وَجَعُ الْوَلَادَةِ إِلَى الْاعْتِمَادِ إِلَى جِزْعِ النَّخْلَةِ . وَلَمَّا أَخَذَهَا الطَّلُوقُ ، وَدَاخَلَهَا الْخَجَلُ مِنْ قَوْمِهَا تَطَقَّتْ بِلِسَانِ الْعَجْزِ ، وَقَالَتْ : " قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا " . ويقال يحتمل أنها قالتها إشفاقاً من قومها ، لأنها علمت أنهم سيبسطون لسان الملامة فيها بلسان الفُجْر؛ وينسبونها إلى الفحشاء . ويقال قالتها شفقةً على قومها لئلا تُصيَّبهم بسببها عقوبةً . ويقال قالت : " يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا " حتى لم أسمع من قال في الله تعالى بسببي إن " عيسى " ابن الله وابن مريم ، وإن مريم زوجته ... تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !

ويقال " يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا " : في الوقت الذي كنتُ مرفوقاً بي ، ولم تستقبلني هذه الخشونة في الحالة التي لحقتني . ويقال " يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا " : في الوقت الذي لم يكن قلبي متعلقاً بسبب . وفي قوله " فأجأها المخاض " . يقال : جاء ، وأجاء لغتان والمعنى واحد والأصل في " جاء " أنه يتعدى بنفسه للواحد و " أجاء " يتعدى لأنثين لأن استعماله قد تغير بعد النقل فصار بمعنى " أَلَجَّأَهَا إِلَى كَذَا " . وقيل إن مريم – عليها السلام

حين اتكأت إلى جزع النخلة اليابسة أخضر ، أطلع الجريد والخص ، والتمر رطباً في وقت واحد . كما أن حمل عيسى وولادته وتصويره في وقت واحد .

والمشهور أن ولادة - عيسى عليه السلام - كانت في " بيت لحم " وأنها لما هربت وخافت عليه أسرعته إلى " بيت المقدس " ، فوضعت على صخرة فانخفضت الصخرة له وصارت كالمهد وهي الآن موجودة بدار " مجرم بيت المقدس " ، ثم بعد أيام توجهت به إلى " بحر الأردن " فغمسته فيه . وهو اليوم الذي يتخذُه النصارى عيداً ويسمونه " عيد الغطاس " ، وهم يظنون أن المياه في ذلك اليوم تقديست ، فلذلك يغطسون في كل ماء . ومن زعم أنها ولدت في مصر " بكورة " يعنى ببلد " أهناس " فلم يثبت ذلك . و" أهناس " هي المسماة بالبهنسا " وقيل " أهناس " قرية بجانب الدهنسا وجوارها .

وإن الاستحياء أنساها بشاره الملائكة بسيدنا " عيسى " - عليه السلام - لذلك تمت الموت . وقد اختلف المفسرون في فترة حمل عيسى - عليه السلام - . فالجمهور أنها حملت به تسعة اشهر . ويقول عكرمة - رضى الله عنه - أى مدة الحمل ثمانية أشهر ، قال : " ولهذا لا يعيش ولد الثمانية أشهر . وسئل " ابن عباس - رضى الله عنهما - عن حمل " مريم " فقال : " لم يكن إلا أن حملت فوضعت . وكان معها فى المسجد رجل صالح من أقاربها يقال له " يوسف النجار " ، فقال لها : " يا مريم ، إني سأثلك عن أمر فلا تعجلي عليّ .

قالت: وما هو؟ قال: هل يكون قَطُّ شَجْرٌ من غير حَبٍّ؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم - فهمت ما أشار إليه - أما قولك : " هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر؟ " فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ، ولا بذر " وهل خلق يكون من غير أب؟ " . فإن الله قد خلق آدم من غير أب ولا أم . فصدقها ، وسلم لها حالها .

ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة ، انتبذت منهم مكاناً قصياً ، أي : قاصياً منهم بعيداً عنهم؛ لئلا تراهم ولا يروها . حياءً وهو خلق القرآن الكريم .

وفي الآية جواز تمنى الموت إذا خشى المسلم " الفتنة " واجعل الموت راحة لنا من كل شر . هذا دعاء الصالحين . وذلك مثل قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَمَّا يَلَهُهَا تَمْشَى عَلَى آسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ رَبِّي أَبِي نَعْتَمَكُ لِيَجْزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ ، وَوَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ [سورة القصص: ٢٥] . يعنى : واضحة كمْ ذراعها على وجهها حياءً منه ، فأجابها في نفسه منكراً أخذ الأجرة ، كأنها قصدت المكافأة إن كان ممن يريدها ، فمشيت بين يديه فجعلت الريح تضرب ثوبها فتكشف ساقها ،

فقال لها: "أمشي خلفي ودليني على الطريق ففعلت إلى أن جاء أباهما " شعيب " - عليه السلام - وعنده عشاء ، فقال له : "أجلس . فتعشى . قال : أخاف أن يكون عوضا مما سقيت لهما ، وأنا أهل بين لا نطلب على عمل الخير عوضا . قال : " لا " عادتى وعادة ابائى : إكرام الضيف ، وأطعام الطعام ، فأكل وأخبره بحاله ، فلما جاءه ، وقص عليه القصص قال له : " لا تخف فإنه لا سلطان لفرعون على " مدين " . والمراد : بالحياء هنا شدته .

ويقول " ابن كثير " : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ... ﴾ أي : مشي الحرائر ، كما روي عن أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - أنه قال : كانت مستترة بكم ذراعها . قال عمر رضي الله عنه : جاءت تمشي على استحياء ، قائمة بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع دلاجة ، حَرَاجَة ، ولاجة . والسلفع من النساء : الجريئة السليطة ، ومن النوق : الشديدة . { ... قَالَتْ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ... } ، وهذا تأدب في العبارة ، لم تطلبه طلباً مطلقاً ، وطلبته في أدب ، ووجهت الدعوة باسم أبيها حتى لا يوهم ريبة متوهم أنها دعت له لنفسها إعجاباً به وبقوته وشهامته ، ففعلت ذلك دفعا للتهمة والريبة . هذا هو خلق المسلم في القرآن الكريم ، فواجب علينا نحن المسلمين أن نتخلق بأخلاق القرآن وهودستورنا حتى نسعد في جميع حياتنا ، ونكون من الفائزين في الدارين (١) .

ويقول رسول الله - ﷺ - : " الحياء من الإيمان ، والإيمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء في النار " (٢) . وفي الأثر : " ما أحببت أن تسمعه أذنك فأته ، وما كرهت أن تسمعه أذنك فأجتنبه " . وعن عائشة - رضي الله عنها قالت - أن رسول الله - ﷺ - قال لها : " يا عائشة ، لو كان الحياء رجلاً لكان رجلاً صالحاً ، ولو كان البذاء رجلاً لكان رجل سوء " (٣) . وقد عاب المشركين على الإسلام تحقير الأصنام ، وأنها لا تخلق " ذبابة " فبين الله تعالى أنه الحق أن تهاجم أصنامهم ، وتسب آلهتهم . فقال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦] . فإبراز الأصنام في هذه الصورة من العجز والضعف حق . ﴿ ... وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ ... ﴾ [سورة

١- مختصر تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٤٤٨ .

٢- رواه احمد .

٣- رواه الترمذى .

الأحزاب: ٥٣]. وفي سبيل إحقاق الحق لا يتهيب المسلم أحداً ، ولا يخشى بأساً ، ولا يعمل حساباً للأئمة . والحياء في أسمى منازلها وأكرمها يكون من الله - عز وجل - فنحن نلتم من خيره ، وتنفس في جوه ، وندرج في أرضه ومملكه ، ونستظل بسمائه ، ومع ذلك نعصيه ، والبعض يكفر به وآخر يفسد في الأرض ، ومع ذلك تغمرنا ألوه ، وتغطينا نعمه ويعمنا خيره ورزقه من المهد إلى اللحد . وعن " ابن مسعود " - رضی الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ » . قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . قَالَ « لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنْ مَنْ اسْتَحَى مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّاسَ وَمَا حَوَى وَليَحْفَظِ الْبُطْنَ وَمَا وَعَى وَلْيَذْكَرِ الْمَوْتَ وَالْبَلِيَّ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ » (١) . ويقال : إن هذه العظة للصحابي الجليل " عبد الله بن مسعود " - رضی الله عنهما - نستوعبا الكثير من آداب الإسلام العظيمة ، ومناهج الفضيلة والحياء بهذا الشمول هوالدين كله .

قال رسول الله - ﷺ - : « الْإِيمَانُ بَضْعٌ أَوْ بَضْعٌ وَسِتُونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » (٢) . وفي الأثر : " استحي من الله كما تستحي من أولى الهيبة في قومك " . الحياء خير كله " (٣) . وقال رسول الله - ﷺ - : « إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَأَصْنَعْ مَا شِئْتُ » . (٤)

1- رواه الترمذی .

2- رواه البخاری .

3- رواه مسلم .

٣ - تفسير الطبري ج ٢٠ ، ص ٣٩ .

□ تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ١١٦ - ١١٧ ، ص ٣٨٤ .

□ تفسير المراغي ج ٦ ، ص ص ٤٤ - ٤٥ ، ج ٧ ، ص ٤٨ .

□ الفتوحات الالهية وحاشية الجمل ج ٣ ، ص ١٤ - ١٥ - ٢٢ .

□ اللطائف للششيرى ج ٢ ، ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

□ مختصر ابن كثير ج ٢ ، ص ٤٤٨ .

□ موطأ " مالك " .

□ صحيح مسلم

□ صحيح البخاری .

□ الحاكم .

□ الترمذی .

□ الطبري .

□ ابن ماجة .

" الثبات على الحق "

ويمضي القرآن الكريم في الحث على الأخلاق الكريمة فيقول - سبحانه وتعالى - :

﴿ فَأَلْقَى السِّحْرَ سُجَّدًا قَالُوا أَمْثَارِيبَ هَرُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ أَمْنَمْتُ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَكَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا فَطْعَرَ أَيديكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَلْصَبْتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَقْبَنُ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ ﴾ [سورة طه: ٧٠: ٧٢]. بعد أن ذكر الله - سبحانه وتعالى - " الموعد " يوم الزينة وذكر أنهم قالوا اتوا صفا ذكر هنا أنهم بعد أن أتوا خيروه بين أن يبدأ بالقاء ما معه ، أو أن يبدأوا هم ، فاختار الثانية ، وحين بدأوا فآلقوا حبالهم وعصيهم ، وهنا خشى " موسى " - عليه السلام - عاقبة أمره ، فأوحى إليه ربه ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ١١٧]. لا تحف إنك أنت الأعلى والقي ما في يمينك فسيكون لك الظفر ، والنصر عليهم ، وقد تحقق ما وعده الله به ، وكتب له النصر ، وآمن به سحرة فرعون ، فلجأ فرعون إلى العناد ، والاستكبار ثم توعد السحرة بأنه سيقطع أيديهم ، وأرجلهم من خلاف وسيصلبهم في جذوع النخل ، فقابلوا تهديده بالاحتقار ، والاستهزاء والتهكم والسخرية ، فقالوا إنما أنت مسلط علينا في هذه الحياة الدنيا ، وعذابك لا يعدوها ، وما عند الله من العذاب لا يضارعه ولا يساويه عذاب ، وما عنده من الثواب لا يقدر قدره ، ففي جناته التي تجرى من تحتها الأنهار ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر. وقد قال السحرة في آية أخرى : ﴿ فَأَلْقُوا جِبَاهَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بَعْرَةَ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة الشعراء: ٤٤]. وقال تعالى : ﴿ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَبَهُمْ وَجَاءَهُمْ سِحْرٌ عَظِيمٌ ﴿١١٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ١١٦]. ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ ﴾ [سورة طه: ٦٦]. وذلك أنهم اودعوها في الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها ، وإنما كانت حيلة ، فألقى كل منهم عصا وحبالا حتى صار الوادي مملوء بالحيات يركب بعضها بعضا فخاف " موسى " - عليه السلام - على الناس أن يفتتنوا بسحرهم فأوحى الله إليه أن ألقى ما في يمينك " وهى " عصاه ، فإذا هى تلقف ما صنعوا وفعلاً وقع ما وعده به ربه فالتقفت ما صنعوا من السحر ، لأن سحرهم هذا يعد كبيراً ، وبهتاناً ، وافتراءً ﴿ ...وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [سورة طه: ٦٩]. وعند ذلك وقع السحرة سجداً لله : ﴿ وَأَلْقَى السِّحْرَ سِجْدِينَ

﴿١٣٠﴾ قَالُوا ءَأَمَّنَّا رَبَّ أَلَعَلِّمِينَ ﴿١٣١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٣٢﴾ [سورة الأعراف: ١٢٠: ١٢٢]. ولهذا قيل: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء برة. يقول صاحب اللطائف: " ولما طلعت في أسرارهم شمسُ العرفان ، وانبسطلت عليهم أنوار العناية أبصروا الحق سبحانه بأسرارهم ، فنطقوا ببيان التصديق ، وسجدوا بقلوبهم لمشهودهم ، ولم يحتشموا مما توعدهم به من العقوبة ، ورأوا ذلك من الله فاستعدبوا البلاء ، وتحملوا الأواء ، فكانوا في الغداة كُفَّاراً سَحَرَةً ، وأمسواً أخياراً بَرَّةً. وفي هذه العبارة فتح لباب الأمل أمام العصاة نظراً لقصر المسافة بين الكفر والإيمان ، فهي كما بين الغداة ، والمساء . عَلمُوا أَنَّ البَلَاءَ فِي الدُّنْيَا يَنْقُضِي - وَإِنْ تَمَادَى ، وَيَنْتَهِي وَإِنْ تَنَاهَى . أَهْمُ الْأَشْيَاءِ - عَلَى مَنْ عَرَفَهُ - مَغْفَرَتُهُ لِخَطَايَاهُ ؛ فَهَذَا آدَمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا اسْتَكْشَفَ مِنْ حَالِهِ ، وَحَلَّ بِهِ مَا حَلَّ قَالَ : ﴿...رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي...﴾ [سورة القصص: ١٦]. وقال سبحانه وتعالى لنبينا - ﷺ - ﴿...وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ...﴾ [سورة غافر: ٥٥].

وقال نبينا - ﷺ - : « إنه ليعان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة » (١) وَمَنْ عَلَيْهِ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿٤﴾ [سورة الفتح: ٢]. وكان عدد السحرة سبعون ألفا ، وقيل كانوا أقل من ذلك . وقيل كانوا بضعة وثلاثين ألفا ، وقيل كان سحرة فرعون اثني عشر ألفا . ويقول " ابن عباس - " رضى الله عنهما - : " كانت السحرة سبعين رجلاً أصبحو سحرة وأمسوا شهداء " . قال الأوزاعي: لما خرَّ السحرة سُجَّدًا رُفِعَتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهَا . وقيل : " رأوا منازلهم تنبئ لهم وهم في سجودهم " .

فبعد أن رأى فرعون "إيمان السحرة، لجا إلى العناد والمكابرة والتهديد والوعيد . فقال: ﴿قَالَ ءَأَمَّنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قَطْعَ بِيَدَيْكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَلْصَلْبَتِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلِنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ﴿٧١﴾ [سورة طه: ٧١] فهو كبيركم الذي تعلمتم منه السحر وتامرتم معه عليّ وعلى ريعيتي . كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣٣﴾ لَأَقْطِنَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ [سورة الأعراف: ١٢٣: ١٢٤]. يقول " ابن عباس - " رضى الله عنهما - : " إن فرعون هو أول من فعل ذلك يعنى التعذيب والتمثيل بهذه الطريقة. ثم نراه يقول لهم : " أنتم تقولون إنى وقومى على

ضلاله وأنتم وموسى على الهدى فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه ومما لا ريب فيه أن العذاب له ولقومه ولكل من اتبعه في الضلال والغواية والعدا، والاستكبار بغير الحق، فقالوا له بايمان صادق، وعقيدة ثابتة، وإيمان لا يخالجه شك: " افعل ما شئت فإنك تستطيع أن تفعل ما شئت في هذه الحياة الدنيا، لكننا في الدار الآخرة وهى دار القرار، والسبب في ايماننا لتخلص من عبادتنا الواهمة وتخلصنا من الآثام وما اكرهتنا عليه من السحر والله خير وابقى .

وهنا نرى فرعون يهددهم في آية أخرى فيقول لهم: ﴿ قَالَ أَمَسْتُمْ لَهُ قِيلَ أَنْ أَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَسَوْفَ نَعْمُونَ لَأَطْعَمَنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء: ٤٩]. أى ما ينالكم منى، فقالوا مجيبين له: " لا ضير ولا ضرر علينا مما تفعله بنا، إننا نرجوا أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين في زماننا. ثم يأمر الله نبيه - ﷺ - " بالصبر" حيث إنه - عليه السلام - أدى واجبه، وبلغ رسالته، وأندرقومه، ودعا عشيرته، وذلك بالبراهين الساطعة، والحجج القوية، والدلائل الواضحة، فإن الذى يطلب شيئاً فوق ذلك فهو مكابر، وجاحد، ومعاند. يقول الشاعر:

قَدْ تَنَكَّرَ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكَرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ

والله يقول لنبيه - عليه السلام - : " إذا علمت حالهم وطبع الله على قلوبهم فاصبر، إن وعد الله حق، ووعدته الحق نصره عليهم - ﷺ - ولا يستخفك الذين لا يؤمنون بالبعث فيحملونك على ترك الصبر فلا تترك الصبر، يقول تعالى :

﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [سورة النحل: ١٢٧]

ويعد الثبات على الحق خلق قرآنى، فواجب على المسلمين أن يتخلقوا بهذا الخلق العظيم ليسعدوا في الدنيا والآخرة والسعادة في الدنيا تكون بالطمأنينة، والاستقرار النفسى، وراحة البال حيث إن المسلم بثباته على الحق يكون قد أراح ضميره وأسعد نفسه، كما أنه يُسعد الآخرين .

وهناك كثير من الناس لا يثبتون على الحق إرضاءً لشخص، أو رئيس مصلحة، أو صاحب سلطة. كى ينال رضاه بسخط الله - سبحانه وتعالى - ويحتج بقوله: " هذا أمر وسط ". فيقول الحق - سبحانه وتعالى - :

﴿...فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ...﴾ [سورة يونس: ٣٢]

" فماذا بعد الحق إلا الضلال " فعلينا نحن المسلمين أن نثبت على الحق ، ولو علم

أن في ذلك حتف أنفه وهلاكه لأنه بذلك يرضى الله بسخط الناس ، كما فعل سحرة فرعون، فقد أرضوا ربهم وخالفهم بسخط فرعون وجبروته . (١)

1 - لطائف الاشارات ج ٢ ، ص ٥٦٥ وما بعدها .

□ تفسير القرآن العظيم لأبن كثير ج ٣ ، ص ١٥٨ وما بعدها .

□ الفتوحات الالهية ج ٣ ، ص ٨٦ - ٨٧ وأيضا ص ٣٩١ وما بعدها وص ١١٧ .

" المودة في القربى "

بعد أن ذكر الله - عز وجل - في الآيات السالفة الذكر أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون بالنعيم في روضات الجنات ، وأنه يعطهم من فضله ما فيه قرة أعينهم رحمةً من لدنه ، يذكر الله - عز وجل - هنا أن ذلك كائن لا محالة ببشارة منه لهم ثم يعقب هذا بأن أمر رسول الله - ﷺ - أن يقول لهم : " أنه لا يسألهم على هذا البلاغ والنصح أجراً ، وإنما يطلب منهم التقرب إلى الله - سبحانه وتعالى - ، وحسن طاعته . " فقال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [سورة الشورى: ٢٣]

والمعنى: قل لهم يا محمد - ﷺ - : إني لا أسألكم على تبليغ ما أبلغتكم به من هذا الدين القويم نفعاً منكم في دنياي ، ولكن أسألكم أن تؤدوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة ، والعمل الصالح ، ويدخل في ذلك مودة النبي - ﷺ - ، ومودة قرابته ، ومودة ذوى القربى من المسلمين فإن من تقرب إلى الله أحب رسوله - ﷺ - ، وأكرم قرابة الرسول ، وأكرم قرابته هومن المسلمين ، فالآية عامة تنتظم جميع المسلمين فى المحبة والمودة ، والتراحم ، والعطف ، قال - ﷺ - : " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحَمَىٰ " .
ويقول " ابن عباس - " رضى الله عنهما - : " قال لهم رسول الله - ﷺ - : " لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تؤدوني في نفسي لقرباتي منكم ، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم " . وعن " الشعبي " قال : " أكثر الناس علينا في هذه الآية : " قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ " .

فكتبنا إلى " ابن عباس - " رضى الله عنهما - نسأله عن ذلك ، فقال : " إن رسول الله - ﷺ - كان واسط النسب في قريش ليس بطن من بطونهم إلا ، وله فيه قرابة ، فقال الله : " قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا " على ما أدعوكم إليه . " إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ " . أن تؤدوني لقرباتي منكم ، وتحفظوني بها " .

" والذي جاء بالصدق " هورسول الله - ﷺ - " وصدق به " قال المسلمون " أولئك هم المتقون . "

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : اتقوا الشرك .

﴿ هُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ... ﴾ يعني في الجنة مهما طلبوا وجدوا ، ﴿...ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الزمر: ٣٥]

كما قال - عز وجل - في الآية الأخرى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَّوَرُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الأحقاف: ١٦] .^(١)

فالاسلام يحث ويحض المسلم على الصدق في جميع أقواله وأفعاله فإن الحيف في الشهادة مثلا يعد من أشنع ألوان الكذب ، فمن الواجب على المسلم أن يصدق في الشهادة ولو كان ذلك على أدنى الناس منه قرابة ، وأحبهم إليه لا تميل به قرابة ، ولا عصبية ، ولا رغبة ولا رهبة . فتزكية المرشحين مثلا لعضوية مجلس الشورى أو مجلس الشعب ، أو منصب من المناصب العامة يعد لونا من ألوان الشهادة ، فالذى ينتخب المغموط في كفايته ، وأمانته ، فقد كذب وزور ولم يقم بالقسط والعدل ، كما أن التقارير التى يكتبها أى مسئول مثل التقارير التى تكتب في الأشخاص الذين يتقدمون لشغل درجات علمية ، أو مناصب قيادية كالقضاء والنيابة والكلديات العسكرية ، وهى شهادة يسأل عنها امام الله يوم القيامة إذا ما زور في تقريره وكتب له أشياء لا يملكها المتقدم لشغل هذا المنصب كما نرى في عصرنا هذا . يقوم بكتابة تقرير يثبت فيه أن هذا المتقدم يملك حيازة لأكثر من عشرين فدانا ، أو حظيرة خيول ، وعقارات ، وعمارات وهو لا يملك من حطام الدنيا شيئا . فتلك الأمور تزوير وحيف وجور وظلم لأنه بذلك التقرير ربما يشغل مقعدا كان من الواجب أن يشغله غيره ، فبالتقارير الظالمة يقع الجور والظلم وهو منافٍ للصدق الذى يجب أن يتخلق به المؤمن .

قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ بِأَلْقُسُطِ شُهَدَاءَ لِلَّذِينَ عَلَيٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّهُ أَوْ تَعْرِضُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [سورة النساء: ١٣٥]

1 - تفسير ابن كثير ج ٤ ، ص ٣٥ - ٥٤ .

□ صفوة التفاسير للصابوني ج ٣ ، ص ٧٩ - ٨٠ .

"وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي" وهنا يسأل " حصين " " زيد بن الارقم " : ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال: إن نساءه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حُرِّم الصدقة بعده قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس، قال: أكل هؤلاء حرم الصدقة ؟ . قال: نعم .

عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت: يا رسول الله ، إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حسن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ؟ .

قال: فغضب النبي - ﷺ - غضباً شديداً ، وقال: "والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله " . وفى رواية أخرى قال - ﷺ - : "والله لا يدخل قلب امرئ إيمان حتى يحبكم لله ولقرايبي " . وعن ابن عمر عن أبي بكر الصديق - رضى الله عنهم أجمعين - قال: ارقبوا محمداً - ﷺ - في أهل بيته .

ويروى أن رسول الله قال - ﷺ - : " إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، والآخر عترتي : أهل بيتي ، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما " . عن أبي إسحاق، عن حنّس قال: سمعت " أبا ذر " وهو أخذ بقلعة الباب ، يقول: " يا أيها الناس، من عرفني فقد عرفني ، ومن أنكرني فأنا " أباذر " ، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: " إنما مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من دخلها نجا ، ومن تخلف عنها هلك " . فواجب على كل المسلمين حب الله ، وحب رسوله - ﷺ - ، وحب آل بيته ، وحب كل من أحب آل بيته . ويقول الشاعر الصوفي :

والحب إن ملك النفوس أعزها والعارفون بربهم علماء

فالذين ينكرون حب آل بيت النبوة إنما هم فى ضلال مبين ، وقد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوه ، فهم لا يبصرون من العلماء ، وذلك مثل " الشيعة " وهو اسم فى غير موضعه . هؤلاء الذين يسبون آل البيت ، ويعيبون السيدة الفضلى "عائشة " بنت أبى بكر وزوج النبى - ﷺ - ، بل ويتهمونها ، والعجيب أنهم يسمون " بالشيعة "

والمفروض أن يكون هؤلاء أشد حباً من غيرهم لآل بيت رسول الله - ﷺ -، فحب الله وآل بيته عيون كل مسلم صحيح العقيدة، راسخ الإيمان .

اللهم ارزقنا محبتك، ومحبة نبيك - ﷺ -، ومحبة آل بيته، وحب من يحب الله

ورسوله وآل بيته آمين. (١)

1- تفسير ابن كثير ج ٤ ، ص ١١١ - ١١٤ .

❑ مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٢٧٥ .

❑ تفسير القرطبي ج ١٦ ، ص ٢٠ .

❑ البحر المحيط ج ٧ ، ص ٥١٦ .

❑ في ظلال القرآن الكريم ج ٥ ، ص ٣١٥٣ وما بعدها بتصرف .

❑ تفسير المراغي ج ٩ ، ص ٣٨ وما بعدها بتصرف .

❑ حاشية الجمل .

❑ الكشاف للزمخشري .

❑ تفسير النسفي .

❑ حاشية الشهاب على البيضاوي .

" عدم الحنت "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة "عدم الحنت" فيقول سبحانه: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص: ٤٤]. والمعنى: وخذ بيد حزمة من ربحان أو كلاً فاضرب بها ، فيكون ذلك تحلل ليمينك التي حلفتها . والكتاب لم يبين لنا علام حلف ؟ وعلى من حلف ؟ لكن الرواة يذكرون انه حلف على زوجه "رحمة بنت أفزائم" وقد كانت ذهبت لحاجة فأبطأت ، فحلف ليضربنها ان برى مائة ضربة ، فرخص له ربه - سبحانه وتعالى- ان يأخذ حزمة صغيرة ويضربها بها ، وبذا يتحقق البرفى بيمينه رحمة به وبها ، لحسن خدمتها له ، وقيامها بواجباتها المنزلية أثناء مرضه . وفى هذا مخرج ، وفرج ، لمن اتقى الله وأناب إليه ، ولهذا قال - عز وجل - : "...إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ" . يعنى : وجدنا أيوب صابراً على ما أصابه فى النفس ، والأهل ، والمال ، من أذى ، فجازيناه بما فرج كربه ، وازهد لوعته ، وليس فى الشكوى إلى الله إخلال بالصبر ، وليس فيه شئ من الجزع ، فهو مثلما تمنى العافية ، وطلب الشفاء .

وقد روى انه كان يقول كلما أصابته مصيبة : "اللهم أنت أخذت ، وأنت أعطيت" وكان يقول فى مناجاته : "إلهي قد علمت انه لم يخالف لساني قلبي ، ولم يتبع قلبي بصري ، ولم تلهني ما ملكت يميني ، ولم أكل إلا ومعى يتيم ، ولم أبت شعبان ، ولا كاسياً وإلاً ومعى جائع او عريان . ويقول المفسرون : "فلما اشتد به البلاء ، وطالت به المدة ، وسوس اليها الشيطان قائلاً : الى متى تصبرين؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر فقالت له : الى متى هذا البلاء ؟ فغضب من هذا الكلام وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط فأمر الله ان يأخذ حزمة من قضبان خفيفة فيها مائة عود ويضربها بها ضربة واحدة ، ويرفى بيمينه ، ورحمة من الله به ويزوجه التى قامت على رعايته وصيرت على بلائه ، وهذا من

الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ، ولهذا قال الله تعالى : "....إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ"....". .يعنى : ابتليناه فوجدناه صابراً على الضراء . نعم العبد أيوب - عليه السلام - انه كثير الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة ، والإنابة ، والعبادة .

وهذا الأمر يعد تكريماً لسيدنا أيوب - عليه السلام - ، ونحن نرى إنه عام لكل من اتقى الله - سبحانه - يجعل له من كل ضيق مخرجاً ، وفي كل شدة فرجاً . يقول تعالى :

﴿.....وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...﴾ [سورة الطلاق : ٢ : ٣]

وان كان الإسلام قد أباح الحنت للمسلم إذا حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليحنت ثم ليكفرن عن يمينه لقول رسول الله - ﷺ - : " من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليحنت في يمينه ثم ليكفرن " . لكن هذا الأمر يعد خصوصية لسيدنا أيوب - عليه السلام ، كما هو عام لجميع المسلمين المتقين الذين يخشون ربهم بالغيب يجعل الله لهم من أمره يسراً ، وينجيهم من المزالق ، ويأخذ بأيديهم إلى طرق النجاة ، وسبيل الفرج والنجاح .

كما أن الأمر في هذه الآونة يحتاج إلى التذرع بالصبر الجميل دون ضجر أو ملل ، ولا سأم ولا شكوى إلا لله - سبحانه وتعالى - فالشكوى لله لا تعد ضجراً ، ولا عدم رضا ، إنما هي طلب لتفريج الكرب ، وإزاحة الغمة ، وانفراج الشدة (١) .

1- تفسير المراعى ج ٨ ، ص ١٢٦ .

- ❑ صفوة التفاسير ج ٣ ، ص ٦١ .
- ❑ تفسير القرطبي .
- ❑ تفسير أبو السعود .
- ❑ الكشاف للزمخشري .
- ❑ حاشية الجمل .

" الوفاء "

ويمضى القرآن الكريم في الحث على الخلق ، ومن بين هذه الأخلاق القرآنية الفاضلة " الوفاء " وهى خصلة من الخصال الإسلامية التي يجب أن يتحلى بها كل مسلم ، وأن يزين بها حياته ، فإذا أبرم المسلم عقداً فيجب ان يحترمه ، وإذا أعطى عهداً يجب ان يلتزمه ، والإيمان الصادق يحتم على المسلم أن يكون عند كلمته التي قالها ، ينتهي إليها مثل ما ينتهي الماء عند شطآنه ، وبذلك يصبح المسلم معروفاً ومشهوراً لدى الناس بهذه الفضيلة العظيمة وهى الوفاء الذي أصبح اليوم معدوماً أو يكاد بين المسلمين . وصدق القائل :

اعلم ان المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفي

وفى هذا يقول الله سبحانه : ﴿يَبْنَئِ إِسْرِيَّ لِي أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤٠] والمعنى : يا أولاد النبي الصالح يعقوب - عليه السلام - اذكروا ما أنعمت به عليكم ، وعلى آبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى ، فأدوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان والطاعة ، أوفوا بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب ، فاحششوني دون غيري . فيقول المراعى في تفسيره : " احفظوا بقلوبكم نعمى وذلك بالتفكر فى شكرها باللسان " . وفى هذا إشارة إلى أنهم نسوها ، ولم يخطرورها ببالهم ولم تعين الآية هذه النعمة ، والمراد بها : نعمة النبوة التى اصطفاهم بها زماناً طويلاً ، حيث أنهم كانوا يسمون " شعب الله " وهذه المكرمة التى اوتوها ، والنعمة التى اختصوا بها ، وكانوا مفضلين على الأمم والشعوب ، تقتضى ذكرها ، وشكرها ، ومن شكرها (الإيمان بكل نبي يرسله الله لهداية البشر) لكنهم جعلوا هذه النعمة حجة للإعراض عن النبي - ﷺ - والازدراء به ، زعما منهم ان فضل الله محصور فيهم ، فلا يبعث الله نبي إلا منهم .

ولو نظر بنو إسرائيل إلى العهد العام ، أو العهود الخاصة المعروفة فى كتابهم المنزل إليهم ، ومنها انه سيرسل لهم نبي من بني إخوانهم " إسماعيل " - عليه السلام - يقيم شعباً جديداً لآمنوا بالنبي - ﷺ - ، واتبعوا النور الذي انزل معه وكانوا من الفائزين . أما عهد الله لهم فإن يمكن لهم فى الأرض المقدسة ، ويرفع من شأنهم ، ويخفض لهم العيش فيها ، وينصرهم على أعدائهم الكفرة ، ويكتب لهم السعادة فى الآخرة ، ولما كان من موانع الوفاء

بالعهد خوف بعضهم من بعض ، ذكر هنا إن الخوف يجب أن يكون من الله وحده ، فقال تعالى : ﴿... وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ (٤٠) . يعنى : لا تهربوا ولا تخافوا أحداً غيره وهو الذى بيده مقاليد الأمور ، وهو الله الذى انعم عليكم بتلك النعم الكبرى وهو القادر على سلبها منكم ، وعلى عقوبتكم على ترك الشكر عليها ، ولا يهرب بعضكم بعضاً خوف فوت بعض المنافع ، ونزول بعض الأضرار اذا انتم اتبعتم الحق ، وخالفتم غيركم من الرؤساء .

وفى نفس المعنى يقول الحق سبحانه : ﴿لَيْسَ إِلَهَ إِلَّا أَن تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ

وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ؕ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧] يقول أهل العلم : " هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام لأنها تضمنت ستة عشرة قاعدة وهى : الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته ، والنشر ، والحشر ، والميزان ، والسرطا ، والحوض ، والشفاعة ، والجنة ، والنار ، والملائكة ، والكتب المنزلة ، وإنفاق المال ، وإيصال القرابة ، وتفقد اليتيم وعدم إهماله ، والمساكين كذلك ، ومراعاة ابن السبيل ، وهو الذى انقطع به الطريق ، وقيل هو الضيف .

وقوله تعالى : " ... وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا... " . يعنى : والذين يوفون

بعهودهم اذا عاهدوا عليها ، وهذا شامل لما يعاهد عليه الناس بعضهم بعضاً ، ولما يعاهد عليه المؤمنون ربهم من السمع والطاعة لكل ما جاء به فى دينه ، ولا يجب الوفاء به اذا كان فى معصية ، ومثل العهود " العقود " فيجب علينا الوفاء بها ما لم تكن مخالفة لقواعد الدين العامة . وفى الوفاء بالعهود والعقود حفظ كيان المجتمع من أن ينفرط عقده ، كما أن الغدر والإخلاف فيها هادم للنظام ، ومفسد للعمران ، فما من أمة فقدت الوفاء بالعهد - وهوركن الأمانة وقوام الصدق - إلا حل بها العقاب الألهى ، فانتزعت الثقة من بين أفرادها حتى بين الأهل والعيال ، فيعيشون متخاذلين وكأنهم وحوش مفترسة ، ينتظر كل واحد وثبة الآخر عليه ، اذا أمكن يده ان تصل إليه ، ومن ثم يضطر أفرادها إلى الاستيثاق فى عقودهم بكل ما يقدرون عليه ويحترس كل منهم من غدر الآخر ، فلا يكون هناك تعاون

ولا تناصر، بل تباغض وتحاسد، ولا سيما بين الأقارب، ولو أن الوفاء شمل الناس لعاشوا في سعادة، وامن وطمأنينة، وهدوء واستقرار، ولسلموا من هذا البلاء.

ويقول الله - عزوجل - في ذات المعنى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٧٦] والمعنى: بلى عليكم في الأميين سبيل، وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة، والأمانات، فمن أقرضك مالاً إلى أجل مسمى، أو باعك بثمن مؤجل، أو أتمنتك على شئٍ وجب عليك الوفاء به، وأداء الحق له في حينه دون الحاجة إلى الإلحاح في الطلب أو إلى التقاضى، وبذلك قضت الفطرة وحتمت الشريعة، وفى هذا إيماء إلى ان اليهود لم يجعلوا الوفاء بالعهد حقاً واجباً لذاته، بل العبر عندهم بالمعاهد، فإن كان اسرائئلياً وجب الوفاء له، ولا يجب الوفاء لغيره.

والعهد ضربان: الأول: عهد المرء مع أخيه فى العقود والأمانات. الثاني: وهو عهد الله تعالى، وهو ما يلتزم به المؤمن لربه، وذلك بإتباع دينه، والعمل بما شرعه على لسان رسوله. واليهود لم يفوا بشئٍ منها، اذ لو أوفوا بعهد الله لآمنوا بالنبى - ﷺ - واتبعوا النور الذى انزل معه، كما وصاهم بذلك كتابهم على لسان رسولهم موسى - عليه السلام - وقد جعل الله جزاء الموفين بالعهد الذين تجنبوا الغدر والإخلاف محبة الله تعالى ورحمته فى الدنيا والآخرة، وفى هذا إيماء إلى أن الوفاء بالعهد وعدم الخلف فيها هو الذى يقرب العبد من ربه، ويجعله أهلاً لمحبهه، أما الانتساب إلى شعب بعينه فلا قيمة له عند الله.

ويقول الله تعالى فى ذات المعنى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۗ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة المائدة: ١]. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود فى ستة عهد لله، وعقد الخلق، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين. ويقول محمد بن كعب: هي خمسة: "حلف الجاهلية، وشركة المفاوضة" وقد استدل بعض من ذهب إلى إنه لا خيار فى مجلس البيع بهذه الآية فقوله تعالى: "...أَوْفُوا بِالْعُقُودِ..." دالة على لزوم العقد وثبوتها فيقتضى نفي خيار المجلس، وهو مذهب الإمام أبوحنيفة ومالك وخالفهما فى ذلك

الشافعي وأحمد والجمهور. والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : " البياعان بالخيار ما لم يتفرقا ". وفي لفظ آخر للبخاري : " إذا تباع الرجلان فكل واحد فيهما بالخيار ما لم يتفرقا " وهذا صريح في إثبات خيار المجلس وليس منافياً للزوم العقد ، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود . ويقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ أَوْفَىٰ بِأَلْقُسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّانِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ [سورة الأنعام: ١٥٢] . والمعنى : يأمر الله - عزوجل - بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء ، كما توعد على تركه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَلِّ لِّلْمُطَفِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة المطففين: ١: ٥] . وقال تعالى : "... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَاللَّهُ أَوْفَىٰ ..." . والمزاد : وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوصوا ايضاً لذلك بان تطيعوه فيما أمركم به ، ونهاكم عنه ، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله - ﷺ - ، وذلك هو الوفاء بعهد الله ، "... ذَٰلِكُمْ وَصَّانِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ " . يعني : هذا أوصاكم به ، وأمركم به وأكد عليكم فيه لعلمكم تتعظون ، وتنتهون مما كنتم فيه قبل هذا .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ بَعَثْنَا لَكُمْ رَسُولًا لِّتُعْذِيبُوا عَالَمِينَ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ النُّجُومِ سَاقِطًا يُغْثِي السَّحَابَ وَبِأَنفُسِكُمْ يَكْفُرُ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة النحل: ٩١] . والمعنى : حافظوا على العهود التي عاهدتم عليها رسول الله - ﷺ - أوعاهدتم عليها الناس وأدوها على الوفاء والتمام . ويقول الله تعالى : ﴿ ... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [سورة الإسراء: ٣٤] . والمعنى : وفوا بالعهود سواءً كانت مع الله ، أو مع الناس ، لأنكم تسألون عنها يوم القيامة ، ويقول الله - عزوجل - :

﴿ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ لَا يُفْعَلُونَ أَلَمْ يَلْمِزْكُمْ عَلَىٰ مَا لَمْ يُحِلِّمْ عَلَيْكُمْ وَأَتَّخَذُوا عَهْدًا مِّنْكُمْ ثُمَّ خَانُوكُمْ لِئَلَّا تُعْلَمُوا ﴾ [سورة الرعد: ٢٠]

ويقول الإمام الشهيد سيد قطب في تفسير هذه الآية: "وعهد الله مطلق يشمل كل عهد ، وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق ، والعهد الأكبر الذي تقوم عليه العهود كلها هو عهد الإيمان ، والميثاق الأكبر الذي تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء ، بمقتضيات هذا الإيمان ، وعهد الإيمان قديم وجديد ، قديم مع الفطرة البشرية المتصلة بناموس الوجود كله المدركة إدراكاً مباشراً لوحدة الإرادة التي صدر عنها الوجود ، ووحدة الخالق صاحب الإرادة وإنه وحده المعبود ، وهو الميثاق المأخوذ على الذرية في ظهور بني آدم فيما ارتضيناه لها من تفسير .

ويقول الحق سبحانه :

﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣].

والمعنى : من المؤمنين بالله المصدقين برسوله - ﷺ - رجال أوفوا بما عاهدوا الله عليه من الصبر في اللواء وحين البأس فاستشهد بعضهم في غزوة بدر الكبرى ، وبعضهم في وقعة أحد ، وبعضهم في غير هذه المواطن ومنهم من ينتظر قضاءه واستشهاده في سبيل الله ، ولقد وفوا وصدقوا وما غيروا ، وما بدلوا .

أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي في جماعة آخزين عن أنس قال : " غاب عمى أنس بن النضر عن بدر فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله - ﷺ - غبت عنه ، لئن أراني الله تعالى مشهداً مع رسول الله - ﷺ - فيما بعد ليرين الله تعالى ما اصنع ، فشهد يوم احد فاستقبله سعد بن معاذ - رضى الله عنه - فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ قال : واها لريح الجنة أجدها دون أحد فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون ضربة ، وطعنة ، ورمية ، فنزلت هذه الآية " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه " . والآية تشترط أن يتوافر في المجاهد المسلم ، والمقاتل المؤمن ، المدافع عن دينه ، الزائد عن أرضه وعرضه ثلاثة شروط :

١- الإيمان. من المؤمنين .

٢- الرجولة. رجال .

٣- الوفاء. صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

ويروى لنا صاحب الكشاف فيقول : " أن رجلاً من الصحابة - رضى الله عنهم - نذروا أنهم اذا لقوا حرباً مع رسول الله - ﷺ - ثبتوا وقتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد ، وحمزة ، ومصعب بن عمير " وغيرهم ويقول الله تعالى أيضاً في معنى الوفاء :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٨)

[سورة الحديد:٨].

يقول الإمام الشهيد سيد قطب : فما الذي يعوقهم عن الإيمان - حق الإيمان - وفيهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان ، وقد بايعوه عليه ، وأعطوه ميثاقهم ؟ وما الذي يعوقهم عن الإيمان بالله وهو ينزل على عبده آيات بينات تخرجهم من ظلمات الضلال والشك ، والحيرة ، إلى نور الهدى واليقين ، والطمأنينة ؟ وفي هذا وذاك من دلائل الرأفة والرحمة بما فيه .

ومن الوفاء المحمود أن يذكر الرجل ماضيه الذاهب لينتفع به في حاضره ومستقبله فإن كان معسراً فأغناه الله ، أو مريضاً فشفاه الله ، فليس يسوغ له أن يفصل بين أمسه ويومه يسور غليظ ثم يزعم انه ما كان قط فقيراً ولا مريضاً ، ويبنى على غروره بحاضره مسلماً كله فظاظاً وجحوداً . هذا نوع من الغدر ينتهي بصاحبه إلى النفاق ، وربما أنطرده من رحمة الله فلم تتسع بعدئذ له .

وقد روى أن رجلاً من أهل المدينة يدعى ثعلبة أتى مجلساً من مجالس الأنصار فأشهدهم لئن أتاني الله من فضله أتيت منه كل ذي حق حقه ، وتصدقت منه ، ووصلت القرابة، فمات ابن عم له فورث منه مالا، فلم يف بشئ مما عاهد عليه. فنزل قول الله تعالى ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدَّقَنَّهُ وَلَنُكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٧٥) فَلَمَّا

ءَاتَهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْاْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِم إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ
يَمَّا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ [سورة التوبة: ٧٥: ٧٧]

ومن الجدير بالذكر أن ثعلبة هذا المراد به الصحابي الجليل ثعلبة بن حاطب حيث أن ثعلبة بن حاطب ممن شهد غزوة بدر الكبرى فلا يعقل أن يكون هذا الفعل ، وذلك التصرف من ثعلبة بن حاطب بل هو ثعلبة غيره .

ومن القصص الدالة على شوْم العذر وعقوق النعمة ، ما رواه أبوهريرة عن رسول الله - ﷺ - قال : " ان ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى ، أراد الله أم بيتليهم فبعث إليهم ملكاً ، فأتى الأبرص فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عنى الذي قدرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه قدره وأعطى لوناً وجلداً حسناً ، فقال : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ، فأعطاه ناقة عشراء وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأقرع فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عنى هذا الذي إليك ، قال : البقر ، فأعطى بقرة حاملاً وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأعمى فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : ان يرد الله على بصري ، فمسحه ، فرد الله عليه بصره ، قال : فأى المال احب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطى شاة والدا فأنتج هذا وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، ثم انه أتى - أى الملك - الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحيال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسالك بالذي أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن ، بغيراً أتبلغ به سفري ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقدرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ؟ قال : إنما ورثت هذا المال كبيراً عن كابر ، قال : ان كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت . واتى الأقرع في صورته فقال له : مثل ذلك ورد عليه مثل ما رد الأول فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، ثم أتى الأعمى في صورته وهيئته . فقال له

مثل ما قال فقال : قد كنت أعمى فرد الله عَلَيَّ بصري ، فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم لشيء أخذته ، فقال : إمسك مالك ، فإنما ابتليتكم فقد رضى عنك ، وسخط على صاحبك .

والإسلام يوصى باحترام العقود التي يسجل فيها الالتزامات وغيرها ، ويأمر بإنفاذ الشروط التي تتضمنها ، وفي الحديث " المسلمون عند شروطهم " (١) .

-
- 1- صفوة التفسير ج ١ ، ص ٥٣ بتصريف ، ج ٨ ، ص ٥٩ ، ج ٢ ، ص ١٤١ .
- تفسير المراعي ج ١ ، ص ٩٩ ، وما بعدها بتصريف ، ج ٧ ، ص ١٤٧ ، ج ١ ، ص ١٩ وما بعدها .
 - في ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب ج ٦ ، ص ٣٤ - ٨٣ ، ج ٤ ، ص ٢٠٥٧ .
 - القرطبي ج ١ ، ص ٦٢ .
 - تفسير ابن كثير ج ٢ ، ص ٢٠٣ وأيضاً ص ١٨٩ - ١٩٠ .

أهم المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم .
٢. السنة النبوية المطهرة .
٣. سنن الدارمي للحافظ الدارمي السمرقندي ، تحقيق احمد وخالد السبع ، نشر دار الريان للتراث ، القاهرة .
٤. سنن الدارقطني للإمام على بن محمود الدارقطني ، نشر عالم الكتب ، بيروت . لبنان .
٥. المفهم ، شرح صحيح مسلم للقرطبي ، نشر دارالكتاب المصرى ، القاهرة .
٦. عمدة القارئ ، شرح صحيح البخارى للعيني ، نشر دار أحياء التراث العربى ، بيروت . لبنان .
٧. مجمع الزوائد للهيثمى ، نشر موسوعة المعارف ، بيروت . لبنان .
٨. البحر المحيط .
٩. البحر المديد ، لإبن عجيبة .
١٠. التحرير والتنوير ، لعاشور .
١١. التسهيل لعلوم التنزيل ، لإبن جزرى .
١٢. التفسير الكبير، للفخر الرازى .
١٣. الزيادة فى كتاب " النهاية " لإبن الأثير .
١٤. المعجم الوافى لكلمات القرآن الكريم تأليف : محمد عتريس ، ط : مكتبة الآداب بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ .
١٥. بلاغات النساء لطيفور ، بتحقيق د . عبد الحميد هنداوى ، دارالفضيلة .
١٦. تفسير ابن كثير .
١٧. تفسير أبوالسعود .

١٨. تفسير الخازن .
١٩. تفسير القرطبي .
٢٠. تفسير النسفي .
٢١. تفسير القرطبي ، ط . دار الريان للتراث . القاهرة .
٢٢. تفسير المراغي .
٢٣. تفسير الكشاف ، للزمخشري .
٢٤. حاشية الصاوي على الجلالين .
٢٥. حاشية الشهاب للبيضاوي ، ط . مؤسسة التاريخ العربي .
٢٦. خلق المسلم الشيخ محمد الغزالي، ط . نهضة مصر.
٢٧. روح المعاني للألوسي ، ط . دار الفكر سنة ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م
٢٨. في ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب ، ط . دار الشروق .
٢٩. لطائف الاشارات للإمام القشيري ، ط . مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية للكتاب ص ١٩٨٣ م .
٣٠. مختصر تفسير ابن كثير .
٣١. مفاتيح الغيب .